سلسلة المترجمات

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

محمّد العربي مداسي

مغربلو الرمال

الأوراس – النمامشة 1954 – 1959

الأكاديمية الجزائرية لتبادل الوثائق و المصادر التاريخية.

الأكاديمية الجزائرية لتبادل الوثائق و المصادر التاريخية.

مغربلو الرمال

الأوراس – النمامشة 1954–1959

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

محمد العربي مداسي

مكتبة المتحف
الوطني للمجاهد
بتلمسان
294/354

مغربلو الرمال

الأوراس – النمامشة 1954–1959

تأليف : محمد العربي مداسي
تعريب : صلاح الدين الأخضري

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة
الذكرى الـ 55 لاندلاع الثورة التحريرية

شوهد مجنون لي
"عمّ تبحث يا هـ
أن تجدها كذلك
الغبار؟" قال: "
ما."

فريد الدين عطار
سلسلة "الزعمل

Les tamiseurs de sable

Mohamed Larbi Madaci

شوهد مجنون ليلى يوما، يغربل الرمل بين يديه، فقيل له: "عمّ تبحث يا هذا ؟" فأجاب : "عن ليلى." قيل : أو تطمع أن تجدها كذلك؟ أتكون مثلُ تلك اللؤلؤة النقية في مثل هذا الغبار؟" قال: "إني لأطلبها في كل مكان، لعلي أجدها يوما ما."

فريد الدين عطار كما أورده إميل ديرمنغهيم
سلسلة "الزعماء الروحيون"

تـوطئـة

مهما يكن الحكم الذي سيصدر في المستقبل، بشأن مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني وعجال عجول، فإن مكانتهم في الثورة الجزائرية ثابتة. ولن يكون الخلاف هيّنا بشأن هذه المكانة. وإني أعتقد، أن الوقت قد حان لتخليص تاريخ الثورة في الأوراس والنمامشة من أساطيره. فمن الأفضل له أن يُعرف على حقيقته العارية، ليصبح أكثر إثارة للاهتمام.

إن الوقائع المذكورة هنا، تنطلق من أول نوفمبر 1954 حتى ربيع سنة 1959. وهي تصف أوضاعا عادية في الإجمال، وتكشف عن وجوه رجال، وتتمعن في حياة جبهة القتال يوما بيوم، كما لو كانت أمام جهاز «سكانر»، في تعاقب أخّاذٍ لأعمال تبدو صغيرة أحيانا بينما هي عظيمة في الغالب. ومن جانب آخر، وإذا لم يكن من اليسير دائما إحياء تاريخ حديث، فإن إحياء تاريخ الثورة في الأوراس أكثرُ عسرا. لقد شرعتُ في التقاط الشهادات ابتداءً من 1969، واضعا منها على الجانب تلك التي تميل إلى الدعاية أو التحيّز. وقد قابلتُ الشهود والوقائع، في بحث عنيد عن الحقيقة، واضعا في ذهني باستمرار، أن كل شاهد ، عن وعي أو عن غير وعي، قد يكون ضحية تورطه الشخصي.

وقد أجبرني انعدام الوثائق أو الأرشيف الذي يغطي سنوات الثورة الأولى، على الانكفاء على المصادر الشفوية، الثمينة مع ذلك، لأنها نابعة عن فاعلين واعين، مازالوا يحافظون على كامل قواهم العقلية.

ولم أستبْق إلا الوقائع الموضوعية، تلك التي يقرّ بها جميع الشهود. أما الفترات التي لا يمكنني ضمان صحتها، فقد تجاهلتها ببساطة، أملا في أن يعكف عليها باحثون آخرون.

وقد أمكن إنجاز هذا العمل بفضل شهادات عجال عجول وعمار بن شايبة المدعو علي، ولخضر عبيدي المدعو الحاج لخضر، ومسعود بلعقون ومصطفى بوستة وبيشة جودي وعمرو المستيري. وقد استغرق هذا العمل عدة سنوات، مع انقطاعات متفاوتة في المدة.

وفي آخر هذا المطاف، يمكنني القول أنه ليس من المستغرب أبدا، أن ينجح هؤلاء الرجال البواسل، رغم قلة الوسائل والإمكانيات، في زعزعة فرنسا وهز إمبراطوريتها.

القســـم الأول

نهاية مرحلة التخمر

الشعلة الأولى

في صبيحة باردة من شتاء سنة 1972، كنا أنا وعجول ننزل الطريق الشديدة الانحدار، المؤدية من أريس إلى باتنة. وفي لحظة، فقدتُ السيطرة على السيارة، التي – وقد دوّخها الجليد – راحت تتعرّج في كل الاتجاهات. كان عجول يبتسم ابتسامة عريضة، بينما كنتُ أرتعش مثل مُصابٍ بداء "الباركنسون". وفي النهاية، وبصنيع الحظ لا بمهارتي، توقفت السيارة الثقيلة عند الأكمة. وأذكر أنني فكرت: "أرأيتَ كيف تحدّى عجول الموت!"

في باتنة، في بيت والده في بوعقل، وأمام طبق عسل وجوز مُقشّر، سألته: "سي عجول، ما الذي قاله مصطفى بن بولعيد، عند عودته من اجتماع الفرصة الأخيرة في مارس 1954، إثر انقسام «MTLD»[1] إلى مصاليين ومركزيين؟" "لقد كان متقززا، هو وبشير شيحاني، لم يكونا يخفيان غضبهما. أما نحن، فلم يكونوا يقولون لنا شيئا، ولم نكن نستطيع أن نسألهما حتى". "ولكن،لقد تم مع ذلك إخباركم بإنشاء «CRUA»[2] أجل. كان ينبغي ذلك، ما دمنا ملزمين بإعادة النظر في

---

1) «MTLD»: حركة انتصار الحريات الديمقراطية.
2) «CRUA»: اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

الهياكل. لقد كانت الهيكلة الجديدة متينة ومختلفة جدا عن هيكلة «MTLD». فقد تم تجميع المقاومين ضمن خلايا من ثلاثة أعضاء، وكان الفصل بينها مطلقا. ولم يتجاوز عددهم 24، كلها تحت سلطة مصطفى المباشرة. وكانت الاتصالات تتم بواسطته. فقد كان على كل مسؤول خلية، رفع التقرير إليه شخصيا" "لم يعد مصالي هو الزعيم".

"بلى. كان ما يزال الزعيم. ولكن مصطفى، حتى لا يربك المقاومين، على الأقل في البداية، رفض إفشاء الانقسام، وبعد ذلك بفترة، في حدود شهر جويلية 1954، دعا مقاومي «CRUA» إلى وقف كل تعاون مع المصاليين."

يغمس عجّول قطع الجوز في العسل، ويبتلعها في صخب، ثم يشعل سيجارة. "عدا الفصل الأكثر صرامة، أكانت ثمة فروق أخرى بين «MTLD» و«CRUA»؟ كانت ثمة فروق ضخمة. فقد اختارت «CRUA» الثورة، إذ كانت ذهنية رجالها مختلفة عن ذهنية مقاومي «MTLD» : ففي حين كان هؤلاء الأخيرون، ملزمين بالتحفظ إزاء الاستفزازات الاستعمارية، كان الأوائل على النقيض، يريدون المواجهة مع الفرنسيين. إنهم ضد المسالمة التي يدعو إليها مصالي والمركزيون. إنهم دعاة الحرب وهم يستعدون لها. ففي ربيع سنة 1954، أُجرِي استفتاء في أوساط المقاومين، فكانوا جميعُهم موافقين على الثورة، ومؤيدين للعنف، وضد العمل السياسي."

يحصي الرجال المغارات في "إشمول" و"الشلية" و"الصراع"، حتى حدّ مشونش الجنوبي. يجتهد كل واحد في جمع أكبر كمية ممكنة من الأسلحة، سواء بشرائها من حرّ ماله، أو باستلافها من الأصدقاء أو الأقارب. تُغمَس الأسلحة في الشحم، وتُغلَّف بالقش، وتُدَسّ تحت الأرض في جرار، أو تُحاط بخِرقٍ وتُخبّأ في شقوق مهيأة بين الصخور.

ويستعمل الرجال القشّ، لتجنب كل كشف من أجهزة العدوّ كما يتصورون. وفي الجبال، يتم في أماكن منعزلة، تدريب عسكري مقتضب. يتعلم المقاومون الرماية وصناعة القنابل التقليدية. كما يتعلمون قواعد التمويه، وكيفيات استخدام كلمة سرّ، والتصرف مع رجال الشرطة في حال إلقاء القبض عليهم أو مقابلتهم. وقد نشأت بينهم ألفة أخوية، فتحسبهم في مزح ومرح لولا جدّية ووقار هدفهم.

في "الرصيف" (قسنطينة) اجتمع يوم 13 أفريل 1954،نحو المائة مندوب عن «MTLD» على اختلاف توجهاتهم. رأس الجمعية بلقاسم بيضاوي، فرفع أحد المصاليين يده وقال: "يوجد في هذه القاعة مركزيون جاءوا بصفة متفرجين." فنهض أحد المركزيين مؤكدا: "نعم. يوجد مركزيون في هذا الاجتماع. إنهم ملاحظون. وهذا من حقهم." اضطرب الجو. واحتدم الخلاف بين المصاليين والمركزيين. اقترح مندوبو دائرة باتنة [1] الخمسة عشر، طرد المصاليين والمركزيين. بقي مندوبو "سمندو" والميلية على الحياد. تمّ اللجوء إلى التصويت، فمالت الأغلبية إلى مشاركة جميع الحاضرين في الاجتماع. وفي أثناء ذلك، دخل مقاومون جدد، بينهم مزغنة، أحد مساعدي مصالي. فنهض مندوبو باتنة، يريدون طرد القادمين الجدد. صياح وصراخ وصفير، قال عجول وعباس [2] : "لا أحد يدخل!" وصاح مزغنة: "دعوني فقط أقل كلمة. إن مصالي نفسه ..." فصاح عباس عندئذ بأعلى صوته: "أنا أيضا أريد قول كلمة، ولكن يارب!" واشتبك الرجلان، فأخذ عباس كرسيا، وأداره فوق الرؤوس، ووجه لكمات. في النهاية، طُرِد الفريقان الخصمان.

---

1) يرأس دائرة باتنة منذ 1952 بشير شيحاني المدعو سي مسعود.
2) عجول وعباس لغرور ضخما البنية.

في 30 أفريل 1954 جمع مصطفى بن بولعيد في مزرعته في "لامبيز"، مجموعة صغيرة من المقاومين: عجال عجول، الطاهر النويشي، مسعود بلعقون، وعباس لغرور. حلف الجميع القَسَم بالانخراط في الثورة. بعد خمسة عشر يوما، انضم إلى هذه المجموعة، بشير شيحاني المسؤول آنذاك عن دائرة باتنة، وبشير حاجي من مدينة "الخُروب"، ومحمد خنترة من دائرة "بريكة". لم يكن تاريخ اندلاع الثورة قد حُدِّد بعدُ. فقرروا عدم الكشف عن شيء للمقاومين، بل التعجيل بإعدادهم النفسي، وإبقاءهم تحت الضغط، بتركهم يعتقدون أن شيئا ما سيحدث قريبا.

من الجانب السياسي التقليدي، لم يتخذ الثمانية موقفا، لا مع المصاليين ولا مع المركزيين. إنهم ينتظرون في هدوء، توضيحات من موقع التزامهم، مستعدين لإدانة هذا المعسكر أو ذاك (أو كليهما) إن هما واصلا عملهما التفريقي. من الجانب المالي، هم لا يملكون أي احتياط.

وأعلن مصطفى بن بولعيد: "علينا أن نجبر المصاليين والمركزيين، على توحيد عملهما بإنشاء جبهة للشرق القسنطيني." ولهذا الغرض، قرر أن يجمع في المستقبل القريب، جميع مسؤولي القسمات (القطاعات) في عمالة قسنطينة.

خلال صيف 1954 جرى سباق حقيقي بين عناصر مصالي وعناصر مصطفى بن بولعيد. وفي شهر أوت تحديدا، عُقِد اجتماع شعبي في "تلاتي" (نواحي مدينة). كان أحد المصاليين ينوي التحدث. فأشعل أحد مقاومي الـ «CRUA» جريدة، ورماها وسط الجمع صائحا: "إنذار! إنها قنبلة!" فتبع ذلك هرج ومرج، وأُلغِي الاجتماع. وغادر رجال مصالي المنطقة، وهم يشكرون سكان الأوراس في سخرية على كرم الضيافة.

في سبتمبر 1954، اجتمع مقاومون (أغلبهم مركزيون)، في الجزائر العاصمة طيلة يومين. ومنذ اليوم الأول، راح رجال مصالي يهددون، بفصل جميع من يرفضون تقمُّص هويتهم،في شخصية الزعيم الشيخ من «MTLD». وكل مطرود يعتبر خائنا. أما المركزيون فدعوا إلى تعقل الجميع. ثم كانت استراحة للغداء، وُزِّعت فيها قطع خبز مدهونة بالزبدة. وعند استئناف الأشغال، قال مندوب من القبة: "المصاليون والمركزيون هم أشباه بعضهم البعض. فلا شيء يهمهم سوى السلطة!"

في اليوم الثاني، تم تكليف عضوين من دائرة باتنة، بتبليغ الصيغة النهائية إلى "مولاي مرباح"، مساعد مصالي. فرفض هذا الأخير لقاءهما.

أعلن مصطفى بن بولعيد: "بعد الآن، لن نحضر أي اجتماع. ولن نعوّل إلا على أنفسنا."

أعطاه المركزيون عند رحيله، هو وكل واحد من رفقائه، مبلغ تسعة آلاف سنتيم.

في 20 أكتوبر 1954، جمع مصطفى في "لقرين" ("الشّمُرّة" الواقعة على 30 كلم شرق باتنة) في منزل عبد الله أومزيتي، مجموعة مقاومين: عجول، شيحاني، لغرور، النويشي، حاجي وخنترة. وبلّغهم بتاريخ، يوم أول نوفمبر 1954.

كان عجول ولغرور وحاجي يعلمون منذ بضعة أيام، أن ذلك هو التاريخ المحدد لاندلاع الثورة.

بعد لحظة المفاجأة الأولى، بدأ الحديث الجاد. جلب مصطفى من قسنطينة، آلة نسخ (رونيو) تعمل بالكحول ومناشير. وبدأ يشرح : ستكون الثورة من عمل جيش التحرير الوطني [1].وعلى كل مسؤول أن

1) أوضح مصطفى أنها ليست حربا مقدسة. فالصلاة ليست إجبارية وكذلك الصيام. وفي الواقع فإن أغلب المجاهدين قد حافظوا على الشعائر، التي غالبا ما تم تكييفها حسب قوانين الحرب.

يكون قد جمع رجاله، يوم السبت الذي يسبق بليلتين تاريخ الاندلاع. تم تحديد مكانين للّقاء – أحدهما في "خنقة معاش" (سبعة كيلومترات غرب "فم الطوب")، حيث وُضع تعداد ستين رجلا بقيادة النويشي، والثاني بنواحي "أريس" في "تيغزة"، حيث سيُجمَّع مائتا رجل، يقودهم مصطفى نفسه. كما تقرر توزيع أسلحة وبدلات.

تم اختيار خمس وعشرين مجموعة لهجمات أول نوفمبر. مجموعة "مشونش" مع حسين برحايل وسليمان، ولديها ثلاثة أهداف: بسكرة وطولقة وسيدي عقبة. أما دوار "أوماش"، فتتكفل به مجموعة مجاهدين شيوعيين. وتتكون مجموعة "كيمل" مما يأتي: محمد العابد بهدفين: "زريبة الواد" و"درمون". مسعود زحاف بهدف واحد: برقة. وأخيرا عبد الوهاب عثماني بثلاثة أهداف: عمل يتمثل في الشرح، وتوزيع المناشير على سكان "كيمل" و"تاجموت"، والهجوم على مركز درك "تبردقة". أما مجموعة عبد الحفيظ سوفي، فتستهدف قريتيْ "خنقة سيدي ناجي" و"الولجة"، وعلى "بولعراس" توزيع المناشير، والدعاية في "لمسارة" و "تامزة". أما كيلاني وناصر، فعليهما مع مجموعتهما، مهاجمة قرية "قايس". وكانت مهمة عباس لغرور، مهاجمة خنشلة، بمساعدة مجموعة عمار معاش، ومقاومين مدنيين داخل المدينة. وأما ناحية "زلاطو"، فقد تقرر إرسال أربع مجموعات إليها: مكي عاشوري إلى "تكوت"، ومحمد صبايحي إلى "تاغيت"، وبلقاسم مزياني إلى "القصر"، وأخيرا مصطفى قوغالي إلى "إينوغيسن".

تتضمن "إشمول" ثلاثة أهداف: فعلى علي بن شعيبة ومسعود بن عيسى، الاهتمام على التوالي بالمنجم ومكتب الجباية، والعياش باتسي بتلغيم الجسر بين أريس وباتنة. ويتعين على علي بن عزة،

انتهاز حفل زفاف لتوزيع مناشير على المدعوين، وفي الوقت نفسه مراقبة طريق أريس – باتنة.

وحُجِزت أريس لمجوعة أحمد نواورة، وحُدِّد له هدفا الجسر على الطريق، ومكتب البلدية المختلطة، ومركز الدرك وحافلة النقل أريس – باتنة.

وتم تعيين محمد الشريف سليماني والصادق بن دايخة ومنصور ڤوغالي، وهم ثلاثة مقاومين محنّكين، لمهاجمة بريكة، يساعدهم في ذلك ستة رجال، وُزِّعت عليهم بنادق إنجليزية.

ويهتم إسماعيل كشرود مع مجموعة صغيرة، بقرية عين التوتة.

أما القطعة الكبرى، باتنة، عاصمة الدائرة، فقد حظيت بعناية خاصة. إذ تعين أن تهاجم ثلاثُ مجموعات، بإجمالي ستين رجلا تم اختيارهم بعناية، يقودهم علي بعزي ومحمد الشريف بن عكشة، ثكنات ومكاتب الدائرة والدرك. ويدعم هذه المجموعات رجال الطاهر النويشي وبلقاسم ڤرين والحاج لخضر، المكلفين بتفجير محطة البنزين المقابلة لمحطة القطار، ومخزن الأسلحة العسكرية.

وسيزور قرى الشمرّة، وفم الطوب، وتيمڤاد، والمعذر، وعين ياڤوت، وطوفانة، وبولڤرايس، رجال من مجموعة الطاهر النويشي.

وسيهاجم الخروب وعين مليلة على التوالي، بشير حاجي والحاج موسى.

لم يكن مصطفى يعلم أن تخطيطه الدقيق سيتهاوى مثل قصر من ورق. فأحمد نواورة المكلف بمهاجمة أريس على رأس فصيلة، انطلاقا من "راس الذراع"، وهي بلدة تقع على خمسة كيلومترات إلى الشمال من أريس، لم يحضر في الموعد. فقد انتظره الرجال قبل فجر أول نوفمبر بكثير، عبثا. وكان على مسعود بلعڤون المقاوم القديم، التحلي

بأطنان من الصبر والحديث، لإبقائهم في مكانهم، في انتظار أوامر جديدة أو قائد جديد. أما بالنسبة لباتنة، فكان الفشل الذريع نفسه. وكان مصطفى يعتزم اقتحامها من طريقين بأربع فصائل: فعلى ستين رجلا يقودهم علي بعزي، أن ينزلوا من دشرة أولاد موسى، ويلاقوا ستين رجلا آخرين جاءوا من خنقة معاش، بقيادة النويشي وڤرين. وكان مصطفى قبل ذلك، لضمان نقل الرجال من دشرة أولاد موسى حتى باتنة، قد توجه إلى رجل يدعى بوسعد، وهو صاحب شاحنة ذات حمولة كبيرة من ماركة "ولهلم".

قال له: "سأحتاج إلى شاحنتك لنقل بعض القمح"، وحدد له موعدا ليوم الأحد 31 أكتوبر ليلا. ولم يأتِ بوسعد الذي ارتاب في الأمر، إلى الموعد، مجبرا بذلك مصطفى على الارتجال، هو الذي لا يبغض شيئا كالارتجال.

الأحد 31 أكتوبر، قريبا من منتصف الليل، قرر مصطفى بعد ارتداد بوسعد، إيقاظ عزوز، سائق شاحنته السابق، وحدثه عن حفل زفاف، وعدد كبير من الضيوف ينبغي نقلهم. "نعم سي مصطفى، ثمة شاحنة بن لحلوح [1] في الحجاج." "هيا بنا". وتوجهوا إلى هناك، وبسرعة فائقة، جلبوا شاحنة لاهثة، ذات حمولة 2,5 طن، وأوقفوها على الطريق، أسفل مخبأ دشرة أولاد موسى. الوقت يمرّ. بعد بضع دقائق، نزل عشرات الرجال بعزم من مسلك ضيق ومنحدر، وهم مثقلون بالقنابل والبنادق والخراطيش بالمئات، تضايقهم في حركاتهم برّات جديدة. عندما رآهم عزوز على الطريق، في الليل الدامس، يتمسكون

1) كان "بوحة" مالك الشاحنة، بدافع من الحذر، يريد المجيء معهم. "كيف ذلك بوحة؟ تريد المجيء؟ لن يكون ثمة سوى النساء في الشاحنة. لقد قلتُ لك ذلك، إنه حفل زفاف! تريد الصعود مع النساء؟ عار عليك!" هكذا تحدث إليه مصطفى عند الواحدة صباحا.

بحواجز الشاحنة، ويقعون بثقل على سطحها، أصيب بدوار وتقيّأ. تزاحم الرجال الخمسة والثلاثون قدر الإمكان، بينما تكدس الخمسة والعشرون الآخرون في سيارتين، إحداهما ملك لمصطفى، والأخرى لمقاوم يدعى إبراهيم بن شايبة.

فجأة، قال محمد الصغير عزوي، الصبايحي الأسبق، المكلف بإرشاد المجاهدين داخل المدينة، وكشف مواقع الثكنات لهم، أنه مريض ورفض الذهاب! وهنا دفعه مصطفى، بلطمة مفاجئة، داخل الشاحنة، وأمر علي بعزي: "راقبه، فإن تخاذل اقتله!". وحيث أنه لم يكن مطمئنا على سير الأمور، فقد قرر مرافقتهم. لم يبق من الوقت الكثير. تقع باتنة على بعد ستين كيلومترا، والأهداف بها متعددة: الدائرة، وثكنتان على الأقل، ومخزن الأسلحة، والدرك، ومحطة بنزين.

توقفوا عند آخر جسر قبل المدينة، على بعد كيلومترين من الحي العسكري. قال لهم مصطفى: "احذروا من أن تطلقوا النار على أرجلكم!" كان ينظر إليهم بحيرة وهم يبتعدون، مختصرين الطريق عبر الحقول المحروثة.

هكذا روى لي الهجوم على باتنة شاهد من المشاركين. "آه يا أخي، إن روح أول نوفمبر باتت بعيدة. لو كنا نعرف، لانسحبنا بسرعة، أليس كذلك؟ في اليوم الأول، يمكنك القول أننا لم نكن نبلي حسنا، يمكنك تصديقي! أقلّنا مصطفى على متن شاحنة وسيارتين. آه، يمكنك أن تقول أننا كنا أشبه بقرود، محزّمين في بزات جديدة تماما، كانت تضايقنا في تحركاتنا، والقنابل الثقيلة بفتائل، كان علينا إيقادها بسجائر. أجل يا سيدي، وقد أمدّونا فضلا عن ذلك، بعلب كبريت. عندما وصلنا إلى باتنة، أمام ثكنة رُماة الرّشاش، كان الوقت قد تأخر. قال لنا محمد الصغير: "هي ذي الثكنة، هاجموها أيها المخصيون!" حرفيا،

أكرمك الله. كما أنه قال أقذع من ذلك. دعني أواصل. بدأنا إطلاق النار، نعم، بأسلحة حديثة، بنادق "غاراند" و"ستاتي" ورشاشات ألمانية. ماذا؟ لا يا سيدي، كلها معدنية، لم يكن الأخمص من خشب. لا شيء سوى الحديد! قتلنا حارسا، وتقدمنا باتجاه ثكنة "الصبايحية"(*)، لأخذ أسلحة حسب المزاعم. ثم قتلنا جنديا كان يجري مع كلبه. ماذا؟ نعم، الكلب قتلناه أيضا. قال لنا محمد الصغير: "أوقفوا النيران، يا أبناء البغايا! انسحبوا!" لكن القول أسهل من الفعل! وأوقفنا إطلاق النار.

كان مفترضا بنا التوجه نحو مخزن الأسلحة والذخيرة، ولكن، أستميحك عذرا، كنا كمن كان في "قعر قرد". لم نعد نعرف أين نحن. أطلق الفرنسيون النار. هجرنا محمد الصغير أمام المقبرة، دفن بندقيته العشاري الإنجليزية، ولم نره بعد ذلك. هِمنا في المدينة على وجوهنا، طفنا بالنصب التذكاري. كان مفترضا بنا في الخطة، إلقاء القبض على الحراس، وقتلهم بالسلاح الأبيض، والدخول إلى الثكنة وأخذ الأسلحة، لكن الأمور جرت بصورة مخالفة! أطلقنا النار على مصابيح الإنارة العمومية، فانفجرت. عندما التحقنا بمرتفعات بوعقل، كان النهار في الواقع قد طلع."

ولم تبل الفصائل الأخرى بأفضل. فقد اضطرب قادتها بالطلقات المبكرة، ولم يفهموا شيئا. كانت النيران تطلق عليهم من طوابق الثكنات. فأسرعوا هم أيضا إلى مغادرة المدينة، والالتحاق بالأجمات.

الاثنين الفاتح من نوفمبر، الساعة الثانية. يتحرك علي بن شايبة على رأس فصيلتين نحو الشرق، باتجاه منجم الرصاص الذي يبعد بنحو اثني عشر كيلومترا. الظلام دامس والتقدم وعر. كانت مهمته

---

*) جمع "صبايحي": قدماء جنود الخيالة في الجيش العثماني، استخدمهم الجيش الفرنسي عند احتلاله الجزائر كقوات مساعدة. (المترجم).

تتمثل في شرح الثورة إلى عمال المنجم الجزائريين الستمائة، الذين يؤطرهم سبعة فرنسيين. وكان عليه، فضلا عن ذلك، الاستيلاء على البغال، وبوجه خاص مخزونات الديناميت. في الوقت نفسه، كان قد تم تعيين مسعود بن عيسى، لإحراق مكتب الجابي بعد سلب المال منه.

في الفجر، وصلوا إلى أطراف المنجم. فتح نائب بن شايبة النار دون انتظار، فتبعه على الفور المجاهدون الآخرون. تطاير زجاج مكتب المنجم، وبلغت الإثارة أوجها. باشر كل مجاهد باستنفاد ذخيرة الثلاثمائة طلقة الممنوحة له. ثم كان الانسحاب نحو الجبل، حيث نام الرجال المرهقين نوما عميقا حتى التاسعة صباحا. لم يفلح مسعود بن عيسى من جانبه، ولسبب غير محدد، في اقتحام مكتب الجباية.

طلب رجلان من بن شايبة، الإذن بمغادرة المجموعة والالتحاق ببيتيهما. فأذن لهما بذلك. بعد قليل، ذهب نائبه محمد الصغير تيغزة، باتجاه "إينوغيسن"، إلى الجنوب الشرقي ببضع كيلومترات، مع مجموعته البوسليمانية. خرج بن شايبة وبقية المجموعة من تحت الأشجار، وأقاموا حاجزا على الطريق. وفي هذه الأثناء، ناداه رجل يُعرف عنه بأنه عميل للفرنسيين: "اقترب يا بن شايبة، لديّ رسالة لك من قابض الضرائب." شتمه أحد المجاهدين، فانصرف. فكّر بن شايبة لبرهة في مهاجمة مكتب الجباية، ولكنه أحجم عن ذلك، لأن المُخبِر تعرّف عليه، ولأن أسرته قد تتعرض للمضايقة.

خلال النهار، كانت طائرة تحلق فوقهم على ارتفاع منخفض. كان بن شايبة يرى قائد الطائرة بوضوح، ولكنه لم يطلق عليه النار لأنه لم يتلق أمرا بذلك. بعد الطائرة، وصلت مدرّعة وشاحنة مليئة بالقومية[1]. 12* وقع تبادل شتائم بين الطرفين، ولم تتجاوز الأمور هذا الحدّ.

---

1) القومي: مساعد من الأهالي مكلف بحفظ الأمن.

الاثنين الفاتح من نوفمبر، الساعة الواحدة. عباس لغرور الذي كان قد انطلق أمس من دشرة أولاد موسى، مسلحا ببندقية موزر ومسدس آلي ألماني وثلاثة آلاف طلقة، انتظر طويلا في عين سيلان، قرب الحمامات الرومانية، على بعد سبعة كيلومترات من خنشلة، وسط الروائح الكبريتية الثقيلة. انتظر عبثا عمار معاش الذي كان عليه أن يأتي من يبوس بفصيلة مجاهدين. وبعد أن غضب واغتاظ، قرر التوجه إلى المدينة بمفرده. في اثناء ذلك، وبعد أن يئس مقاومون مدنيون في المدينة، من الانتظار داخل خنشلة، قرروا التصرف. لقد فجروا المحوّل الكهربائي، فحل الظلام بالمدينة، وهاجموا محافظة الشرطة، وحبسوا رجال الشرطة داخل الزنزانات وانسحبوا، تاركين وراءهم أسلحة رجال الأمن. ولقيهم عباس لغرور عند مخرج المدينة. ففتح النار على منزل متصرف البلدية المختلطة، كاسرا بعض الزجاج، ثم على بعض الجنود، قبل أن يلتحق بالجبل مع رفاقه.

ناحية زلاطو، الاثنين الفاتح من نوفمبر، في الصباح الباكر. مكي عاشوري ومجموعته يزعجون درك تكوت انطلاقا من جبل كوزة المطل على واد شناورة. بعيدا نحو الجنوب الشرقي، يطلق عبد الوهاب عثماني النار على رجال درك تبردقة والولجة، ويضرم النار بالمدرسة ومكتب قائد الولجة. وعلى رأس فصيلة، يخرب مصطفى ڤوغالي الجسور والطرق، ويقطع أعمدة التلفون في الجهة الواقعة بين إينوغيسن وتفلفل، باتجاه الجنوب الغربي.

كان النهار قد طلع عندما وصل محمد صبايحي بمجموعته على بعد ثلاثة كيلومترات من تيغانمين. فأقام حاجزا بدائيا على الطريق. وبعد ساعتين، توقفت حافلة النقل بسكرة – أريس عند المتراس. أنزل صبايحي الركاب واستعدّ ليخطب فيهم، وفي يده حزمة مناشير.

ولم يكن أحد الركاب سوى قايد مشونش نفسه. وإذ شكّ في نوايا صبايحي، فتولى الأمور بنفسه، وأخرج مسدسا من عيار 6,35، لكن فعلته هذه، جلبت عليه رشة طلقات، أصيب من جرائها، ودون قصد، معلّم فرنسي وزوجته كانا يقفان إلى جانبه. وتوفي الرجل إثر هذا الحادث.

كانت مجموعة بريكة الموجودة بعين المكان منذ 25 أكتوبر بقيادة محمد الشريف سليماني والصادق بن دايخة ومنصور ڤوغالي، قد تم التبليغ عنها إلى السلطات الاستعمارية. ولم يبق للرجل من وقت إلا للفرار، مع مقاوم آخر يدعى قدّور الوهراني، بعد أن تركوا أسلحتهم، من بينها تسع بنادق إنجليزية، سُلّمت إليهم بصورة إضافية، خصيصا للهجوم.

مقاومون محنّكون

كانت فصيلة بسكرة، بقيادة حسين برحايل، لص شرف سابق (Bandit d'honneur)* ، قد انطلقت من مشونش بتاريخ 25 أكتوبر. وكان عمل هؤلاء الرجال، يتوقف على إزعاج مراكز الدرك، وتدمير مبانٍ عمومية بالمتفجرات. ويساعد برحايل رجل يدعى سليمان، ضابط صف سابق في الجيش الفرنسي، جنّده شيحاني. وفي طريق العودة، حاول برحايل دون أن يفلح، تجريد مجموعة محمد ڤروف الشيوعية من سلاحها. وقد اشتكى هذا الأخير بعد ذلك إلى مصطفى: "لقد حاول حسين برحايل استخدام العنف. لقد قلّ أدبه معي أمام رجالي." وحاول

*) كان لص الشرف Bandit d'honneur لا يتهجم على الأهالي، بل كان يستهدف القياد والعدو والمتعاملين معه فحسب.

مصطفى كعادته دائما، تلطيف الأجواء: "لم يكن حسين ينوي أمرا سيئا. فهو ينفذ التعليمات فحسب."

في الخروب، على الجانب الغربي، أطلق بشير الحاج بعض العيارات من مسدس رشاش، على مراكز عسكرية فرنسية. وقد فعل الحاج موسى الشيء نفسه في عين مليلة.[1]

بموازاة جميع هذه الأهداف الحربية، تقرر الاحتفاظ بأربع مناطق محايدة، لتسهيل تموين المجاهدين بالأسلحة والأغذية. وهي على التوالي، الناحية الجنوبية مع مدينة وادي سوف، من حيث يُنتظَر مرور الأسلحة والذخائر الآتية من ليبيا، ثم الجهة الواقعة بين تامزة وقايس – احتياطي أغذية – وأخيرا منطقتي الشمرّة وخنشلة، المعلنتين هما أيضا، غير عسكريتين للأسباب نفسها.

ويؤمّن الاتصال بين جميع المناطق مقاومون محنّكون، مدنيون وأحيانا عسكريون. فأريس موصولة بباتنة بواسطة العياش باتسي، وببريكة بواسطة الحاج لخضر (ناحية وستيلي)، وبتبردقة والولجة بواسطة عثمان كعابشي (ناحية كيمل)، وبالخروب وعين مليلة بواسطة مقاوم مدني من الشمرّة، وبخنشلة بواسطة مقاوم مدني من ناحية الشلية، وأخيرا ببسكرة بواسطة حسين برحايل (منطقة مشونش). وخلال الأيام التي تلت مباشرة أول نوفمبر، كان مصطفى يتململ، لنفاد صبره أمام الحصار المضروب عليه. لم يكن مسرورا، لأن الأخبار المفرحة كانت نادرة يومئذ.

إن الرجال الذين اختارهم، ليخُطّ معهم أول صفحة من الملحمة الثورية، قد خذلوه جميعُهم تقريبا. بدءا بشخص يدعى بن وانة، كان

1) أراد مصطفى مهاجمة سجن لامبيز المركزي، ولكنه عدل عن ذلك لنقص الأسلحة والرجال.

قد عيّنه لاستقبال المجاهدين الثلاثمائة، المستدعين ليكونوا هيكل جيش التحرير الوطني. فقد اختير منزل بن وانة الواقع بتيغزة، غرب "مدينة"، لوجوده في مكان غابيٍّ ومحميٍّ جيدا.

يوم 24 أكتوبر 1954. بعد اجتماع لقرين، كلف مصطفى عجول باستدعاء المقاومين. فنقل هذا الأخير الأمر إلى بن شايبة، الذي كان آنذاك مسؤولا عن خمس خلايا: الحجاج ويبوس وملوجة وخنقة معاش وعين الفضة. وقد كان شيحاني – بين قوسين – عيّن له تلقائيا ثلاث خلايا، لأنها رفضت زعامة الطاهر النويشي. وقد كان لشيحاني فيما بعد، هذا التعليق أمام بن شايبة : "خُذهم، فإذا نجحتَ في جعلهم يعملون سويا، منحتُك وساما."

فشرع علي بن شايبة في التحضيرات: التموين والاتصال، ضبط النظام والإرسال، تحسبا للتجمع المقرر ليوم 29 أكتوبر 1954. وقبل ذلك بيوم تحديدا، في 28 أكتوبر، تلقى رسالة من الطاهر النويشي، رئيس قسمة (قطاع) فم الطوب: "إن بن وانة يرفض إيواء المجاهدين. يجب اتخاذ تدابير جديدة". حاول بن شايبة الاتصال على الفور بمصطفى، أو على الأقل بعجول. ولكن الاثنين غائبان. ما العمل؟ وبعد استنفاد جميع الوسائل، سخّر منزله العائلي الخاص، الواقع بدشرة أولاد موسى، الذي كان لحسن الحظ خاليا في هذه الفترة من السنة.[1]

وبدأ التنظيم الذي تم إنشاؤه وتعديله يعمل. يتصل أعوان الاتصال بالمقاومين، ويواكبونهم عبر مسالك محرّفة، لتضليل الوشاة المحتملين، على مسافة كيلومترين أو ثلاثة عن المقصد النهائي، حيث يجتمعون في الظلام وبمجموعات صغيرة. وتم وضع حراس مسلحين،

1) في الأوراس ما تزال ثمة عادات شبه بدوية. فالسكان يقضون الخريف والشتاء، في نواحي مشونش وبسكرة الحارة. أما الربيع والصيف، فيقضونهما في الجبل.

على بعد عدة مئات من الأمتار في الواجهة، مع أمر بإطلاق النار على كل دخيل، وعلى وجه الخصوص إن كان قادما من "الحَجّاج".

إن دشرة أولاد موسى، الواقعة على أقل من عشرة كيلومترات إلى الشرق من أريس، أشبه بالخان، فجدرانها تبلغ نصف متر سُمكًا، وهي مبنية من صفّين من الحجارة الزرقاء، راسمة صفّا من أربعين غرفة، تقع كلها في الطابق الأرضي، وتتوفر على عدة مخارج.

في الأعلى، طابق مستطيل، تدعمه ركائز مدمجة، وعوارض من خشب الأرز والرمان، سوّدها الدخان، يطلّ على فناء داخلي مخصص للنساء والمطابخ. وفي الأعلى، تجد سطحا يسرح منه النظر على أفق بديع لجبال تكاد تحسبها سوداء لفرط زرقتها، يلتصق بعضها بالبعض، مثل مجموعة قطط حديثة الولادة.

ومن الجنوب والغرب، ضيعتا الحجاج وأريس، اللتين تنساب بينهما الينابيع. حيث تصعد النسوة بجرارهن المليئة ماءً والموضوعة على أعناقهن، ويتوقفن ثلاث مرات على طول المسلك المنحدر، لاستعادة أنفاسهن. وفي الأسفل، من جهة الجنوب، نجد الواد لبيض.

قرب باب الدخول، حوّل بن شايبة إسطبلا، مكسوّة أرضيتُه بفراش سميك من السماد، إلى مكان استراحة. وكان يتم تخزين المؤونة، التي تصل ليلا على ظهور البغال، في الغرف المجاورة للمطابخ، حيث ستنشط قريبا ابنة عمه "نونة" والعجوز "خضراء" وأخته وابنة أخيه. فقد تم ذبح خمس عنزات لتوفير لحم الوجبات.

مساء السبت 30 أكتوبر. يصل المقاومون في مجموعات صغيرة. هم في الغالب يعرفون بعضهم بعضا، ويفاجؤون لبرهة، بسبب الانفصال، بوجود هذا الجار أو ذاك الزميل، ضمن التنظيم السري. هم على العموم، سعداء بحلول الأوان الذي طالما انتظروه. وهم يرتدون بزات جديدة،

خشنة الملمس، وينتعلون "الباتوڤاز"، وهي أحذية من كتان ذات سيقان عالية ونعال مطاطية. كما لا يُستغنى عن العمامة، التي يجب شدّها جيدا حول الرأس، دلالة على العزيمة. ويسود جو احتفالي ريفي، على خلفية تاريخ أول نوفمبر الفاصل، يوم خوض القتال لأول مرة، ما ينتظره كل واحد بفارغ الصبر.

في البداية، حدثوهم فقط عن مناورات، ولكنهم هذه المرة يعلمون أنها الساعة. عجال عجول، بشير شيحاني، عباس لغرور، مصطفى بوستة، مدور عزوي، مسعود بن عيسى، علي بعزي وعبد الوهاب عثماني... الفاعلون هنا؛ تحركهم الرغبة الجامحة، لبدء الثورة التي طالما تمنوها، وطالما أجّلوها. يتجوّل الجميع عبر الغرف، يرفعون الأسلحة من مختلف الأصناف: "ستاتي" إيطالية، "موزر" ألمانية، "غاراند" أمريكية، "ستين" إنجليزية، "ماس" 36 و49 فرنسية. تتراكم الخراطيش من كل العيارات في أكوام كبيرة. وقرب الجدار، تتمدد بنادق خرّبها الصدأ نهائيا.

عندما وصل مصطفى معصوب الرأس بعمامة، إلى دشرة أولاد موسى يوم 30 أكتوبر مساءً، أبدى وجها لا يُرى إلا في الأيام السيئة. ومن الوهلة الأولى، أوضح: "أشم رائحة خيانة في الجو!". وبسحنة ارتياب، استمع إلى شروح عجول، المتعلقة بالمبادرة التي اتخذها بن شايبة، إثر رِدّة بن وانة.

إنه في السابعة والثلاثين من عمره، ولا يزال في عنفوان شبابه. لم ينم كثيرا في الأسابيع الأخيرة، وكان متوترا للغاية من جراء الجهد الهائل الذي بذله من أجل تنظيم موعد الثورة. لقد جعل من ذلك مسألة شرف، رغم نقص الوسائل، وتقلّب عديد المناضلين.

بعد تحية جميع الرجال، جمعهم: "أيها الأبناء، سنبدأ حرب التحرير. إن معركتنا صراع بين الضعيف والقوي. إن قوتنا تكمن في إيماننا.

في الروابط القائمة بين المجموعات، مهما تباعدت. إن الدم المراق هو أيضا عامل وحدة. علينا إجبار العدو على مهاجمتنا، وعندئذ نضربه دون تعريض أنفسنا. وإذا استحال الانسحاب، فعلينا أن نعرف كيف نموت بشرف. إن العدو غادر، ينبغي عدم الوثوق به مطلقا! إن وجدتم قَلَمًا أو حَبّةَ حلوى فاحذروا! فقد تخفي قنبلة أو تكون ملغومة."
وقضى وقتا طويلا يُريهم كيف يتصرفون، في حال إذا ما ألقي عليهم القبض أو عند لقاء شرطي عدو. ويلحّ على إطاعة الأوامر، وعلى استعمال كلمة السر، وعلى الجهد الواجب بذله لتسييس الجماهير.
"سنعطيكم مناشير، وزعوها واشرحوها في صبر."

ثم انعزل لفترة طويلة مع بشير شيحاني لاختيار المجموعات. تم تعيين ثلث التعداد تقريبا، لتلقين العقيدة وتوزيع المناشير. كانت الوثائق قد جُلِبت في جزء منها من قسنطينة، بينما تم سحب الجزء الآخر في عين المكان، على آلة "رونيو" تعمل بالكحول. وتمت برمجة جميع قادة القطاعات، باستثناء شيحاني وعجول، [1] للاشتراك في أولى الأعمال العسكرية: عباس لغرور، عبد الوهاب عثماني، الطاهر النويشي، علي بن شعيبة، بشير حاجي، عمار معاش، العياش باتسي وأحمد نواورة.

بعد تشكيل المجموعات والفصائل، وبعد تحديد الأهداف [2] شرع مصطفى في توزيع الأسلحة. [3] فإضافة إلى سلاح واحد، كان من نصيب كل مجاهد ثلاثمائة رصاصة. كانت الأسلحة كلها حربية خفيفة. لم تكن بينها بندقية صيد واحدة. صُفّت على الأرض قنابل

---

1) لا يريد مصطفى، الواثق من قيمة إطاراته، المخاطرة بتعريضهم دون فائدة.
2) في هجوم باتنة، اختار مصطفى العناصر الأكثر تدريبا، ومنحهم أحسن الأسلحة.
3) أمر مصطفى أن يتخلى المقاومون عن أسلحتهم. فله وحده سلطة توزيعها وفق أهمية المهمات.

تقليدية يتدلى فتيلها. وشرح عبد الوهاب عثماني كمختص، كيفية معالجتها وإشعالها.

في النهاية، عند تمام توزيع الأسلحة والمهمات، أحضر بن شايبة جِفان الكسكسي الضخمة، المُزيّنة بالخضار ولحم الماعز المفتّت.

الخوف من الفشل

كان مصطفى مشغول البال كعادته. لم تحضر شاحنة بوسعد الـ"ولهلم" في الموعد. إنه ثاني إخلال بعد ارتداد بن وانة! وها هو الآن عجول، يأتي ليطلب منه إصلاح مظلمة. فعلي بن شايبة الذي باع بالفعل بقرته وعنزته، ليشتري بنادق "غاراند" و"ستاتي" و"موسكتون" ومسدسين، قد تم نسيانه من طرف مصطفى عند توزيع الأسلحة. فحادث عجول في الأمر، وطلب منه تولي قضيته.

لم يتمالك مصطفى نفسه غضبا: "إلى أين نتجه إذا كان علينا اتّباع رأي الجميع! أنا المؤهل الوحيد في هذا المجال. أعطي السلاح الذي أشاء، إلى المقاوم الذي أشاء". ويلحّ عجول: "في حالة بن شايبة، ليس الأمر منصفا وأنا أوافقه. ثم إنه ليس سلاح التنظيم. لقد اشتراه." يتابع بن شايبة الحديث من بعيد، ثم يناديه مصطفى: "لِمَ تحتاج إلى سلاح؟ ما الذي تنوي فعله به، قل لي؟" كان صوته متعبا: "أريد استخدامه لمحاربة الاستعمار يا سي مصطفى، مثل بقية إخواني." يعبس وجه مصطفى، ثم ينادي أحد السراحنة الذي كان أعطاه السلاح، ويأمره بردّه إلى بن شايبة، المسرور، والحائر والمرتبك في آن واحد. فيما بعد قال لعجول: "انظر سي عجول، لقد أنكرتني أسرتي واعتبرتني مجنونا، لأنني بذّرتُ ما أملك من أجل الثورة. والآن..." وطلب منه عجول نسيان الحادثة.

في "دشرة" أولاد موسى الخاوية والهادئة بصورة غريبة، لم يعد يُسمع شيءٌ سوى ذهاب وجيئة النساء الأربع، اللواتي طهون للمجاهدين. ومثل نملات مفزّعة، رحن يُخبِّئن الأسلحة الفاسدة في أكياس، ويُعجِّلن بدسّها في أكوام سماد كبيرة داخل الإسطبل. في الخارج، قال شيحاني: "لم يعُد بإمكاننا تعديل أي شيء، لقد فعل كل واحد منا ما بوسعه."

دشرة أولاد موسى يوم الفاتح من نوفمبر. كانت الساعة الثالثة فجرا،عندما عاد مصطفى من باتنة. كان شيحاني، وعجول، ومدور، وعزوي، ومصطفى بوستة، وبيشة جودي جميعا، هنا في انتظاره وقد أنهكهم التعب. ورغم أن مصطفى كان مرهقا بالقدر نفسه، فما زالت لديه القدرة على التأكد، من أنه لم يبق أثر لمرورهم بالبيت، وأن الأسلحة الصدئة ممّوهة جيدا تحت السماد. وبعد ساعة، تسلقوا حتى "تافرنت أولاد عيشة"، شرق دشرة أولاد موسى بخمسة كيلومترات، على ارتفاع ألف وستمائة متر. كانوا يرتعشون من البرد. وكان صوت خطواتهم وحده يقطع الصمت.

تافرنت أولاد عيشة، يوم أول نوفمبر، الخامسة صباحا. هم يستمعون إلى الأخبار على جهاز راديو ببطاريات. لا شيء يُذكر! بالكاد إشارة موجزة لأحداث (كلمة ستستخدمها السلطة الاستعمارية دون اعتدال، لإخفاء حالة الحرب في الجزائر) في باتنة وخنشلة وبسكرة. يُخفي مصطفى انقباضه. حسّ التنظيم لديه أقوى من كل شيء؛ فراح يستفسر بوستة عن وفرة الغذاء، وبما أن لا شيء قد قُرّر، فقد اقتطع خمسة آلاف سنتيم من الخمسة عشر ألفا، التي تشكل إجمالي ذخيرتهم الحربية، وأعطاه إياها لشراء بعض المؤونة.

لأول مرة، وبالرغم من تدريبهم، يبرز لدى هؤلاء الرجال– لا الخوف من الموت، لأنهم تجاوزوا ذلك – ولكن خشية الفشل. ويقول مصطفى أنهم إن لم ينجحوا، فإنما يعود ذلك لنقص في إعداد الشعب.

بدأت تقارير أعوان الاتصال تصل. إنها الكارثة ! فَهِمَ مصطفى، لماذا لم يكن للعمليات الصدى المتوقع. فأريس التي تقع على بعد بضعة كيلومترات فقط لم تتحرك. ما الذي حدث؟ فلا الدرك، ولا مكاتب البلدية المختلطة هوجمت. مع أنه أعطى بنفسه إشارة انطلاق الفصيلة نحو راس الذراع. إنه يرفض تصديق ارتداد أحمد نواورة. ويقلّل من دور الشيخ مسعود بلعقون، الذي ساعده شقيقه نفسه، عمر بن بولعيد.[1]

لا شك في أن الأخبار التي وصلت غير مكتملة؛ فبعض قادة المجموعات أو الفصائل، لأنهم كانوا جدّ متأثرين أو غير واعين، لم يرسلوا سوى نتف معلومات. في آخر الصبيحة، أعلن مصطفى أنه إذا لم يتحقق النجاح الكامل، فليس ثمة فشل ذريع تماما. فقد تم إطلاق مائة وخمسين رجلا مسلحا في الطبيعة. ولا بدّ أن يتأتّى من ذلك شيء ! في الظهيرة، لم يعد يتمالك نفسه، والتحق بجبل "زلاّطو"، باتجاه الجنوب الغربي. وفي آخر الأمسية، وجد ملجأ مع رفاقه الأربعة، في منزل بوستة، شرق الكاف لحمر.

الثاني من نوفمبر. ينام مصطفى والآخرون حتى ساعة متأخرة من النهار. بعد ذلك، ينزلون نحو أريس، ويحضرون من بعيد جنازة في مقبرة سيدي إبراهيم. شرع المشيّعون في إنشاد البردة، فأخذه الإنشاد الجنائزي هو ورفاقه، لدرجة أنهم لم ينتبهوا إلى أنهم محاصرون بشكل محكم. فانتفضوا بشدة حين سمعوا الأمر المباغت والصادر إليهم برفع أيديهم. لكنهم سرعان ما أخذوا يضحكون، عندما اكتشفوا

---

1) قضى مصطفى بترك شقيقه عمر بعيدا عن الكفاح التحرري، ولكن بعض المقاومين تجاوزوا ذلك، وقبلوه في صفوفهم، لتجنب انتقام فرنسا منه وتلطيخها اسم آل بن بولعيد.

أنهم حوصروا من قبل محمد صبايحي، قائد مجموعة تاغيت، الذي قدم تقريره إلى مصطفى في ما بعد. وذكر الحادثة التي تسبب فيها "قايد" مشونش. فثار مصطفى: "لماذا أطلقتَ النار؟ لقد قلنا لك، وكررنا بأن توزع المناشير، وأن تشرح أهداف معركتنا، لا أكثر!" "ولكنه يا سي مصطفى هددنا بسلاحه!" ثم أراه مسدس "القايد". ووصلت أخبار من باتنة. لم يفاجأ مصطفى من خذلان الصبايحي الأسبق. ولعن الطاهر النويشي الذي لم يظهر عنه أي خبر. ثم أخبره أحد المقاومين أن الجزائر العاصمة، حسب الراديو، قد تحركت. خبر سارّ أخيرا ! لم يعد الأوراس وحيدا. أعدّ لهم علي بن عمار العشاء، ثم تنقلوا ليلا، نحو جبل الحارة شرقا.

أثناء الليل، راجع مصطفى أحداث الأيام الأخيرة. تنقص عديد المعلومات، ولكن مما تلقى، استوقفته التراجعات العديدة، وعدم الانضباط، وسوء التنظيم، وتفرق المجموعات. ولأول مرة، ينتبه إلى مدى ضعف شعلة الثورة! ثم تفطّن إلى أنه لا يتوفر على مخزون من أي شيء – فلا أسلحة ولا ذخيرة (تكون وفق حساباته، قد بقيت مائة وخمسون طلقة لكل مجاهد) ولا أكل. فقرر عقد اجتماع للشرح والتقييم مع قادة الأفواج.

الثالث من نوفمبر. في الصباح الباكر، وصل عباس لغرور إلى "الحارة". كان صدره مُغطّى بخراطيش مثبّتة على شرائط جلدية، وهو يتقلد بندقية الـ"موزر"، والمسدس الألماني على الجانب الأيسر، والجعبة مليئة بالخراطيش على الجانب المقابل. لقد كان مذهلا فعلا.

لكنه غاضب جدا الآن! إن لم ينجح هجوم خنشلة، فالخطأ يعود لرجال يبّوس الثلاثين، وخاصة لقائدهم. ثم يصرخ قائلا: "إنهم لم يأتوا إلى الموعد! لقد انتظرتهم عبثا في "فونتان شود" (النبع الحار). فراح مصطفى يهدئ من روعه، قائلا أنه يعرف حسّ الانضباط لديه،

وأن الإذاعة تحدثت عن خنشلة، وأن كل شيء ليس سلبيا. حينئذ، روى له عباس ظروف الهجوم على محافظة الشرطة، مشيدا بالمناسبة، بشجاعة المقاومين الشباب، ومتأسفا على نقص ثقتهم في أنفسهم: "لقد انسحبوا دون أخذ أسلحة رجال الشرطة. إنه خطأ، لم يكونوا ليرتكبوه، لو كان رجال يبّوس معهم."

كما أخبر مصطفى بأن تكوت والولجة وكيمل وتبردقة ولمسارة وتامزة والقصر وأريس وإيشمول وإينوغيسن، قد هوجمت كلها بقوة متفاوتة. وأن المناشير قد وزعت ، وأن جسورا بين أريس وباتنة قد قُطِعت ، وكذا أعمدة الهاتف.

الرابع من نوفمبر. النهار طويل. ينتظر مصطفى أعوان اتصال آخرين، لكن دون جدوى. الإذاعة تعلن أن فرنسا، تعترف بانتفاضة حقيقية، اندلعت من مئات البنادق في الأوراس. تُحلِّق طائرة تجسّس فوق جبل "زلاّطو" وغابة بني ملول، في دوائر واسعة بطيئة. يأمر مصطفى رفاقه بالبقاء مختبئين تحت الأشجار.

الخامس من نوفمبر. لم يعد مصطفى يطيق الانتظار. يجب أن يذهب بنفسه إلى الاستعلام. اتجه مع رفاقه نحو الجنوب الغربي، واجتاز جهة "غسيرة" وجبل "أحمر خدّو". في مشونش يلتقي حسين برحايل، لص الشرف الأسبق، ذاك الذي كُلِّف بمهاجمة بسكرة وطولقة ومشونش. فآخذه مصطفى على صمته: "بعد العملية، كان ينبغي أن تأتي لتقدم تقريرا. لا يحق لك ترك القيادة جاهلة بما يجري". "أقسم لك يا سي مصطفى بأنني طبقت أوامرك حرفيا". ثم وصف له بالتفصيل العمليات التي نفذها في المواقع الثلاثة. فقاطعه مصطفى: "أين سليمان؟[1] "سليمان؟ لا بد أنه في الجزائر الآن". "لماذا تركته يذهب؟"

---

[1] سليمان الذي جنده شيحاني، قدم نفسه كضابط صف فارّ من الجيش الفرنسي. وقد لعب دورا غامضا في التنظيم- يؤكد البعض أنه عميل للفرنسيين

"يا سي مصطفى أنا كنتُ أظن أنك على علم. لم يقل لي أحد شيئا. لقد ذهب وأخذ معه مائة وتسعين ألف سنتيم من مال التنظيم". فالتفت مصطفى إلى شيحاني. "لا أعلم سبب ذهابه يا سي مصطفى، لم أعطه أية تعليمة، ماعدا مساعدة برحايل!"

أعلن برّحايل أنه جاهز ليقتحم بالقوة دوار أولاد عبد الرحمن كباش، الذي تسيطر عليه مجموعة من المجاهدين الشيوعيين، يقودهم محمد قرّوف. وقد رافق هذا الأخير سليمان حتى الجزائر، وقدمه إلى مسؤولين في الحزب الشيوعي الجزائري، ثم عاد إلى كباش. قال مصطفى: "سنذهب إلى هناك سويًّا". كان الليل قد مضى عندما غادروا مشونش، متجهين نحو تاجموت. وبعد قطع ثلاثين كيلومترا، وصلوا إلى كباش، وقت صلاة الفجر، فأدّوها مع قرّوف ومجموعته. مما جعل مصطفى يقول لهم بنبرة ساخرة: "يا أولاد، لقد صلّيتم وراء ملحد. عليكم بإعادة صلاتكم!"

أبدى قرّوف سرورا بمقدم مصطفى، وذبح خروفا على شرفه. طرح عليه مصطفى أسئلة بشأن سليمان. "لقد رافقتُه إلى أعضاء نقابة العمال في الجزائر." "عمّ تحدثوا؟" "عن أنسب طريقة للنقابة، لمساعدة جيش التحرير الوطني. ظننتُ أنك كنتَ على علم، وأنك فوّضته لذلك". لا يُعلِّق مصطفى. ويضيف قرّوف: "مجموعتي تحت تصرفك. نحن مستعدون للقتال إلى جانبك، ولكننا سنبقى تحت سلطة حزبنا". يرفض مصطفى، ويطلب أن تُسلَّم إليه الأسلحة. يحاول قروف المجادلة، ثم يطلب مهلة عشرة أيام لاستشارة العاصمة. وعلى نقيض رأي رفاقه من أنصار الأسلوب الخشن، يمنحه مصطفى المهلة. [1]

---

1) قال مصطفى لرفاقه: "على كل حال، فلا الحزب الشيوعي سيجيب ولا هو سيرد الأسلحة". وبعد خمسة عشر يوما، أعاد قروف الأسلحة، بناء على تعليمة من العاصمة، وانسحب من جبهة القتال، طبقا للتعليمة نفسها.

في السادس من نوفمبر، كانت العودة إلى "الحارة". علم أعضاء القيادة، بوصول مظليين فرنسيين إلى تكوت (ثلاثين كيلومترا إلى الجنوب الغربي). أُرسِل بيشة وبوستة للاستطلاع. أكد لهم أحد المدنيين المعلومة، ونصحهم بمهاجمتهم! لم يتردد بيشة المتهوِّر. وبرغم طائرة الاستطلاع الـ "بايبر كاب"، فقد تحدّى الفرنسيين، وأطلق النار على التقدير، فجرح مظليًا، تم نقله بعد ذلك بمروحية، ثم أطلق النار أخيرا وهو عائد، على طائرة التجسس. بعد قليل، لاحت طائرات مطاردة، رشَت "تافرنت". تلتها طائرات مقنبلة ألقت بقنابل. عند عودتهما، تعرض بيشة وبوستة، لتأنيب عنيف من مصطفى الغاضب: "احترموا قواعد حرب العصابات! لا تحتقروا العدو أبدا، واحذروا الطيران!" قال بيشة الذي لم يبدُ عليه الاقتناع: "دعهم يأتوا يا سي مصطفى. رأسا برأس وسترى من سيربح!" "اسكت يا رأس البلوط، واكتفِ بإطاعة الأوامر!"

السابع من نوفمبر. لأول مرة يذكر مصطفى ضرورة سفره إلى المشرق. لديه موعد مع وفد الثورة الخارجي، وهو يعتزم إرسال شيحاني. بُعِثت رسائل إلى مختلف قادة المجموعات، لتنبيههم إلى انعقاد اجتماع قريبا. أعدّ مصطفى جدول أعماله رفقة شيحاني وعجول. المشاكل عديدة وكبيرة.

مخاطر التجاوز والفوضى تفرض وجودها: يمكن أن تَحدُث أشياء مريبة باسم جيش التحرير الوطني، قد تصل إلى تصفية حسابات حقيقية.

كان أسلوب التجربة والخطأ يسود بحسب قيمة قادة الأفواج، تميزه سيطرة البندقية على الكلمة. وكان مصطفى يؤكد: "علينا أن نتجنب بأي ثمن، التّورُّط في غرس العقائد بالقوة".

وفي جدول الأعمال نفسه، طرح مشكلة تحديد المساحات الجغرافية الممنوحة لكل فوج. ثم ألقى بالسؤال: "ما السبيل إلى ترشيد العلاقات بين الأفواج، والقيادة التي ينبغي أن يظل مقرها سرّا على الإطلاق؟ كما ينبغي أن نجد لمشكلة اختيار عون الاتصال حلا عاجلا." وهكذا دواليك: مسائل التموين، والتزويد بالذخيرة وبأحذية "الباتوقاز"، التي بدأت تبدو عليها علامات البِلى (في جبهة القتال الأوراسية، لا تتجاوز مدة صلاحية هذه الأحذية الكتانية أبدا، البضعة أسابيع).

الثامن والتاسع من نوفمبر. يبدو أن عماد النار قد نجح. فقد تخطت الثورة أول امتحان. قال مصطفى: "الآن يجب تجهيزها". ثم ضحك حين قيل له أن فرنسا، قد أعلنت أن عدد المتمردين المسلحين في الأوراس، يقدر بثلاثة آلاف.

العاشر من نوفمبر. اجتماع قادة أفواج الأوراس الجنوبي، بعين توزالت في نواحي "الحارة". وقد حضر – عدا أعضاء القيادة– أربعة من قادة الأفواج. أجريت حصيلة أولى. التراجعات أولا: فقد طلب نحو عشرة مجاهدين تسريحهم. فأعادهم مصطفى فورا إلى الحياة المدنية، لأن النضال، كما قال، يقوم على التطوع المحض. ثم جاء دور النقد الذاتي. وأعاد طرح مسألة موت "قايد" مشونش على البساط. "الأوامر مقدسة. ويجب احترامها لزوما!" فقال صبايحي : "حتى وإن أُطلِقت علينا عيارات؟".

اعترف مصطفى بأن الدفاع الشرعي المثبت، يمكن أن يبرر القتل. وتوصية أخرى: لا يحق للمجاهد المعيّن في فوج، مغادرته بمحض إرادته، كما تمت ملاحظة ذلك عدة مرات. كما لا يحق للفوج المتمركز في قطاع معين، التنقل إلى قطاع آخر دون أمر من القيادة. فإن فعل ذلك، عرّض منظومة الدفاع كلها للخطر. "إن جيش التحرير يشبه البيت،

فإذا غاب أحد الجدران، تهاوى المنزل. إنّ أمننا جميعنا يتوقف على يقظتنا." وأوصى – ضاربا المثل بحادثة بيشة– بعدم مهاجمة العدو أبدا في وضعية ضعف، وخاصة عدم إطلاق النار أبدا من بندقية على طائرة. "إن حرب العصابات ليست مسألة ركوب هوى."

وأضاف: "إن مفتاح العلاقة بين الأفواج هو كلمة السر. عليكم تغييره كل يوم. ثم إن عليكم الاتفاق مسبقا، على نقطة تجمُّع يعرفها جميع المجاهدين، في حال التفرق الاضطراري". وضرب لذلك أمثلة، وذكر أماكن محددة، إذ أن معظم المجاهدين كانوا جبليين أمّيين: "ليست لدينا ذخيرة. عليكم تلقين رجالكم حسّ الاقتصاد، والرماية من أجل الإصابة. الاتصال بالمدنيين ممنوع، ولو كانوا أقارب. ومن حيث المبدأ، فإن كل مدني مشتبه به بالتعاون مع العدو."

عندما يتحدث مصطفى عن حذره من المدنيين، الذين قد يكونون متعاونين نوعا ما مع الفرنسيين، فهو يعني ما يقول. فالخصومات ما بين العشائر، التي توقدها وتُغذّيها فرنسا، تتجاوز بكثير مفهوم الوطنية.[1] ويُلِحّ: "إن الكفاح المسلح ما هو إلاّ جانب فقط من المعركة. ينبغي ألا تَملّوا أبدا من شرح أهداف الثورة، في كل المناسبات، سواء لرجالكم أو للأهالي."

وأخيرا، ومن أجل الردّ على حالات معيّنة، دُعيَ كل قائد فوج للاستشارة، أمام أعضاء القيادة، الذين يبلغونه التعليمات الخاصة بقطاعه. ومرة أخرى، تم تحديد نواح أُعلِنت غير عسكرية، لتسهيل المرور وتخزين المؤونة.

---

1) من الواضح أن القبائل البربرية بلغت حدّ التهليل للمستعمر حقدا على الإخوة الأعداء. "نهدي خبزنا للأجنبي ولا يأكله أبناء عمومتنا الأعداء". وقد ذهب أعيان من عشيرة مصطفى نفسه، "التوابة" يوما ليطلبوا من "قابي"، متصرف بلدية أريس المختلطة آنذاك، بأن يطرد من الناحية آل بوسليماني الذين يعتبرونهم أجانب. وبعد يوم من التفكير، أجابهم "قابي": "الأجنبي الوحيد هنا هو أنا، وإذا كان يتعيّن على أحد أن يرحل، فلا يمكن أن يكون سواي."

وأثناء المناقشات، تبين أن محمد الشريف سليماني لم يَقُد الهجوم على بريكة. ولم يفلح مصطفى في إخفاء غضبه، خصوصا وأن شيحاني لم يوافق على منح منصب مسؤولية لسليماني. فقد أعلن: "يجب معاقبته!" وبرز مشكل آخر، أثاره بن شايبة : "أنا ضحية جور وتعسف. فقد أجاز مسعود بن عيسى لنفسه، أن يقسّم فصائلي إلى أربع مجموعات، مخالفا رأيي ورأي جميع المجاهدين. وقد زعم أنه تصرف بناء على أمر من القيادة." فتدخل عجول: "هذا ليس صحيحا. لم تعطه القيادة أي أمر."

وتوجه بن عيسى، متجاهلا عجول، مباشرة إلى بن شايبة : "ستون رجلا، أليس ذلك بالكثير عليك؟ والقطاعات الأخرى، أتريد تركها فارغة؟" "لا، ليس هذا هدفي، ولكنني المسؤول الوحيد عن الفصيلتين، كما أمرتني بذلك القيادة." فتدخل مصطفى: "سنحل هذا المشكل فيما بعد. ثمة ما هو أعجل."

وباقتراح من شيحاني، تمّ تعيين سليماني كمجاهد بسيط ونقله إلى خنقة عريش. وتم نقل العياش باتسي ومجموعته إلى كيمل، وعُيِّن مصطفى ڤوغالي "اتصالا"، لتأمين الاتصال بين مقر القيادة وقرى الشمُرّة والخروب وعين مليلة. وأُرسِل مسعود مختاري مع فوجه، إلى جبل أحمر خدّو، بينما كُلِّف علي بن عمار، بإنشاء شبكة إسناد في أوساط الأهالي.

في ختام الاجتماع، مساء هذا الحادي عشر من نوفمبر نفسه – وربما شجعهم عجول على ذلك خفية – استفسر المقاومون مصطفى، عن قضية اعتبروها خطيرة. فبعض القادة، ومنهم على وجه التحديد، مسعود بن عيسى ومدور عزوي – لكونهم من المحيط المقرب للقيادة – يميلون إلى التعالي، ويتأففون من تنفيذ أعمال السخرة المشتركة،

مثل دورهم في الحراسة أو جلب الماء. حاول مصطفى تهدئة الفرقة، وأعلن بدافع الإصلاح بينهم، استعداده لتعويض المذنبيْن. ولكن المجاهدين رفضوا، وطالبوا وضع مسعود بن عيسى في عزلة، وإجباره على مغادرة المجموعة، واللجوء إلى مغارة.

ولكن عجول بعد رحيله، ودون علم مصطفى، أعاد إلى سليماني رتبته على رأس مجموعة مجاهدين "سراحنة" [1] وأعطاه أمرا بمضايقة بن عيسى بشتى الوسائل، عدا قتاله بالسلاح، حتى يخرج من جحره! ولحسن حظ بن عيسى، أن الخطة التي أعدّها عجول لم تنفذ، إذ أن سليماني قد تم توقيفه بعد ذلك.

في الثالث عشر من نوفمبر، عُقِد اجتماع ثانٍ في إينوغيسن، وهذه المرة مع أفواج شمال الأوراس. وبروحه الاعتيادية، أبدى شيحاني تفاؤلا:

"لقد انطلقت الثورة بصورة جيدة. ولن تدوم الحرب أكثر من بضعة أشهر". وأعطيت الأوامر الشفهية نفسها تقريبا، إلى قادة الأفواج: كيف ومتى يهاجَم العدوّ، أي المدنيين ينبغي الاتصال بهم، أماكن الاستراحة والالتقاء في حال التفرق، النواحي الواجب تفاديها. ويحذِّر: " يمنع على أي واحد السعي إلى الاتصال بمقر القيادة. لديكم لهذا الغرض "الاتصال" : فاستخدموه." ثم بدأ كشف المستور. فما كان جواب عمار معاش على عباس لغرور، الذي آخذه على تغيُّبه عن موعد عين سيلان؟ "لقد أتيت، والرجال شهود. لقد أخطأ عباس المكان. فهو لم يرنا بسبب ظلام الليل، أو الغابة، لا أدري." فيحتج لغرور: "أنا أعرف الجهة، ويمكنني السير فيها ليلا ونهارا. لو أتيتم، لوجدتكم." قلّل مصطفى من

---

1) ينتمي عجول إلى عشيرة السراحنة، جمع سرحاني.

شأن الحادثة، وعزاها إلى نقص التجربة. هو يعرف أن فصيلة عمار معاش، وهم من عشيرة "بني وجانة"، قد أبانت طول الوقت عن روح استقلالية. فقد رفض بني وجانة، الانضمام إلى رجال الطاهر النويشي أو علي بن شعيبة، لأنهم يريدون حرية مطلقة في العمل، في الناحية الواقعة بين يبّوس وخنشلة. فأرضاهم مصطفى، حيث بدأ بنقل لغرور إلى القيادة لتجنب تسمم علاقته بمعاش، ثم فصل بني وجانة عن مجموعة خنشلة التي دعاها إلى التمركز حول تبسة في جبل ششار، المعلن ناحية غير عسكرية.

وما إن حُلّت مشكلة حتى برزت أخرى أخطر منها، لأنها تمسّ مباشرة سلطة مصطفى. نتذكر أن أحمد نواورة الذي عُيِّن لخوض هجوم أريس، لم يحضر في اليوم الموعود. وقد قرر مصطفى رغم ذلك إبقاءه قائدا لقطاع أريس. ثمة بداية عصيان. فقادة الأفواج ، بتشجيع من عجول، رفضوا قرار مصطفى، واقترحوا بدل نواورة علي بعزي، الرجل الذي قاد الهجوم الفاشل على باتنة. حاول مصطفى المجادلة ولكنه، أمام الاستنكار العام، رضخ مجبرا. عندئذ أعلن الشيخ مسعود بلعقون بكل جدية: "لو لم أُبقِ المجاهدين في مراكزهم يوم الفاتح من نوفمبر بدل نواورة المتغيب، لم تكن الثورة لتنطلق!" ابتسم مصطفى وانفرج الجو. وتم، رغم كل شيء، تكليف نواورة بالنظارة المالية.

في مساء هذا الثالث عشر من نوفمبر، نزل مصطفى ورفاقه إلى الحجاج، وهي ضيعة صغيرة تقع شرق أريس. وبدأت اللوحة تتّضح شيئا فشيئا. لقد جاء الخبر من الخروب وعين مليلة، بأن بشير حاجي قد أطلق حقا عيارات من مسدسه الرشاش، على مبان عمومية في ساعات أول نوفمبر الأولى. أما ما حدث بباتنة، فلم يأت الاتصال إلا بنتف معلومات. أراد مصطفى أن يعرف بكل وسيلة، أسباب فشل

الهجوم. وأبدى غضبه من النويشي، الذي لم يكن قد أرسل عنصر اتصاله. كما تم إخباره بأن الفرنسيين، قد قتلوا أربعة مجاهدين في إشمول، بين السابع والثامن نوفمبر.

في السابع من نوفمبر، كان قد سبق له الحديث عن رحلة إلى المشرق. وكان ينوي إرسال شيحاني ليطلب من وفد الثورة الخارجي، التعجيل بإرسال الأسلحة. فالوضع لم يكن متألقا. ولم يعد المجاهدون يتوفرون، إلا على مائة وخمسين طلقة لكل واحد. ثم إن الأسلحة التي يستعملها جيش التحرير الوطني، جميعها تقريبا أجنبية، وذخيرتها غير متوفرة في السوق المحلية.

الشغف بالأسلحة النارية

إن تهريب الأسلحة إنما بدأ في سنة 1947، وبالأساس انطلاقا من تبسة. فالأوراسيون الذين يعوّلون فعلا على شغف "الشاوي" بالأسلحة النارية، قد جعلوا منها تجارة حقيقية، بمواكب من أربعة إلى ستة جِمال. ويقع نقل الأسلحة المشتراة في ليبيا وتونس من مخزونات إيطالية، نحو أربع مرات في السنة، إذ تدخل في المتوسط ثلاثمائة قطعة سلاح إلى الأوراس كل فصل، تستردّ الإدارة الاستعمارية أغلبها عقب المشاجرات أو الجرائم، أو في أغلب الأحيان إثر وشاية بسيطة. وفي سنة 1950 بلغ ثمن قطعة السلاح الحربي في الأوراس، ثمانية عشر ألف سنتيم.

لم تكن الثورة قد أتمّت أيامها العشرة الأولى، حتى اضطر مصطفى إلى أن يسحب من ميدان المعركة، كثيرا من الأسلحة التي لم تعد صالحة، لعدم توفر الذخيرة المناسبة. وهنا، ظهر مبدأ فرض نفسه:

تحصيل الأسلحة والذخيرة من بين أيدي العدو. وبعد الأسلحة يأتي دور الأزياء والأحذية وساعة اليد! ويتواصل عمل التقييم والشرح حتى السابع عشر من نوفمبر. واستُدعِيَ مقاومون مدنيون، وكُلِّفوا بمهمات تخريب واستعلام. "ليست الثورة ذات اتجاه واحد، فهي تتطلب مشاركة الجميع." لم تكن نبرة شيحاني تهديدية صريحة، ولكنها لم تتسم بالودّية أيضا. وقد فهم المدنيون ذلك جيدا.

من الخامس إلى الثالث عشر من نوفمبر، ظلت المناوشات بين جيش التحرير الوطني والقوات الفرنسية خفيفة. فبعد اشتباك في الخامس من نوفمبر في إشمول، تلاه رشّ أرضي من طائرات مقاتلة، وقصف جوي لتافرنت، وقعت اشتباكات في "فم الطوب" و"إشمول"، مع كتيبتيْ مظليين فرنسيين. وفي التاسع من نوفمبر، هاجم برّحايل مشونش. وفي الثاني عشر، وقع اشتباك جديد في إشمول؛ في الصباح هذه المرة، وقد قُتِل خلاله مظليان. وفي الثالث عشر، هوجمت قرية "باستور"، على بعد ثلاثين كيلومترا شمال باتنة.

وبدا اشتباك يوم 18 أكثر حدة. لقد أعلم مخبرٌ الفرنسيين، بأن مجموعة من المحاربين، منتظرة مساء الثامن عشر في "حنبلة"، على بعد اثني عشر كيلومترا شرق تكوت. حاول الفرنسيون اقتحام القرية، لكن المجاهدين، كانوا أسرع ونجحوا في الإفلات بإطلاق عدة عيارات نارية. وبقي اثنان من رجالهم في المؤخرة محصوريْن حتى الفجر، فاشتبكوا مع المظليين، وأصابوا نحو عشرة منهم، ثم قاموا بالانسحاب. وكان رد الفعل الفرنسي سريعا. فقد جمع الضابط كل سكان حنبلة وعكريش وبوستة، وأمرهم بجمع الحطب، واستخدامه لإحراق مساكنهم الخاصة. في هذه الأثناء، قام مظليٌّ بتعنيف امرأة، بسبب تماطلها. فضربته بساطور. سقط المظلي، فراح رفاقه يطلقون

النار على الجمع، وقُتِلت أربع نساء. طلب عمرو بن زرارة، "دايرة"[1] البلدية المختلطة، الضابطَ الفرنسي وقال له أن إحراق المنازل، وقتل السكان الأبرياء، عمل منكر. ولفرط إلحاحه، ومناشدته شرف الضابط وكرمه، نجح في إبعاد سكان القرى، فقام الفرنسيون بأنفسهم بإضرام النار في المساكن.

صُدم مصطفى؛ فأن يهاجم الفرنسيون نساءً ويعدومهنّ ببرودة دم، بدا له قمة الدناءة. وقرر مغادرة "الحارة" فورا، كيلا يعرِّض السكان للخطر، واستقر مع مجموعته في غابة كيمل شبه الخالية.

في التاسع عشر من نوفمبر، قصف الطيران الفرنسي غابة بني ملول. وشرع أحمد نواورة انطلاقا من أريس، في تزويدهم ببعض المؤونة. وما زال مصطفى ينتظر أعوان الاتصال.

العشرون من نوفمبر، الطائرات الفرنسية تفرغ آلاف المناشير، داعية السكان إلى التجمع في نواح آمنة قبل 21 نوفمبر، لأن "مصيبة مفجعة ستقع قريبا على رؤوس المتمردين". نزل أعضاء القيادة نحو الجنوب الشرقي، باتجاه منطقة درمون، الواقعة شمال زريبة الواد. وفي الطريق، هدّد مصطفى بيشة بإطلاق النار عليه إن هو لم يتقدم بأسرع من ذلك.

في درمون، استراحوا في منزل عجول العائلي، واستحمّوا في مياه حمام شابورة 2* الساخنة والكبريتية، وأكلوا حتى التخمة التين الغض والتمر.

في الواحد والعشرين من نوفمبر التحق بهم حسين برحايل في درمون، وروى لهم باقتضاب الهجوم الذي خاضه ضد قرية مشونش.

---

1) الدايرة : موظف في البلدية المختلطة.

مصطفى متعطش للتفاصيل. ربما لإخفاء قلقه، لأن ضغط القوات الفرنسية يشتدّ. فثمة جنود في كل مكان، في أريس وتكوت ومدينة وفم الطوب، بعربات مصفحة من جميع الأصناف، وطائرات استطلاع وقصف. وبلغ القلق أوجه عندما قارن قواته الخاصة بقوات العدوّ: إن التباين كبير جدا.

عندما يكون في مثل هذه الحال، يفضل أن يتحرك. لكن هذا ليس فرارا. فالتفكير أنه يفر أمام المشاكل، ينمّ عن عدم معرفة به. بالعكس. إنه يتحرك للتمكن من استرجاع القوى، وفي نية الاطلاع واستباق الأحداث.

اليوم 26 من نوفمبر. يكلف عباس لغرور بالمداومة بمقر قيادة الحارة، ويتوجه هذه المرة نحو الجنوب الكبير، لاستطلاع خبر وصول محتمل، لأسلحة من تونس. فيلتحق ببسكرة، مرورا بتاجموت وجبل أحمر خدّو ومشونش. وفي "بنيان" يلحق به اتصال، يبلّغه أن اشتباكا وقع في خنقة معاش، بين عناصر من جيش التحرير الوطني وقوات فرنسية، استردّ خلاله المجاهدون نحو عشرين سلاحا فرديا. كما أعلمه في الوقت نفسه، بموت بلقاسم قرين ومجموعته في "لوردام"، شمال شرق أريس.

لص شرف

انضم بلقاسم قرين، وهو لص شرف سابق من عشيرة الشُّرفة، إلى «MTLD» قبل الثورة ببضع سنوات. وقد عيّنه مصطفى مع فوجه لمهاجمة باتنة، في وقت واحد مع النويشي والحاج لخضر. قضى الأسابيع الثلاثة الأولى من الثورة، في ناحية باتنة مع الحاج لخضر، ولكنه اشتاق إلى مسقط رأسه في الجبل، فقام بإقناع أعضاء فوجه –

وهم من الشُّرفة والسراحنة والتوابة – بالتوجه نحو أريس. ودون تنبيه الحاج لخضر، الذي نسي أن يردّ له منظاره المقرِّب، غادر بوعريف، وذهب – حسب معلومات وصلت الحاج لخضر بعد فترة من الزمن– لمقابلة مُعمِّرٍ فرنسي من تيمقاد، لأخذ أسلحة. ثم التحق بواد طاقا. تناول رفقة رجاله مرطبات في دوار الواد لبيض بلوردام، حيث يبدو أن طائرة قد كشفتهم. وبعد أن دافع بشرف، استشهد قرين ورفاقه. كانت تلك أول هزيمة لجيش التحرير الوطني، تسبب فيها أساسا عدم احترام أوامر القيادة، التي منعت – للتذكير – كل تنقل غير نظامي.

كان ردّ فعل مصطفى لدى استقبال هذين الخبرين، الجيد والسيئ على السواء، كرد رجل بسيط: "ستعود يا عجول فورا إلى الحارة. لا بدّ أن عباس سيتدبّر أمره بمفرده، ولكنني أفضّل أن تكون رفقته." والتفت إلى شيحاني وبرحايل: "أنتما الاثنان، انتظراني في مشونش. وأنت يا بوستة، ستأتي معي إلى بسكرة." كانت نهاية شهر نوفمبر باردة وممطرة. وصل عجول إلى مقر قيادة الحارة في اليوم نفسه. فوجد هناك عباس، منشغلا بإعداد الهجوم على مركز ثومية في "الوسطية"، على بعد عشرة كيلومترات جنوب الحارة. فسأله عجول: "ألديك جميع المعلومات؟ عدد الجنود ودورة الاستخلاف والتسليح؟" "كلا، ولكنني سأحصل عليها قريبا، فقد أرسلتُ أعوان اتصال." ولكن الأعوان أبطؤوا في العودة. وقد انتظرهم عباس ثلاثة أيام، ثم أرسل فريق مقاومين للبحث عنهم. وكما يحدث غالبا في مثل هذه الحالات، فلا أعوان الاتصال ظهروا، ولا المقاومون. كان الجوّ شنيعا.

وغلّف التضاريسَ ضبابٌ كثيف. وانتظر عباس يومين آخرين، ثم قرر أن يذهب بنفسه للبحث عن الأخبار. لم يتوقف المطر عن الهطول والرياح عن الهبوب. وعباس لا يعرف المنطقة، فأخطأ السبيل، وهام

على وجهه في الغابة ساعات طويلة، تائها تماما، حتى انطلق عجول محتارا في البحث عنه، ليجده ويعيده إلى مقر القيادة.

في أثناء ذلك، جاء عون اتصال، ليخبرهم أن مصطفى ينتظرهم في "تاجرة"، على بعد بضعة كيلومترات صوب الشمال. وقبل تنفيذ الأمر، أوصى عباس كلاّ من صبايحي ومستيري وسيدي حني، بالحذر الشديد، لأن المقاومين السبعين المعسكِرين في الحارة، أغلبيتهم مجندون جدد لا خبرة لهم.

الأنباء في تاجرة ليست جيدة لأنها لم تتغير. ولم يفلح مصطفى في الاتصال بعون اتصال وادي سوف. وقال: "لقد تشوّش كل شيء". ودون تحضير، حدّثه عباس عن الهجوم الذي يُعِدّ له ضد قومية الوسطية. "سأذهب لأجلب لك أسلحة يا سي مصطفى. قدر ما تشاء، ولن نكون بحاجة إلى هؤلاء المختبئين في الخارج." ويضحكان. صحيح أنهما بدآ يعيان، بأن الدور الذي أوكل إليهما في اللعبة الثورية ليس هو الأسهل. وقد قبلا بذلك، ولكن بقي أن ينفذ أناس الخارج، نصيبهم من الصفقة.

ثمة مبدأ أساسي: عندما يكون مجاهد أو أحد أفراد عائلته مهددا بالحبس، أو مطلوبا لدى قوات أمن العدوّ، فإن باب جبهة القتال مفتوح أمامه آليا. إن جبهة القتال ليست ترفا. ينبغي أن يكون بمقدور كل رجل، أن يدافع عن نفسه ورفاقه. ولهذا الغرض، فإن التسليح مسألة حيوية. ثم إن المجاهد الذي يُكرّر له في كل ساعة، ألا يطلق النار إلا عند الضرورة القصوى، من حقه أن يتساءل عن أمنه الشخصي، الذي أصبح يقيسه مباشرة على "قدرته النارية". هذا كلُّه، يعيه مصطفى. وقد أخبر شيحاني وعباس وعجول أيضا، بنيّته في التنقل إلى المشرق، لتنشيط الشبكات لأن "الأسلحة قد سبق شراؤها".

نحن في شهر ديسمبر 1954. وفي الثالث عشر منه تحديدا. المجاهدون السبعون الذين تركهم عباس في الحارة، غادروا مقر القيادة وتوجهوا نحو الشرق، ثم قضوا الليل في "تامدينت". وقبيل الفجر – وقد أقضّهم الجوع – نزلوا إلى الجنوب رأسا، باتجاه الوسطية. خيّم الظلام واشتد البرد. والرياح عنيفة والثلج متجمد. توقفوا في "راس طبابوش"، جبلٌ يشكل نقطة اتصال بين السراحنة والشرفة، مقابل الطريق الرابط بين جنيّن وسيدي علي. قبالتهم في الغابة، قطيع أغنام، مائة رأس على الأقل. توجه مجاهدون نحو الراعية، التي كانت مالكة للأغنام أيضا. طلبوا منها خروفا أو اثنين، فرفضت. فاختاروا ثلاث نعاج، وتأكدوا من أنها ليست حوامل، ثم ذبحوها برغم احتجاجات العجوز ولعناتها.

بقيت معهم بينما كانوا يسلخون الذبائح ويبنون فرنا [1]. ظلت تنظر إليهم يأكلون اللحم المحمّر، ولم تغادرهم، إلا عندما خيّم الليل مع بقية قطيعها. انكمشوا في الليل والجليد. وفي الصباح كشفتهم طائرة مروحية تحلق فوق جنيّن. بعد ذلك بقليل، وصلت من تكوت ومن لمسارة ومن تاجموت ومن الولجة، قوافل شاحنات تلقي بجنود، وظلت في جيئة وذهاب بلا انقطاع لساعات طويلة.

لم يكن المجاهدون واعين بالخطر، بل لم يكونوا يعلمون بأنهم محاصرون. أحدهم، وقد عضّه البرد الشديد، نزل بين الأشجار بحثا عن بعض دفء الشمس. وما إن خرج من مخبئه، حتى ناداه فرنسي. ودون التفات، ركض إلى الأمام وخرج من الجهة المحاصرة، تاركا الفرنسيين دون ردّ فعل. في البداية على الأقل، لأنهم بعد لحظات قليلة،

---

1) الفرن عبارة عن تجميع حجارة مسطحة، تغطى بالتراب لتجنب إضاعة الحرارة، وتُحميها نار كبيرة توقد تحتها. يوضع اللحم قطعا كبيرة على الحجارة، ويُبيّن نضجَه تهيّجُ التراب على السطح.

فتحوا نيرانا متواصلة باتجاه الغابة. وكان صبايحي أول من سقط شهيدا.

وفي حالة فرار جنوني، انقسم المقاومون الآخرون إلى مجموعتين – إحداهما صعدت شرقا حتى راس طبابوش، على ارتفاع ألف وستمائة متر، ثم غطست رأسا نحو "واد سيدي فتح الله" في الأسفل، بينما نزلت المجموعة الأخرى نحو سفح "الراس" الأجرد، فووجهت بجنود أعداء كامنين، أصابوا منها ثلاثة مجاهدين. جُرِح غزالي بن عباس في ساقه الأيمن، غير أنه نجح في تعيين موقع رامي البندقية الرشاشة العدو، فقتله. توقف رفاقه المنهكون، في المكان المسمّى "كرومة الصيد" (عنق الأسد). هنا كانوا يَرون دون أن يُرَوا. وراح عبد الحفيظ السوفي يطلق النار على الفرنسيين، كما لو كان في جناح رماية، وأسقط منهم عددا كبيرا. وعلى الجوانب، كان نحو اثني عشر مجاهدا يَرُشّون بدورهم، مصيبين أهدافهم في كل مرة.

وقُبالتهم مباشرة، سمعوا فرنسيا يصيح: "تقدّموا!" فانقبضوا مستعدين للاشتباك اليدوي. ولكن أحدا لم يظهر. وبعد فترة طويلة، صاح الصوت نفسه: "إلى الوراء، تراجعوا!"، فعرفوا أن الهاون أو المدفعية ستدخل الحلبة. فهجموا غريزيا – دون التوقف عن إطلاق النار – على صفوف العدو، هائجين، فكسروا الحصار، وتسللوا بين الشاحنات باتجاه الأحراش الكثيفة.

لقد نجحوا في العبور، باستثناء علي بدري، الذي واصل – من على شجرة– إطلاق النار، ولم ير رفاقه يرحلون. وقد كشف الفرنسيون موقعه، بسبب بقايا القذائف أسفل الشجرة، فقتلوه. وأسروا بالمناسبة نفسها "ملكميا" دون سلاح. أما الوطنيون الذين تركوا بعيدا وراءهم

نيران معسكر العدوّ، فلم يلبثوا أن وصلوا "لمسارة"، شمال غرب سيدي علي، واستراحوا هنالك لمدة ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع قفلوا راجعين نحو سيدي علي، وهو نقطة الالتقاء التي تم تحديدها مع المجموعة الأخرى، ومع عباس أيضا. سمعوا داخل الغابة المظلمة أحدهم دون أن يروه، يتحدث بالفرنسية، فظنوا أن العدوّ قد تبعهم حتى هناك، ومن جديد لاذوا بالفرار، هذه المرة باتجاه الجنوب، ولم يتوقفوا إلا في تاجموت. والواقع كما اكتشفوا ذلك من بعد، أن العياش باتسي باستعماله لغة فولتير، هو من بثّ الاضطراب في أوساطهم دون قصد!

ولم ينته الأمر عند هذا. ففي تاجموت اشتكى أحد المقاومين من آلام في البطن – فكّر بعضهم عندئذ في دعوات الراعية العجوز– وراح يتلوى أرضا أمام نار المعسكر، فسقطت منه رصاصات في النار وانفجرت... ومرة أخرى، كان الهرب والتفرق، هما اللذان قاداهم حتى أبواب الجنوب الكبير، في قصر أولاد عيسى، حيث وجدهم الرجال الذين أرسلهم عباس بحثا عنهم، بعد أيام عديدة، جوعى، يتغذّون من لحاء الأشجار!

خلال نهار الثالث عشر من ديسمبر 1954 وليله، تابع مصطفى انطلاقا من تاجرة، رفقة عباس وعجول، ظروف معركة راس طبابوش، واعين بعجزهم أمام طوفان نيران كهذا. لقد سمعوا زمجرة القصف، وصدى قذائف الهاون التي تُخفِتُه الغابة. كان عباس قلقا، وحاول مصطفى كل وسعه، لمنعه من الذهاب للارتماء في فم الذئب: "انتظر حتى تتضح الرؤية قليلا." وأمام إلحاحه تركه في النهاية يذهب، لكن برفقة عجول الذي يعرف الجهة جيدا.

الرجلان متشائمان. وربما كانا ليتشاءما أكثر، لو علما بأن الغابة تعجّ فعلا بالجنود الفرنسيين. ولم يتوقف عباس وهو يسير، عن جَلد نفسه: "إنهم شباب بدون خبرة، لم يكن عليّ تركُهم بمفردهم." وحاول عجول تهدئته. وفاجأهم الليل أسفل "كاف بويدمامن"، الواقع شمال جنيّن، على اليسار، عند طرف الغابة التي يسهل التنبؤ بكثافتها ووعورة النفاذ إليها. وفجأة أضاءت ثلاثة صواريخ حمراء الظلام بفاصل قصير. فوشوش عباس: "نذير شؤم!" وبعد لحظات قصيرة، زعزع طوفان من قذائف الهاون، ورشّات الأسلحة الثقيلة، الأشجار والأرض. نظر عجول إلى ساعته. إنها الثامنة. وارتمى الرجلان أرضا، وزحفا نحو المأمن فوق الثلج ذي الصرير. تقدّما ببطء، وكان عجول في المقدمة في حرج، وريح شديد غاضب يكاد يقطّعهما، وقد جمّد لباسهما المبلل.

أحسّ عجول بطرق قريب، فتوقف. لقد تعثر أربعة رجال بجسمه. فانقلب على جانبه. لقد عرفهم عند نهوضه. عباس أيضا عرفهم. وراح يطرح عليهم السؤال تلو الآخر؛ لقد كسر الأربعة الحصار الفرنسي، ورووا ما حدث. اقترح عجول الكفّ عن التقدم. فاختاروا صخرة واختبؤوا تحتها. كان عباس يستشيط غضبا لعجزه عن دخول المعترك. كان الليل طويلا. وفي الصباح هجر الفرنسيون الناحية. واغتنم الفارون الأربعة وعباس وعجول، الفرصة للتقدم إلى الأمام داخل الغابة، ليكتشفوا جثث أربعة محاربين، بينهم صبايحي، فيدفنوهم على عجل. أبعد قليلا، وجدوا ثلاثة مجاهدين. هؤلاء كانوا أحياء. وإلى الأعمق داخل الغابة، تعرّفوا على ثلاث جثث أخرى ودفنوها.

تعداد مرعب

أجرى عباس التعداد المرعب: "من أصل سبعين مجاهدا، قُتِل سبعة، وبقي سبعة آخرون أحياء. فأين البقية؟" كان متأثرا كما لو أنه فقد أبناء صلبه. وبعد فترة، لم يستطع إخفاء غضبه أمام سكان جنيّن ولقليعة. "لقد حصلت فرنسا على معلومات. ثمة وُشاة وليسوا بالبعيدين." قال عجول: "ربما كانت طائرة"، فألقى إليه عباس بنظرة صاعقة. ليس ثمة شك بالنسبة إليه، لا يمكن أن يكون ذلك إلا من عمل مدنيٍّ واشٍ. وبإلحاح، طلب أن يُعطىَ كيس دقيق، مُقتَطعا من مخزون الاحتياط وبغلا من أجل التنقل حتى الحارة. ينغلق المدنيون على أنفسهم ولكنهم يطيعون. بقي عجول مطرقا. إن السراحنة أهل عشيرته، والشُّرفة حلفاءهم التقليديين، ينتظرون منه تصرفا، أما هو، فيعرف طبع عباس العنيف!

قطرة من دم أحد المجاهدين في نظر عباس، تساوي لترات من الدم المدني. إنه لا يقبل الوشاية، ولا أن يضطر المجاهدون إلى سرقة طعامهم. ولم يَخِفّ غضبُه أمام مصطفى. فقال له مصطفى: "اسمعني يا عباس! لا يحق لنا أبدا أخذ ملك الغير عنوة. وإلا، فلا فرق بيننا وبين الاستعمار. ينبغي إما تَلقّيه عن طيب خاطر، وإلا شراؤه." "نعم ولكن بأي مال؟ ثم يا سي مصطفى، أؤكد لك أن فرنسا إذا استطاعت الوصول حتى هنا، فإنما وقع ذلك بعد وشاية." وابتسم مصطفى والعياء يبدو عليه: "إذا بسط فقير برنسه لك لتشريفك، فاحذر ألا تجلس وسطه تماما. أكرر لك أن السكان ليسوا مجبرين على إطعامنا. فما أخذتَه اليوم قد يساوي مؤونة كاملة أو جزءا منها، جمعها أناس فقراء بعناء."

بعد يومين من معركة راس طبابوش، لم يكفّ بيشة جودي المسخّر على "الرونيو"، عن إدارة ذراع الآلة. وعندما يعتب ذراعاه، يستلقي على ظهره ويديرها بقدمه. وفي المساء كان مسرورا جدا، لمرافقة مصطفى وعجول إلى "تابرقينت" (جنيّن). أراد مصطفى أخذ فكرة أفضل عن المعركة، واستخلاص التعاليم منها للمستقبل. أراه عجول قبور المجاهدين الشهداء، وحُفَر القذائف التي ابتدأت تمتلئ بالثلج الموحل، والآثار العديدة التي خلفتها عجلات عربات العدوّ وسلاسلها.

في اليوم الموالي، عند مغادرة "تابرقينت"، مرت طائرة ضخمة في الأجواء. ومثل المجنون، انطلق بيشة نحوها، ثم توقف فجأة ليطلق عيارين أو ثلاثة باتجاهها، وعاود ركضه الجنوني، وعيناه في السماء. وتابع الطائرة على هذا النحو لكيلومترين أو ثلاثة، غير منتبه حتى، إلى أنّ مصطفى وعجول قد انطلقا في أعقابه. وما إن توقف ثانية ليطلق النار، حتى ارتمى مصطفى عليه وهو يصيح: "فوضوي، فوضوي! ستقتلنا بجنونك هذا ! وانتزع من يديه السلاح، ثم صفعه وأسقطه أرضا. بقي بيشة الذي احتبست أنفاسه جالسا، ينظر إليه دون حراك، وعيناه غائرتان عجبا. وكرر مصطفى: "أقسم لك أنني سأقتلك!" ثم نظر إليه مليا ورفعه من تحت إبطيه، ومسح الثلج من على ظهره.

في اليوم الرابع تم العثور على المجاهدين الذين كانوا في عداد المفقودين. خمسة منهم في ناحية وادي سوف، أما ما يخص الخمسين الآخرين، فعُثر عليهم في قصر أولاد عيسى، يكادون يهلكون جوعا، مجبرين على مضغ لحاء الأشجار، للبقاء على قيد الحياة. لم يُخفِ عباس فرحته، وابتسم. فهو عندما يبتهج يبتسم، وحينها يمكنك أن تلمح نصف نابه العلوي. أعلن مصطفى محاولا كبت ضحكه: "لم يخطئ من قال أن الخوف يمنح أجنحة. فأن تجد نفسك في وادي

سوف، ليس بالأمر الهين!" ارتسمت على شفاه شيحاني وعجول ضحكة مكتومة. أما عباس، فقطّب حاجبيه: إنه يعتبر أن المجاهد كائن أقدس، من أن يكون محل تهكُّم، حتى أثناء المزاح.

دائما خلال شهر ديسمبر، تلقى شيحاني آلات راقنة. فنَعِم بها، وراح يكتب بالعربية والفرنسية، مناشير ورسائل[1] وأوامر شهرية، وكذا بيان القواعد الأساسية لحرب العصابات في دفاتر فردية موجهة إلى قادة الأفواج.

وقد نوى إرسال تعازي إلى عائلات المجاهدين الذين استُشهدوا في المعارك، حتى أنه بدأ يشكل نواة أرشيف.

ما يزال مصطفى يكظم غيظه. فتحرُّك أعوان الاتصال ليس سريعا، بينما هو يريد معرفة كل شيء. صحيح أن الظرف سيء بصورة خاصة، ولكن ذلك ليس سببا كافيا. على أية حال، لقد سمح له ذلك، بإجراء نقاشات مطولة مع شيحاني لمحاولة تحديد مدوّنة سلوك المجاهد. إذ صار من الضروري فعلا رسم خطوط تنظيم هيكلي للثورة، بعد أن أحصيَ قرابة الثلاثمائة مقاوم أو أكثر. أولا، ما هي القواعد التي ينبغي ألا يخرقها المجاهد، إن لم يكن يريد التعرض لعقوبة الإعدام؟ عليه ألا يعصي الأوامر أو يُحرِّفها. عليه ألا يتمرد ضد السلطة، عليه ألا يقوم بإنشاء مجموعات مسلحة خارج جيش التحرير الوطني أو المشاركة فيها. عليه ألا يضيع سلاحه. وأخيرا، لا يحق له أن يقيم علاقات جنسية، إلا إذا كان متزوجا.

أما السرقة، ومحاولة الاتصال بمسؤول في الإدارة،[2] والزيارات العائلية غير المأذون بها، فتُعتبر أخطاء أقل جسامة، يعاقب عليها

---

1) الرسائل هي إما للتهنئة على المساعدة المقدمة للثورة، وإما للتهديد بسبب نشاطات مضادة للثورة.
2) الإدارة: هي الإدارة المركزية للثورة

بالحبس في ملجأ لفترات زمنية متفاوتة المدة. كما لا يحق للمجاهد أن يحمل في حوزته وثائق من شأنها التمكين من تعرف العدوّ عليه، أو صورا أو مالا. رخصة المرور التي يسلمه إياها المسؤول، إجبارية في إطار المهمة أو الزيارة العائلية. لا وجود للرتب. فالقادة القليلو العدد، هم في الغالب أعضاء «CRUA». واثنان من بينهم، بلقاسم قرين وحسين برحايل، فهما لصّيْ شرف سابقين.

في مقر قيادة الحارة، يسود الانطباع أحيانا، بأن السلطة ثنائية الرأس، بين مصطفى وشيحاني، لتألق هذا الأخير بفاعليته وذكائه. حتى أن مصطفى يبدو مشجعا له على ممارسة الزعامة.

تمر الأيام بطيئة في برد الشتاء. طلب مصطفى من شيحاني استدعاء قادة الأفواج ليوم 23 ديسمبر في بوغرزال. جدول الأعمال: تقييم الوضع العسكري، مشاكل التموين، تنظيم أعوان الاتصال.

ولأنه ورث ذلك من ماضيه كمقاوم قديم، فإن مصطفى يحب أن تحضّر الاجتماعات مسبقا. إلا أن أمله هذه المرة خاب.

23 ديسمبر. في الصباح الباكر، غادر مصطفى، وشيحاني، ومدّور عزوي، وبيشة جودي مقر قيادة الحارة. وكسرب فراشات فزعة، تساقط عليهم ثلج صاخب. سفوح الجبال وقممها، البنفسجية عادة، صارت بيضاء. وعلى مقربة، وكأنها في متناول الكفّ. ويغوص جبليْ الإشمول والشلية برأسيهما تحت حفنة غيوم. قبل ذلك بأيام، كان شيحاني قد طلب من عجول، الذي لديه معرفة تامة بالميدان، أداء دور عون الاتصال، والذهاب لإبلاغ قادة الأفواج بانعقاد الاجتماع.

وذهب عجول رفقة عباس لغرور، بيد أنّه لم يفلح في الاتصال إلا بعمار معاش، إذ أن جميع المسالك كانت مسدودة بالثلوج. ولم ينجح الرجال الثلاثة (بفضل عجول بوجه خاص) إلا في صبيحة يوم 24

ديسمبر في بلوغ بوغرزال، الواقعة قبالة تيفلفل، على قمة ذروة جبل أحمر خدّو.

كان مصطفى قد قضى بها ليلة مع رفاقه. كان هذا في غرفة رطبة جدرانها من طوب [1]. الرجال متجمدون من البرد. أوقد مصطفى نارا بمِشقّة. كان الماء يَنِزُّ من حجارة المدفأة، ومن الخشب المُبلّل الذي قطعه بيشة، يصعد دخان حادّ، لا يكاد يفلت من ثقوب السقف، أو النوافذ المثلثة الصغيرة المحفورة في الجدران. "والآخرون، أيتبعونكم؟" "كلا يا سي مصطفى، لم نستطع العبور. تلزمنا لذلك طائرة مروحية." أجاب عجول. فردّ مصطفى في جدية كبيرة: "إن كنتَ تحسن قيادتها، فسنأخذ واحدة من أريس". في الظهيرة ذبح بيشة جَدْيًا وسلخه في سرعة فائقة، وأعدّ وجبة خشنة، لم يتحملها شيحاني، الذي لم تتعوّد معدته الحضرية الهشة، على النظام الغذائي الجبلي القاسي.

وقضى وقتا طويلا في مرحاض الميدان وأرهقه ذلك. فأعطوه مسحوق "العرعار" [2] ولكن كما لو أنه تناول "التسلغة" [3]. فقد تفاقم الإسهال وأفرغه من كل طاقته.

باستثناء مصطفى وشيحاني، يتولى كل من الرجال الخمسة الآخرون دوره في الحراسة. كان من نصيب بيشة الربع الأخير، وهو الأصعب. وقبل الفجر بفترة، نزل حتى النبع، وملأ الصفائح السبع الفردية ماءً، وصفّها جنب الحائط. فلا غنى عنها لوضوء الصبح. وعندما انتهى من جيئته وذهابه، سمع حركة، فالتفت، ليجد صفيحته الخاصة بين يدي مدّور عزوي. واستبد به غضب مُريع: "لِمَ تستعمل

---

1. الطوب: لَبِنٌ من تراب مجفف.
2. العرعار: هو العرعر، شجر يشبه السرو لا ساق له، وينبت في الجبال.
3. التسلغة: هو السنا أو السنى، صنف جنبة، تستعمل ثماره ضد الإمساك.

ديسمبر في بلوغ بوغرزال، الواقعة قبالة تيفلفل، على قمة ذروة جبل أحمر خدّو.

كان مصطفى قد قضى بها ليلة مع رفاقه. كان هذا في غرفة رطبة جدرانها من طوب [1]. الرجال متجمدون من البرد. أوقد مصطفى نارا بِمَشقّة. كان الماء يَنِزُّ من حجارة المدفأة، ومن الخشب المُبلّل الذي قطعه بيشة، يصعد دخان حادّ، لا يكاد يفلت من ثقوب السقف، أو النوافذ المثلثة الصغيرة المحفورة في الجدران. "والآخرون، أيتبعونكم؟" "كلا يا سي مصطفى، لم نستطع العبور. تلزمنا لذلك طائرة مروحية." أجاب عجول. فردّ مصطفى في جدية كبيرة: "إن كنتَ تحسن قيادتها، فسنأخذ واحدة من أريس". في الظهيرة ذبح بيشة جَدْيًا وسلخه في سرعة فائقة، وأعدّ وجبة خشنة، لم يتحملها شيحاني، الذي لم تتعوّد معدته الحضرية الهشة، على النظام الغذائي الجبلي القاسي.

وقضى وقتا طويلا في مرحاض الميدان وأرهقه ذلك. فأعطوه مسحوق "العرعار" [2] ولكن كما لو أنه تناول "التسلغة" [3]. فقد تفاقم الإسهال وأفرغه من كل طاقته.

باستثناء مصطفى وشيحاني، يتولى كل من الرجال الخمسة الآخرون دوره في الحراسة. كان من نصيب بيشة الربع الأخير، وهو الأصعب. وقبل الفجر بفترة، نزل حتى النبع، وملأ الصفائح السبع الفردية ماءً، وصفّها جنب الحائط. فلا غنى عنها لوضوء الصبح. وعندما انتهى من جيئته وذهابه، سمع حركة، فالتفت، ليجد صفيحته الخاصة بين يدي مدّور عزوي. واستبد به غضب مُريع: "لِمَ تستعمل

---

1) الطوب: لَبِنٌ من تراب مجفف.

2) العرعار: هو العرعر، شجر يشبه السرو لا ساق له، وينبت في الجبال.

3) التسلغة: هو السنا أو السنى، صنف جنبة، تستعمل ثماره ضد الإمساك.

صفيحتي؟ ثم منذ متى أنت تصلي؟ فلطالما عرفتك كافرا." فردّ عليه مدّور بالنبرة نفسها، فانتزع منه بيشة الصفيحة الفارغة، واتجه نحو النبع، وإذا به يرى في الصقيع الفضي للنهار الطالع، رتلا من جنود العدّو، يصعدون في صمت نحو المنزل.

نزع تأمين بندقيته "الغاراند" ووضعها على كتفه، ثم عدل عن رأيه: "إذا أنا أطلقتُ النار، فسيهرب مصطفى نحو الأسفل وسيقع بين أيديهم." فعاد مسرعا أدراجه، وأيقظ في هدوء مصطفى وعجول النائمين: "الفرنسيون !" "أين؟ أأنت متأكد؟" مصطفى ينهض ويسأل في وقت واحد. يغادر هو وعجول الملجأ مثل قذيفتين، يتبعهما عباس. على بعد بضع عشرات الأمتار، توقف الرجال الثلاثة أمام مرتفع. يلحق بهم على الفور عمار معاش ومدور عزوي. ثم وصل بيشة : "أين مسعود؟"[1] سأل مصطفى، فأجابه بيشة: "وما أدراني أنا، لمَ لم يأتِ هذا الملعون؟" قام مصطفى. كان يريد العودة نحو المنزل. فاعترض طريقه عجول: " لا يا سي مصطفى، أنا من سيذهب إليه." كان عجول يعلم تماما ما سيحدث. فاعترض بيشة سبيله: "لا يا سي عجول، بل أنا من سيذهب ليأتيكم باللعين."

نزل بيشة المنحدر الثلجي مسرعا، فكان ينزلق عليه أكثر مما كان يركض. وداخل الغرفة، يجد شيحاني في حالة تخشُّبٍ تام، غير واعٍ إطلاقا بالوضع. فدفعه بقوة، ثم صرخ فيه وضربه وهدده بسلاحه. لا شيء يفيد. عند ذاك، أخذه مثل كيس، ووضعه على ظهره،[2] وبكل جسارة، انطلق أمام الفرنسيين الذين بقوا دون ردّ فعل. وما إن بلغ

---

1) مسعود هو الاسم الحربي لشيحاني

2) لحسن حظ بيشة، فإن شيحاني النحيف أصلا– وقد أنحفه إسهالُه الآن أكثر– ليس بثقيل الوزن.

المرتفع، حتى أفرغ عجول ومصطفى بعض الطلقات، لصدّ تقدُّم الفرنسيين، الذين ردّوا بطلقات الرشاشات وقذائف مدفع 75.

كان الثلج يتساقط بكثافة. ونجح الفارون السبعة في بلوغ مقر قيادة الحارة. وتهكّم مدور على فقدان فراش مصطفى المطاطي: "سي مصطفى، لقد أخذوا منك بساط الريح، وكان ما يزال دافئا!"، ثم يعود إلى خصامه مع بيشة: "بفضلي أنا رأيتَ الفرنسيين، تصور قليلا. بفضل بركة أجدادي، فنحن تحت حمايتهم." ويثبت بيشة على رأيه: "أنا أقولها: أنت كافر وستظل كافرا!" وحوّل مصطفى الخصومة إلى مهزلة كبيرة.

حالُ شيحاني سيئة. فعلى وجهه الذي خشّبه البرد، وحدهما عيناه احتفظتا ببعض الحياة. شعر مصطفى بأنه مريض، إلى حدّ لن يتحمل معه السفر إلى المشرق. وعندئذ قرر الذهاب بنفسه.

الأيام العجاف

في نهاية شهر ديسمبر هذا، بعد بداية الثورة بأقل من ستين يوما يدرس مصطفى الوضع . من بين الرجال الثلاثمائة والخمسين الذين التحقوا بجبهة القتال، ارتدّ عشرة وعادوا إلى بيوتهم، وسقط ثلاثون في ميدان المعركة. بقي ثلاثمائة وعشرة مجاهدين (دون حساب القيادة)، موزعين على نحو عشرين فوجا. تقدّم كثير من المتطوعين، ولكنهم رُدّوا، إما لنقص الأسلحة، أو لأسباب أمنية. والواقع أن مشكلة نقص الأسلحة هي المعضلة التي طالما اصطدم بها. فالتعليمات المطبوعة توصي المجاهدين بالفعل، بأن يجعلوا من استرداد الأسلحة أولوية الأولويات. وقد بقي ذلك حتى الآن مجرد أمنية، وهو لا يشعر

بأن من حقه، مطالبة رجاله المعزولين عن العالم بالمزيد، هؤلاء الذين لم يعد لهم من نصيب سوى الموت والبؤس.

يُقِرّ مصطفى بأن جيش التحرير لا يملك حظ الـ "فييت منه"، الذي تمكّن من التّموُّن مباشرة لدى قوة عسكرية صديقة والبلدان التي بإمكانها المساعدة، مثل تونس والمغرب، ما تزال تحت الهيمنة الفرنسية. أما ليبيا ومصر، فبعيدتان.

تعوّد مصطفى على إخفاء حيرته. وهو غالبا ما يضحك أمام المصاعب، أو يتخذ نبرة ساخرة. فعندما أراه شيحاني في حدود الرابع والعشرين من نوفمبر 1954، مناشير ألقت بها الطائرات الفرنسية، مكتوبا عليها أن على السكان التجمع في نواح آمنة، حيث أن إطلاق النار خارجها مأذون به، وهو يقول له: "إنهم يريدون عزلنا!"، أجابه مصطفى: "نعم، وماذا بعد؟ هذا لا يغير من الأمر شيئا، أليس كذلك؟ فلطالما كنا معزولين. تذكّر: لقد كنا لوحدنا ضد النهج الإصلاحي للمركزيين والمصاليين. ونحن الآن نتحمل وحدنا ضغط فرنسا."

في 18 جانفي 1955 قرر الفرنسيون توجيه ضربة كبيرة وإظهار قوتهم. شارك نحو ستة آلاف جندي في عملية تمشيط في نواح أريس الجنوبية. وإضافة إلى المظليين، كانت القوات تتضمن "صبايحية" و"قومية" وقناصين ودركا، وقوى الأمن الداخلي، وحتى أعوان شرطة تحديد الهوية القضائية، لتبرير القصة الخيالية، ألا وهي إحلال السلام في المقاطعات الفرنسية. وتمّ قصف جبليْ أحمر خدّو وتاكتيوت، وألقت عشرات صفائح النابالم برشّاتها الحارقة على أشجار يفوق عمرها المائة سنة.

مشهد مؤسف ومدهش. فمن مكان "صراع الحمّام" الذي لجؤوا إليه، والذي يقع على بعد خمسين كيلومترا شرق مشونش ، شاهد المحاربون

فعدة الدخان الهائلة، واحمرار الشرر في الغابات البنفسجية، وتحرُّك القوات، التي تدعمها المجنزرات ذات السلاسل، وهي تمشّط الجهة المقصوفة، انطلاقا من مشونش وأوماش وسيدي المصمودي وتكوت. فقال مصطفى: "عملية كهذه تُكلِّف فرنسا الكثير!"

وبرغم الحصار وسوء الأحوال الجوية، تمكّن اتصالٌ من العبور، وأخبر مصطفى أن عشرة مظليين على الأقل، بينهم ضابطان، قد لقوا حتفهم في كمين بوادي طاقا.

بعد بضعة أيام، في 22 جانفي، أعادت فرنسا الكَرّة، شمال غرب بسكرة هذه المرة. فقد مشّط أكثرُ من أربعة آلاف جندي، الجهةَ الواقعة بين جنيّن وعين زعطوط وحتى جبل بوس.

كان مفعول "الشِّباك" في التمشيطين مُخيِّبا، إن لم يكن فاشلا تماما. فقد أراد الفرنسيون أوّلا، تأكيد حضورهم في الأوراس، واستعملوا لذلك وسائل ضخمة، أكثر استعراضية وصخبا، منها فعّالة، على الصعيد العسكري المحض. ذلك أنه كان لدى المجاهدين، بحكم قلة عددهم، الوقت الكافي للانتشار. وفي الشمال الشرقي وبعيدا عن إشمول، قُتِل مظليٌّ على الأقل أثناء اشتباك.

وصل قادة الأفواج الذين تم إبلاغهم أخيرا، إلى الحارة مساء يوم 28 جانفي. وقد تحدثوا بالإجماع عن الجوع والبؤس ونقص الذخيرة. "إننا صائمون يا سي مصطفى، صياما بدون إفطار!" إن سماع هؤلاء الجبليين الخِشان، يتحدثون بحياء عن نقص الطعام يبيّن درجة خطورة المشكلة. فقال لهم مصطفى مُذكِّرا: "لقد ضحيتم بأنفسكم من أجل السلام، وعن رضى. ليس ثمة تضحيةٌ أنبل من هذه؛ إن الاستقلال لا يوهب، إنه يُفتكّ بالكفاح في كل الأوقات. وسيكون التاريخ شاهدا."

أعمدة الدخان الهائلة، واحمرار الشرر في الغابات البنفسجية، وتحرُّك القوات، التي تدعمها المجنزرات ذات السلاسل، وهي تمشّط الجهة المقصوفة، انطلاقا من مشونش وأوماش وسيدي المصمودي وتكوت. فقال مصطفى: "عملية كهذه تُكلِّف فرنسا الكثير!"

وبرغم الحصار وسوء الأحوال الجوية، تمكّن اتصالٌ من العبور، وأخبر مصطفى أن عشرة مظليين على الأقل، بينهم ضابطان، قد لقوا حتفهم في كمين بوادي طاقا.

بعد بضعة أيام، في 22 جانفي، أعادت فرنسا الكَرّة، شمال غرب بسكرة هذه المرة. فقد مشّط أكثرُ من أربعة آلاف جندي، الجهةَ الواقعة بين جنيّن وعين زعطوط وحتى جبل بوس.

كان مفعول "الشِّباك" في التمشيطين مُخيِّبا، إن لم يكن فاشلا تماما. فقد أراد الفرنسيون أوّلا، تأكيد حضورهم في الأوراس، واستعملوا لذلك وسائل ضخمة، أكثر استعراضية وصخبا، منها فعّالة، على الصعيد العسكري المحض. ذلك أنه كان لدى المجاهدين، بحكم قلة عددهم، الوقت الكافي للانتشار. وفي الشمال الشرقي وبعيدا عن إشمول، قُتِل مظليٌّ على الأقل أثناء اشتباك.

وصل قادة الأفواج الذين تم إبلاغهم أخيرا، إلى الحارة مساء يوم 28 جانفي. وقد تحدثوا بالإجماع عن الجوع والبؤس ونقص الذخيرة. "إننا صائمون يا سي مصطفى، صياما بدون إفطار!" إن سماع هؤلاء الجبليين الخِشان، يتحدثون بحياء عن نقص الطعام يبيّن درجة خطورة المشكلة. فقال لهم مصطفى مُذكِّرا: "لقد ضحيتم بأنفسكم من أجل السلام، وعن رضى. ليس ثمة تضحيةٌ أنبل من هذه؛ إن الاستقلال لا يوهب، إنه يُفتكّ بالكفاح في كل الأوقات. وسيكون التاريخ شاهدا."

وأضاءت كلمة الاستقلال السحريةُ عيونهم. لم يتكلم شيحاني الذي كان ما يزال مريضا. وواصل مصطفى: "إننا نتحمل عبء الحرب بمفردنا، لأنها حربٌ حقا يا أولاد. لقد رأيتم أحمر خدّو يرتعش ويحترق تحت القنابل. إن فرنسا لا تمزح. وينبغي ألا نقلّل أبدا من شأنها. فهي تملك المدفعية والطيران وجميع الوسائل. أما نحن، فنملك الإيمان. وبالإيمان والسلاح، سننتصر بإذن الله."

ثم سكت وراح ينظر إليهم مبتسما: "الأسلحة، سأذهب لجلبها من المشرق." لم يكادوا يفهمون جيدا في البداية، ثم قالوا: "كلا، لا يحق لك تركنا الآن." "ليس هذا هو الوقت المناسب بالضرورة!" "الأسلحة، سنجدها في ميادين المعارك." كان كل واحد يحتج بطريقته، في فوضى غير اعتيادية. كان مصطفى يضحك. ثم شرح لهم أن لديه موعدا مع الوفد الخارجي للثورة.

في الخارج، عبر الباب المفتوح، كانوا يرون الثلوج المرحة تتطاير بين الأشجار، كما يفعل زغب الطير في نزوة. كان الجوع يضاعف من الإحساس بالبرد. ليس ثمة شيء يؤكل. والخمسة عشر ألفا، التي كانت تمثل الذخيرة الحربية، قد تم إنفاقها منذ مدة. طوى علي بوستة قلنسوة "قشابيته" على رأسه، وذهب خارجا باتجاه سيدي علي.

بعد أقل من ساعة، عاد وهو يحمل كيسا، نصف مملوء بدقيق خشن رمادي اللون، تفوح منه رائحة التعفن. فعجنه كما هو، وصنع منه نحو عشرين رغيفا مسطّحا، طهاها، أو في الواقع أحرقها، مباشرة على نار من حطب. ثم قطعها إلى فتات، في قصعة خشبية تدعى "التربوت"، وصبّ عليها كثيرا من الزبدة المالحة الذائبة، دقّ فوقها فلفلا أحمر مجففا. جمع مصطفى ممازحا أعوادا، ووزعها عليهم جميعا، قائلا بين الحزن والسخرية: "هي ذي شوكاتكم! تذكّروا يا أولاد! ومن سيعيش سيروي."

واستُؤنف الاجتماع بعد الغداء. لم يقل شيحاني شيئا يُذكر، فقد أعياه الإسهال. وكرر مدور عزوي لازمته: "لا يحق لك تركنا يا سي مصطفى." ويلحّ مصطفى: "إن الثورة أشبه بالشجرة. وقد تجذّرت." ويرفع مسعود بن عيسى يده: "سي مصطفى، أنبّهك إلى أنني لن أتولى بعد الآن تموين كيمل." فقد كان كُلِّف قبل أسابيع بجمع ونقل المواد الغذائية القليلة المرسلة من أريس. أخضع الفرنسيون المدينة الآن إلى حصار صارم، مجفّفين بذلك مورد التموين الوحيد. ويحتج عجول: "أتسمع يا سي مصطفى!" في ما يشبه مطالبته بتحمل مسؤولياته. ولكن مصطفى يراوغ. فهو لا يحمل محمل الجدّ هذا الحقد المتصلب والعميق، الذي يسمم العلاقات بين بن عيسى وعجول.

ينظر بن عيسى الآن بازدراء واضح إلى عجول. "لديك سلاح مثل الجميع، فاذهب واجلب بنفسك تموينك!" يحافظ عجول، التلميذ السابق لابن باديس، على هدوئه. أما مصطفى، فمغتاظ: "المسألة منتهية، وعلى أية حال، فلم يعد المشكل مطروحا، إذ لا وجود لتموين في أي مكان!"

تشتهر ناحية كيمل التي يقودها عجول، بفقرها الشديد : إن لم تتلق مساعدة غذائية، فهو الاختناق على المدى القصير.

في ساعة متأخرة من هذه الليلة نفسها، انعزل مصطفى في الوادي رفقة عجول وعباس. وأخبرهم أن شيحاني مكلف بالقيادة بالوكالة حتى عودته. وأوصاهم بطاعته ومساعدته "فهو عنصر شاب وشجاع". ووافق الرجلان عن طيب خاطر على اقتراحه، لأن مصطفى بأمره إياهما بمساعدة شيحاني، إنما يُقِرّ صراحة – هذا يخص عجول بوجه خاص – بأنهما أكثر خبرة، وأنهما سيؤديان في غياب مصطفى، دور الوصيّيْن وحارسيْ المعبد.

في ظهيرة اليوم الموالي، صادق مصطفى على مقترحاته: شيحاني مسؤول عن الإدارة، وعباس وعجول على التوالي النائبان الأول والثاني، مصطفى بوستة ناظر المالية، ومدور عزوي في التموين، ومسعود بلعقون مستشار ثالث.

وكما لو تعاطى منشطا، قام شيحاني من فتوره. وعاد من جديد الرجلَ الحيوي والبليغ، الذي كان قبل مرضه. واختار رفقة عجول الدوريتين، إضافة إلى حراسة مقرَّبة قوامها أربعة رجال، يتعين عليهم مرافقة مصطفى حتى الحدود التونسية. وكان عمرو المستيري رفيقه في السفر، حضّه عجول وعباس على العناية بمصطفى جيدا، لأنه "روح الثورة".

يوم 22 جانفي 1955. نزل مصطفى حتى "راس قدلان" على بعد بضعة كيلومترات من باتنة لمقابلة الحاج لخضر والطاهر النويشي، وأعلن لهما رحيله. بعد العودة إلى الحارة، انعزل مع عباس وقال له: "سأكلفك بأمرين: أولهما، أن يُترك أخي عمر خارج التنظيم تماما، وليبق حيث هو في "الجبل لزرق". والثاني، أنذِر مسعود بن عيسى، أنني لن أتسامح مع العمل التحريضي الذي يقوم به."

سفر مصطفى بن بولعيد نحو المشرق

في يوم 23 جانفي، بعد مقابلة أخيرة مع شيحاني، غادر مصطفى الحارة باتجاه الجنوب الشرقي. التف على "راس فورار"، واجتاز رفقة حرسه نحو ستين كيلومترا، قبل أن يتوقف في خيران حيث المناخ ألطف. هناك، أثارت فضولَه صيحاتٌ آتية من نادٍ للقمار، فدخل ليجد رجالا يتعاطون ألعاب حظ. فتملكه غضب شديد، وهاجم بعنف هؤلاء

الناس الذين يقضون وقتهم في اللعب، بينما وطنهم في حرب. "احلقوا إذن شواربكم! فلا كرامة لكم!"

في اليوم الموالي، خطب في عمال ورشة: " تسري إشاعة بأن الفرنسيين أمدّوكم بمخدّر لتنويم المجاهدين وتسليمهم لهم مقيّدين مكبّلين. أليس هذا عارا؟ وإذا افترضنا أن ذلك صحيح، فمن ستكون لديه الشجاعة في خلط المتوم بطعام المجاهدين؟ على أية حال، هم لن يأكلوا إلا بعدكم. إنها التعليمة الصارمة التي أعطيتهم إياها." لقد كان يعرف جيدا، أنه لا يوجد أي رابط عاطفي، في هذه المرحلة من الكفاح، بين الشعب وجيش التحرير الوطني. فالتعاطف لن يتأسس، إلا في الأسابيع والأشهر المقبلة.

وتستمر الرحلة، دائما باتجاه الجنوب الشرقي. فبعد إيصال عجول، يلتقي مصطفى ومجموعته "القلعة"، عند أبواب النمامشة. وفوجئ بوجود سبعين مجاهدا مسلحين. سألهم: "ماذا تفعلون لتمضية الوقت؟" فنظروا إلى بعضهم البعض مُحرَجين. "لستم تُفيدون في شيء هنا." فقسمهم إلى أنصاف مجموعات من ستة رجال لكل واحدة، وأرسلهم إلى قطاعات "ليانة" وعين البيضاء وسوق أهراس، وفق خط يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تحت أوامر عبد الوهاب عثماني، وغزالي بن عباس، وتيجاني على التوالي. "يجب أن يكون جيش التحرير الوطني موجودا في كل مكان، ولو بأعداد قليلة!"

وقُدِّم له جزائري من أصول قبائلية فارٌّ من الجيش الفرنسي. فحادثه بعض الوقت. ومصطفى كان يستهويه الفارون على الدوام، فهو الدليل بالنسبة إليه، على أن الرسالة الثورية قد باشرت اختراق القوقعة الاستعمارية. فأرسله إلى الشمال القسنطيني برسالة إلى يوسف زيغود، وطلب منه انتظاره بجواب زيغود في "القلعة".

وعهد إلى اتصال آخر، بقائمة مجاهدي مدينة تقرت، ليسلمها إلى قائد قطاع هذه المدينة. وأوصاه بابتلاع الورقة، إذا ما ألقى العدو عليه القبض.

واستقبل عديد المقاومين، وتحادث معهم مطولا، واستمع أكثر وبقي في الليل متيقظا حتى فجر يوم 25 جانفي، منشغلا بتحرير رسالة مطولة إلى شيحاني، الذي تلقاها بعد يومين أي في 27 جانفي. وفي صبيحة يوم 25 جانفي، استأذن من رجال حراسته المقربة، وضرب لهم موعدا بعد شهرين، وواصل رحلته إلى تونس.

الأسبوع الأول من شهر فيفري 1955. لمصطفى وعمرو المستيري رفيق سفر جديد، شاب من "نقرين"، يُفترض به أن يعرف جيدا الجهة الحدودية. فمشوا حثيثا باتجاه "فركان"، وعانوا في اجتياز جهة شبه صحراوية، حيث استقبلهم الرعاة الرحل بطرق متباينة ومختلفة. الإجراء هو نفسه كالعادة: عند رؤية خيمة، يتوقفون على مسافة بعيدة. ثم يقترب الشاب النقريني من الخيمة، ويصيح من بعيد، منذرا بمقدمه: "يا ناس الخيمة، السلام عليكم!" فيخرج رجل للقائه ويجيب: "وعليكم السلام. خيرا إن شاء الله!" "خير يا أخي، خيرا! نحن مسافرون متعبون، أيمكنك استضافتنا تحت جانب من خيمتك؟ نريد أن نُعِدّ قهوة ونرتاح من عناء السفر." يراقبهم الرجل برهة طويلة، بينما يراقبون هم الخيمة المرقّعة، التي تتدلى خيوط حواشيها على الأرض. ثم يجيب:" كلا، سيروا في طريقكم."

فيفعلون ما يقول، سائرين بمشقة على أرض جرداء موحشة، يضيئها أحيانا سراب، لا يلبث أن يتلاشى. وبعد بضعة كيلومترات، يلتقون قطيع إبل وأغنام، عائدة من أحد الشطوط [1] بمفردها دون راعٍ.

---

1) ضرب من الأحواض تقع في النواحي الجافة.

وعلى يسارهم يرون خيمة. فيقترب منها النقريني، ويعلن مقدمه بصياح عالٍ. فيخرج على الأثر منها رجل، يبدو عليه الغضب الشديد، ويصيح: "بأي حق تجرؤ على الاقتراب إلى هذا الحدّ من بيتي؟ ويتقدم نحو الشاب، الذي يتراجع نحو رفاقه. فيقولون له: "اهدأ يا هذا. فنحن قولا بعيدون عن بيتك، ثم إننا صرخنا لنُعلم بقدومنا. وإن نوايانا شريفة." ولكن الرجل لا يريد أن يفهم، ويقترب محتفظا بهيئته التهديدية من مصطفى، الذي يحتدّ بدوره: "أنت، أنصحك بالبقاء حيث أنت."

يتوقف الرجل فجأة. يبدو مترددا. ويصوت أهدأ، يعلمهم أن وفاةً حدثت هذا الصباح في أسرته وأنه يخشى مجيء أناس تحدوهم نوايا سيئة. فلا يُلِحّ مصطفى. ويؤكد له الشاب النقريني، أنهم لم يعودوا بعيدين عن الحدود. ويدرك مصطفى ما يعنيه ذلك. فحين يقول لك جنوبي، إنّ مكانا ما قريب، فينبغي أن تفهم أن عليك قطع عديد الكيلومترات، قبل الوصول إلى مقصدك.

يجرّ الرجال أنفسهم حتى خيمة مهجورة. خرج منها شيخ ذو لحية بيضاء مهيبة. هو الآخر رفض استقبالهم، "لأسباب أمنية". قال: "إنهم يقومون بدوريات طول الوقت في هذا القطاع، وقد يلقون القبض عليكم. فاذهبوا إلى قعر الوادي". فاتبعوا نصيحته، ونزلوا للبقاء تحت شجيرات الوادي، وأعدّوا وعاء قهوة. ثم التحق بهم الشيخ، وتوجه إلى مصطفى: "يا بنيّ، ليس من الحذر في شيء سفرك هكذا." فلم يجبه مصطفى. فقد عرف شيوخا كثيرين مثله قبل الثورة، حينما كان يجوب، باسم لجان بناء المساجد أو ترميمها، جبال الأوراس طولا وعرضا. فقد حدث له غالبا أن استمع إليهم، متكئا على جدار، يحدثونه عن الماضي دون ملل. أضاف الشيخ: "ما تفعله خطير. سينتهي بهم

الأمر إلى القبض عليك". فأجابه مصطفى أخيرا: "عملنا يتطلب ذلك. إنه يحتّم علينا التضحية".

دخل الرجال الثلاثة أخيرا تونس عبر جبل مندرة. وطلع النهار. ركب مصطفى متعبا بغلة مستأجرة. يلزمهم نصف يوم لقطع بعض الكيلومترات المتبقية التي تفصلهم عن "الرديّف"، حيث استقبلهم مقاوم نموشي من التنظيم يقيم بتونس، آواهم لمدة ثلاثة أيام. وعلم مقاومون بمقدم مصطفى، فجاءوا لتحيته والاستعلام عن سير الثورة. وجاء خمسة رجال مسلحين، يعرضون خدماتهم عليه [1]، فطلب منهم مهاجمة بير العاتر، على بعد خمسين كيلومترا إلى الشمال، وانتظاره في جبل العنق حتى نهاية فيفري 1955.

غيّر مصطفى والمستيري ثيابهما، بعد ترك سلاحهما (بندقيات "ستاتي" إيطالية) لدى مضيفهما، واستقلا مصحوبيْن دائما بالشاب النقريني، القطار والحافلة حتى قفصة، حيث أقاموا هنالك ثلاثة أيام. في اليوم الرابع، تاه المستيري في قفصة. هو لا يعرف المدينة، ولم يجد عنوان نقطة الالتقاء. فلم ينتظره رفيقاه، وانتقلا إلى قابس على الساحل. وهنالك، تم كشف وجودهما. [2]

أردى مصطفى الذي احتفظ بسلاحه اليدوي، أحد مساعدي القوات الفرنسية، وفرّ مع رفيقه باتجاه "بن قردان"، على بعد ثلاثين كيلومترا

---

1) أراد التونسيون عندما أوقفوا حريهم ضد فرنسا، نزع سلاح الجزائريين الذين قاتلوا إلى جانبهم. وقد رفض كثيرون تسليم سلاحهم وعادوا إلى الجزائر.

2) في جويلية 1954 تنقل مصطفى إلى القاهرة (مصر) حيث قابل بن بلة. واختصم مع مزغنة، الذي كان ضد اندلاع الثورة. واتفق مع علال الفاسي المغربي، وصالح بن يوسف التونسي، على توحيد الكفاح ضد الاستعمار. وقرر الرجال الثلاثة، إنشاء نقطة تواعد في قابس، في محل بقالة أحد التونسيين لهذا الغرض. وبعد عودته إلى الجزائر، التقى مصطفى زيغود وكريم وديدوش وبشير حجاج، فحدثهم عن نقطة تواعد قابس، المقرر أن تستقبل الأسلحة والعملاء القادمين من المشرق. وتم "بيع" نقطة التواعد إلى المصالح الفرنسية التي انتظرت، هناك في هدوء، وصول أعضاء التنظيم.

قبل الحدود الليبية. وأخطأ لسوء حظه المسلك، فعاد إلى تونس من حيث يظن أنه في ليبيا. ولم يكن عسيرا على رجال المهاري الأعداء، اقتفاء أثره على الرمل، وإلقاء القبض عليه. [1]

في تلك الأثناء، سئم عمرو المستيري الانتظار في ڤفصة. وظل طيلة خمسة وعشرين يوما ينتظر عبثا، أخبارا عن مصطفى. وعلم من أحد التونسيين أنه قد تم إيقافه. فعاد فورا إلى الرديّف، حيث قضى الليل، ثم اجتاز الحدود الجزائرية مرفقا بدليل، عبر جبل العنق هذه المرة. وكان الرجلان يحملان كمية كبيرة من الأدوية، جمعها لجيش التحرير الوطني، مقيمون جزائريون. فمرّا عبر الجرف، ثم نزلا نحو الجنوب باتجاه "ڤنطيس". وهناك أخبرهم مدنيون، بوجود لزهر شريط، وساعي، وبوڤرة، وثلاثتهم محاربون قدماء في المقاومة التونسية.

اتّبع المستيري آثارهم حتى "مڤصبة" التي وصلها فجرا. وبقي هنالك حتى المساء، ولقيهم تحت ضوء القمر الساطع مع مجموعاتهم. تعرّف على شريّط، وتعرّف عليه الآخرون. لقد كانوا يعلمون أنه رفيق مصطفى وكان هذا كافٍ لإذابة الجليد. وعلم المستيري من المدنيين الذين قابلهم في البداية، أن رجال شريّط، وساعي، وبوڤرة قد كان لهم تصرف غير لائق مع السكان. فقسمهم إلى أربع فصائل، وأمدّهم بتعيين مؤقت، في انتظار قرارات الإدارة. وضرب لهم موعدا لشهر مارس 1955، في مڤصبة. وقبل مغادرتهم، أجرى جردا مفصلا بأسلحتهم، ثم شيّعه أربعة رجال حتى "القلعة".

---

1) كان مصطفى الذي تم توقيفه بسجن قصبة قسنطينة، مقيّدا مثل المحكوم عليه بالأشغال. فباشر إضرابا عن الطعام دام سبعة عشر يوما، مُصِرّاً على وجوب معاملته كسجين سياسي. فكان له ذلك، وانتُزِعت قيوده وتم نقله إلى سجن آخر.

مقر قيادة الحارة، آخر جانفي 1955. تلقّى بشير شيحاني الرسالة التي بعث بها له مصطفى التي وجب، ربّما، نعتها بالتقرير. فقرأها أمام عباس لغرور وعجال عجول وعمر بن بولعيد (شقيق مصطفى) ومسعود بلعقون وعلي بن شايبة ومصطفى بوستة وبيشة جودي. كتب مصطفى في هذا التقرير، بأن الوضع في النمامشة حتى الحدود التونسية، ليس بالجيد تماما. إذ يقول: "ثمة جزائريون شاركوا في الكفاح بتونس ضد الاستعمار، إلى جانب إخوانهم التونسيين، قد عادوا بعد تسريحهم. وهم يبثّون الرعب في أوساط السكان. وقد منح كل واحد منهم نفسه، لقب رائد جيش التحرير الطنان، وأخذ يفرض الضرائب على المدنيين، حتى لو تطلّب الأمر، ذبح من لا يدفع، دون رحمة. ثمة خطر تلطيخ صورة جيش التحرير، وارتداد السكان ضدنا. فمن العاجل إذن أن تنتقل إلى هناك، وأن تعيد ترتيب الأمور."

قال عباس لغرور: "أنا جاهز للذهاب والتمركز في ناحية تبسة، والقضاء على هؤلاء الخونة حتى آخرهم." فأجابه شيحاني: "لا، لن تذهب وتعرِّض نفسك وحيدا". وقال عجول: "دعني أذهب معه هناك!".

الثالث فيفري 1955. فكّر شيحاني في الأمر. وجمع قادة الأفواج، وأبلغهم قراره بالتنقل إلى النمامشة، رفقة أعضاء القيادة. وأخبرهم أنه سيعهد بالوكالة إلى مدور عزوي ومصطفى بوستة.

شيحاني في النمامشة

الثالث عشر من فيفري 1955. انطلق شيحاني ومساعدوه، مصحوبين بنحو ثلاثين مجاهدا باتجاه الجنوب الشرقي، نحو "راس فورار". عندما اجتازوا "وادي العرب" وبلغوا جبال النمامشة في "أعالي

الناس"، وقعوا رغم إرادتهم وسط اشتباك بين عناصر من جيش التحرير الوطني وقوات فرنسية. كان عليهم التوقف في "تاونسيت"، جنوب شرق "تبردقة". أمر عباس لغرور بتفرق الفصيلة، ووضع الحراس في أماكنهم، ثم اختبأ متبوعا بشيحاني وعجول داخل منزل مبني بالحجارة. وشرع فورا في حفر ثقوب في الجدار، فتبعه عجول في ذلك، تحت أنظار شيحاني الحائر بعض الشيء.

عندما انتهيا، تقرفص الرجلان أمام الفتحات الغليظة التي أحدثاها للرمي، وأدخلا فوهتيْ بندقيتيهما. ومن أحد التجاويف، رأوا جنودا فرنسيين على بعد نحو خمسين مترا تقريبا، يتنقلون وينادي بعضهم بعضا. فقال شيحاني بصوت خافت: " أرجو ألا يطلق رجالنا النار!" تبادل عباس وعجول نظرة تضمر الكثير من الكلام. واصل الفرنسيون مسيرهم دون رؤية المنزل. وعند منتصف النهار، اختفوا عن أنظارهم. عند الواحدة زوالا، حاول الرجال الثلاثة الخروج. كان الحراس ما يزالون في مراكزهم. أشار أحدهم بيده مطمئنا.

ركض شيحاني ورفيقاه عندها نحو قعر الوادي. فلحق بهم اتصال، أخبرهم بأن جيش التحرير الوطني، قد ألقى القبض على ثمانية جنود فرنسيين، بينهم أربعة ضباط صف. وأضاف الاتصال بكل فخر: "لقد قام رفاقهم بعملية كاملة من أجل العثور عليهم، ولكننا أخفيناهم جيدا!"

وسأل شيحاني: "أين هم؟" "سأقودكم إلى حيث هم".

قادهم الاتصال نحو شعبة هشّة الجنبات. حيث كان ممرّض يعالج السجناء الجرحى، وما إن رأى شيحاني ومساعديه حتى قام مستعدّا. وبعد لحظة تردد، قام المجاهدون الآخرون في وضع استعداد. فردّ شيحاني بتحية بيده. والتفت الممرض نحو الفرنسيين وقال لهم: "هي

ذي قيادة أركان جيش التحرير الوطني." فاقترب شيحاني منهم وسأل عن حالهم في لغتهم. 3* فأجابوه بأنهم في حال جيدة، وأنهم يتلقّون العلاج اللائق. فهزّ شيحاني رأسه. "حسنا، سنعطيكم ثيابا مدنية ونعالا." (1)

بعد يومين، وصل الرجال إلى جبل القلعة، حينما وقع عليهم النبأ: "لقد أُلقِي القبض على مصطفى!" كانت ضربة قوية للثورة. وبدا شيحاني كما لو أن تحديا جديدا يستثيره. "يلزمنا العمل أكثر، أكثر من ذي قبل."

بعد ثلاثة أيام، أي في 20 فيفري 1955، قرر تحويل مقر قيادته إلى القلعة. كانت دواعي اختياره متعددة: القرب من تونس، سكان النمامشة مناوئون عادة لفرنسا، الثراء الاقتصادي لناحية تبسة، خصوصا إذا ما قورنت بناحية كيمل الموبوءة، وأخيرا أهمية التحديات التي تضعها مجموعات النمامشة المسلحة، التي يستنكف قادتُها عن الاعتراف بسلطته.

غير أن مجاهدي الأوراس اعتبروا هذا الخيار فيما بعد بمثابة خيانة.

طيلة عشرين يوما، طاف شيحاني على تنظيم الناحية الشرقية. فاستدعى إلى القلعة جميع قادة تبسة وخنشلة، وقام بمحاسبتهم. وبدأت العقوبات تنزل أحكاما نهائية. الموت لمن أخطؤوا: القتل، الاغتصاب، السطو والتحويل نحو قطاعات أخرى بالنسبة للآخرين، والتعيين في مقر القيادة بالنسبة لبعض المحظوظين. وهلّل عجول وعباس! ولم يتوقف عجول أثناء الاجتماع عن ترديد: "من قَتَل يُقتَل!"

1) أطلق جيش التحرير الوطني سراح السجناء الفرنسيين في 22 ماي 1955.

دعا شيحاني قادة النمامشة، إلى تلاوة القانون كما تم طبعه في الحارة، وهو ينص على أن الموت سيكون العقاب على الجريمة والاغتصاب والعلاقات الجنسية غير المشروعة، وعصيان الأوامر أو تحريفها، وإضاعة السلاح والوشاية والسطو، وتبديد الأملاك الصديقة.

هذه القواعد التي أصبحت الآن أساسية بالنسبة لمجاهدي الأوراس، لم يتقبلها المحاربون النموشيون [1] الذين يظنون في الغالب، أن الحق يوجد على أطراف بنادقهم.

هو ذا ما قاله عجول عن شيحاني: "شيحاني رجل لا صديق له ولا عدو. إنه لا يشعر لا بالحب ولا بالكره. فالفعالية في خدمة الثورة هي كل ما يهمه." عندما قال لي هذه الكلمات، كنا في قلب شتاء سنة 1970، في بيته الفقير في بوعقل بباتنة، ذي الأرضية التي لم تُبلّط حتى، بلونها الأمغر، وقد بقيتُ مشدوها! كنت أنظر إلى عينيه، فكان يتعذر سبرهما وقياسهما. كان عقِبُ سيجارة "الأفراز"، يحترق ببطء بين أطراف أصابعه المبتورة، المصفرّة بالنيكوتين. في ذلك الوقت، كان قد اتّضح لي، بأن شيحاني قد حُكِم عليه بالإعدام لشذوذه الجنسي! ولكنه لم يكن مستعدا للحديث عن ذلك، حيث أن الوقت المناسب لم يحن بعد.

استمر شيحاني إذن، في مطلع شهر مارس من سنة 1955، في تنظيم ناحية النمامشة، حتى الحدود التونسية: فراح يُشكّل أفواج المجاهدين، ويرسلها إلى قطاعات محددة جغرافيا بشكل دقيق، تحت قيادة المستيري وبجاوي وتيجاني وسيدي حني.

لقد وعى جيدا، أمام موقف المدنيين المتذلل، بأن السكان مروّعون. لقد رأى الخوف في نظراتهم. فقرر أن يستدعي إليه متعاطفي تبسة، والشريعة، وبكارية، والماء لبيض، والكويف، وخطب فيهم بما يأتي:

---

1) النموشيون: سكان النمامشة.

" ساعدونا! فأنتم غطاء الثورة وستارها. فنحن إخوتكم وأُمّتنا واحدة. أنشئوا وضاعفوا خلايا دعم جيش التحرير الوطني الذي هو جيشكم." وطلب منهم جمع الأموال والمؤونة والمعلومات. ومرّ التيار.

وفي ظرف بضعة أسابيع، وصلت إلى "القلعة" عدة قناطير من الدقيق والقهوة والسكر والزيت والحليب المُعلّب، وعلب السردين، وباختصار جميع أنواع المؤن، التي سارع إلى إرسالها إلى كيمل. وبدأت الأموال هي الأخرى تتدفق.

كان شيحاني مُشِعًّا. فقد نجح في فرض نفسه بلمسات صغيرة. وكان نفوذه على أعضاء القيادة الآخرين، عجول وعباس، يوفّر له حرية مناورة كبيرة. وبما أنه لم يكن من الأوراس، [1] فقد ظل منيعا على الخصومات القَبَلية. بل لقد ذهب أبعد من ذلك: فقد طلب من المقاومين المدنيين، أن يحثّوا المواطنين على الخروج من حالة الريب التي تتملكهم، وتهيئتهم بواسطة دعاية متواصلة وبإنشاء إدارة ثورية حقيقية، موازية للإدارة الاستعمارية : يجب تشجيع المواطنين، على الكف عن اللجوء إلى النظام القضائي القائم، بدل المجالس الثورية، حتى أن سجلات فُتِحت، لقيد المواليد والوفيات والزيجات. وأوصى بإحراق الدفاتر العائلية، وبطاقات التعريف التي يسلمها الفرنسيون.

ووضع، بموازاة هيكلة المدنيين، شبكة لاستقبال الأسلحة، التي كان يرسلها صالح بن يوسف من تونس. ولتسهيل نقلها في الوقت نفسه مع المؤونة، أنشأ ناحية جديدة في أعالي الناس، تقع إجمالا بين "راس تاجموت" في الجنوب، وجبل "ذراع بكار" في الشمال، بقيادة عبد الوهاب عثماني.

---

1) أصل شيحاني من الخروب، على بعد 18 كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من قسنطينة. وقد نجح – هو المنحدر من أسرة متواضعة الدخل– بعد تضحيات عديدة، في الدراسة حتى المستوى الثانوي بمدرسة قسنطينة الثانوية.

آخر مارس 1955. عاد شيحاني إلى كيمل، وتحديدا إلى الوسطية، وهي بلدة تقع بين جنيّن وتكوت. لقد استدعى هنالك جميع المسؤولين: الطاهر النويشي، حسين برحايل، مسعود بن عيسى، عمر بن بولعيد، عبد الوهاب عثماني، مدور عزوي، مصطفى بوستة، علي بن شايبة، مسعود بلعقون، علي بعزي، محمد بن مسعود، وسيدي حني. ورأس الاجتماع بمساعدة عجول وعباس.

جدول الأعمال: عرض عن إعادة تنظيم ناحية النمامشة، توسيع العمل المسلح باتجاه سطيف، تأطير ناحية بريكة. ولتحرير عرض حال الجلسة، كُلِّف حسين معارفي وصالح حناشي بالأمانة.

كان البرد جليديا. ومثل ساكني الكهوف، كان المجاهدون يتزاحمون داخل المخبأ. لقد صارت ملابسهم التي صلّبها الجليد كبيرة عليهم. كانوا يستمعون للعرض في خشوع، وهم جالسين على التراب أو واقفين، متكئين على الجدران ذات الحجارة الكبيرة العارية.

انتشار حرب العصابات

"لقد انتشرت الثورة. فعمالة قسنطينة التي تضم مجموع الشرق الجزائري، بما في ذلك إقليم الجنوب، ينبغي أن تخضع لتقسيم سياسي وعسكري جديد". لم تَلْقَ هذه الكلمات من شيحاني أيَّ تأثير مباشر على مستمعيه، ولا أيّ صدى. فغيّر الحديث إلى أمر آخر. "نعرف جميعا أن الثورة وُلدت في ثلاث نواح: أريس وعين القصر والنمامشة، برغم وجود مصاليّ قوي. وبعد أربعة أشهر، ماذا نلاحظ؟ امتداد الحرب انطلاقا من هذه المراكز الثلاثة، شمالا حتى سطيف، وشرقا حتى الحدود التونسية. لقد توسعت مناطق المعارك بصورة معتبرة، ولم تعد

المجموعات المسلحة تستطيع مراقبتها. ثمة حلان ممكنان، فإما أن نرفع من عدد المجموعات المسلحة، وهو أمر مستحيل حاليا، لأن الأسلحة تنقصنا، وإما أن نقوم بتقليص القطاعات، لجعلها أكثر قابلية للتسيير."

وواصل: "نحن في مطلع ربيع سنة 1955. ثمة في الإجمال نحو ألف مجاهد بين الأوراس والنمامشة. والمسافات التي على المجموعات قطعها كل ليلة، تزيد غالبا عن الستين كيلومترا. ولتسهيل العبور، فقد قررنا زيادة عدد المخابئ بين مختلف القطاعات. فقد أنشأنا، على سبيل المثال، ناحية أعالي الناس الفاصلة، لتخفيف العبء الذي يثقل كاهل أريس، وملأنا في الوقت نفسه، الفراغ الموجود بين الأوراس والنمامشة. في الإجمال، ستكون أعالي الناس الحبل السُرّي الذي يُمَوِّن مباشرة كيمل وجنوب الأوراس."

في المساء، تم تناول الوجبة سويا على ضوء القناديل ومصابيح الفحم. في كيمل، لم يعد الجيش عالة على السكان، فالمؤونة التي تصل من تبسة وافرة، تكفل حتى المدنيين الخاضعين للحصار الغذائي الفرنسي. ظل عجول متيقظا لكل أمر. وُزِّع الطعام على المقاومين بالدور، الجماعة تلو الأخرى. كان يجلس كل ستة أفراد حول قصعة[1] دشيشة [2] مُسقاة بمرق حارق. وما إن ينتهوا، حتى يتركوا المكان لجماعة أخرى. كانت الخدمة تتم بسرعة، وبصورة جيدة مع عجول، مكيفة مع حياة الشاوية القاسية. وكان الطعام هو نفسه بالنسبة للجميع.

---

1) القصعة هي جفنة كبيرة من خشب.

2) الدشيشة: دقيق قمح.

أعلم مسعود بلعقون خلال الوجبة، شيحاني بالحكم بالإعدام على مجاهد ارتكب اغتصابا. وكان الشيخ مسعود بلعقون، قد عُيِّن عضوا شرفيا في المحكمة العسكرية. أراد شيحاني معرفة القصة كلها 7*. "كل شيء مسجل في الملف – أجابه مسعود بلعقون – لقد ثبت أنه اغتصب ابنة أرملة تعيش بمفردها." "يجب إعطاؤهم شيئا ما، تعويضا أو دية. وبالنسبة للمحكوم عليه، يجب إبلاغ أسرته بموته، دون الدخول في التفاصيل." [1]

في الصباح الموالي، استؤنف النقاش. قال شيحاني: "الأوراس محاصر. لا بد من تمديد عملياتنا حتى سطيف. سيكون ذلك عمل سي الطاهر، وسي عبد الحفيظ، وسي مصطفى." ثم نظر إلى الطاهر العويشي، قائد[2] ناحية باتنة، وعبد الحفيظ طورش، ومصطفى رعايلي، أحد أقرباء مصطفى بن بولعيد. "ستنطلق مجموعة أولى من جبال سريانة باتجاه سطيف، وتنطلق مجموعة ثانية من جبل بوعريف نحو عين مليلة والخروب، ما أمكن ذلك، لفكّ الطوق المضروب على الأوراس.[3] وأخيرا تنطلق مجموعة ثالثة من جبال متليلي، نحو بريكة ومقرة وجبل بوطالب، لإجراء اتصال ببلاد القبائل. [4] إن الربط بنواحي الوطن الأخرى حيوي، وإلا فسنختنق خلال وقت قصير."

في هذا التاريخ كان الأوراس خاضعا لحصار شامل. وكان الفرنسيون يصادرون كل ما يجدون: دقيق، سكّر، قهوة، نقود، حليب،

---

1) أولت الثورة المرأة احتراما ووضعا استثنائيا. فالاغتصاب يعاقب عليه بالإعدام. والزهد في جيش التحرير الوطني مطلق، وأمثلة المساس بحرمة النساء جدّ نادرة.

2) قائد اسمي فقط. فالسلطة الفعلية بين يدي الحاج لخضر.

3) بعد القضاء على مجموعة بلقاسم قرين في لوردام، لم يَعُدْ تعداد جيش التحرير الوطني في ناحية باتنة يتجاوز الستين.

4) طلب مصطفى بن بولعيد قبل رحيله، من شيحاني توجيه رسائل إلى المجاهدين القبائل، لإبلاغهم بأن حصار الأوراس، يجعل من المستحيل إرسال أي أسلحة إلى منطقتهم.

أدوية. وكانوا غالبا ما يتلفون، ما لا يأخذونه. فتخلى الجبليون النادرون، الذين كان لديهم، لحسن الحظ، أقارب في أريس أو باتنة، عن أراضيهم ونزلوا إلى المدينة. أما الآخرون، فإما أنهم يرفضون ترك قطعانهم وبيوتهم، ويتعرضون لأسوأ المخاطر، وإما أن يقرروا صراحة اتّباع المجموعات المسلحة، ومشاطرتها خصاصة مزمنة، تحتدّ من يوم لآخر.

خصص شيحاني اليوم الثالث لتنظيم الاتصالات. فكلف عباس لغرور وعجول، بالتعرف على المسالك الرئيسية والبديلة، التي على أعوان الاتصال سلوكها.[1]

واختتم الاجتماع في الظهيرة، بخطاب كانت أولى الكلمات فيه: "إن أبناء الشعب يلاحظوننا. فعلينا أن نضرب المثل بتضحياتنا."

في سنة 1970، في صيفٍ باتنيٍّ ثقيل ورطب، كنا جالسيْن أنا والشيخ مسعود بلعقون، في محطة بنزين علي بن شايبة. أنهى أمامي بسطَ مشهد من الثورة، ثم أخرج من تحت عمامته، طاقية بيضاء من قماش، وحرّكها بقوة أمام وجهه. "كل رجل يناسبه حيوان، يوجد رجال نمور، ورجال ثعالب، كان شيحاني رجلا أسدا. لقد خلقه الله على صورة الأسد."

كان مستمعو شيحاني مفتونين. "إن الكفاح المسلح هو ردُّنا على الاستعمار. إنها اللغة الوحيدة التي يفهمها. وإذا سألكم أحد: "لماذا جبهة القتال؟ لماذا كل هذه المعاناة؟ فما يكون جوابكم؟ حُبًّا في الوطن، من أجل استقلال الوطن، لوقف الاضطهاد الاستعماري.

---

1) يتم اختيار أعوان الاتصال من بين احتياطي مقاومين متمرسين. وينبغي أن يكونوا قادرين على التوجه ليلا ونهارا، وعلى حفظ الأسرار، وعلى "اشتمام" تغيّر في الجو أو في الحالة النفسية، لدى المجاهدين وقادتهم. فهم مقياس حرارة القيادة.

وستكونون مُحِقّين! وإذا سألكم الشخص نفسه مرة أخرى: أية فائدة تظن أنك ستجنيها لنفسك؟ فما يكون ردُّكم؟ لا فائدة، فأنا لا أتوقع شيئا لنفسي، ولكن كل شيء لوطني. وستكونون مُحِقّين مرة أخرى!" أصبح شيحاني أستاذا في فن البيان.

وكخطيب مفوّه، اغتنم النشوة التي أثارها تحليقه، ليعلن أنه "ابتداء من الآن، فإن قائد الإدارة الجديد هو سي عمر بن بولعيد، شقيق سي مصطفى". وبعد فترة اندهاش، انفجر لغط لا يوصف، لم يكن على الأرجح يتوقعه. وتشكّل على الفور جناحان. فمن جهة، عمار معاش، ومسعود بن عيسى، ومدور عزوي، والطاهر النويشي، وبالطبع عمر بن بولعيد نفسه، فأيّدوا اقتراحه بصيحات عالية. ومن الجهة الأخرى، أغلبية من المناوئين، كانت أصوات الثورة عالية فيها، مثل عباس لغرور، وعجال عجول، وعلي بعزي، وعلي بن شايبة، ومحمد بن مسعود، وعبد الوهاب عثماني، ومسعود بلعقون، ومصطفى بوستة وسيدي حني.

وجاء من اليمين تأكيد: "المسؤولية ليست وراثية! إنها تُستحقّ!" ومن اليسار سؤال مغلف بتهديد: "فليقف ويتحدث صراحة، من يؤاخذ شقيق سي مصطفى في شيء!" وهكذا من ردّ لآخر، حتى أعاد شيحاني فرض النظام، بمساعدة عباس وعجول. ولكن النفوس لم تهدأ مع ذلك: "ليس في نيّتي فرض أي كان! سنعمد إلى إجراء مختلف. من يوافق على إجراء انتخابات؟" وعاد الصخب. ثم قام مسعود بلعقون في غضب شديد: "لا تجرى الانتخابات في زمن الحرب!" وغادر المخبأ، يتبعه مصطفى بوستة. ونهض عباس لغرور بدوره: "أنا أيضا ضد الانتخابات"، وأراد الخروج، فأمسك به عجول وتناول الكلمة: "ينبغي ألا تسيء الظن بنا: ليس لدينا مأخذ على سي عمر. نحن فقط ضد مبدأ

الانتخابات." كان مسعود بلعقون ليقول عن عجول أنه رجل ثعلب، يسقط دائما على قدميه، فهو قادر على التظاهر بالاستكانة، بينما يستعِدّ لهجمته القاتلة.

ولم ينخدع شيحاني. فأمر عجول بإحضار الشيخ بلعقون وبوستة. حينها غادر عجول الاجتماع، وعاد بعد دقائق. "إنهم يرفضون العودة. أما أنا، فأطلب إعفائي من كل مسؤولية!"

فرد عليه شيحاني بنبرة جافة: "ليس لك أن تطلب أي شيء. وستبقى في منصبك." فرضخ عجول، كما قال لي ذلك بنفسه: "لا أريد أن أعصي النظام[1]."

وحين طلبت منه أن يشرح أكثر، أجابني: "أنا مقاوم قديم. وقد تربيت على طاعة أوامر الحزب. والانضباط عندي أولى من كل شعور شخصي."

وطالت الثرثرة لساعات. وقد ارتكب شيحاني أول خطأ تكتيكي. إنه يتأرجح بين آراء متعصبة ومتضاربة، حتى عاد الشيخ مسعود بلعقون بتسوية مفاجئة.[2] "أقترح أن يسمى سي عمر مسؤولا عن الإدارة بصفة شرفية."

حيلة وافق عليها الجميع. فهم عمر ورفاقه أن ذلك يعني التكليف والتشريف معا. وتمسك شيحاني وعجول وبلعقون – في سريرتهما – بالتسمية دون الوظيفة، على أنه "قائد رمزي" فقط.

---

1) النظام: السلطة والحكم بالمعنى الواسع

2) ألحّ مصطفى بن بولعيد قبل سفره على شيحاني ومساعديه، كي يبقى شقيقه عمر خارج التنظيم، وبأن يُحتفظ بالشيخ مسعود بلعقون لـ "بركته".

وتم اللجوء إلى الانتخابات، فتم انتخاب عمر. ولكن معظم القادة تفطنوا إلى أن السلطة الفعلية، ما تزال بين يدي شيحاني، الذي يثير تضولهم الآن. [1]

نحن في أواخر شهر مارس 1955. تم تعديل القيادة على النحو الآتي: عمر بن بولعيد هو القائد السياسي والعسكري لإدارة أوراس النمامشة، ويشير شيحاني نائبه، أما عباس لغرور وعجال عجول، فهما على التوالي النائب العسكري والنائب السياسي. ولترضية مسعود بن عيسى، وتبديد الخلاف بينه وبين عجول في الوقت نفسه، عيّنه شيحاني ناظرا ماليا، مع مدور عزوي كنائب له. [2] أما الشيخ مسعود بلعقون، فقد تمت ترقيته أمينا عاما للإدارة.

وأجرى شيحاني توزيعا جديدا للمهام. فقد تم تكليف علي بن شايبة بالاتصال والاستعلامات، إضافة إلى قطاع أريس الخاص، وتلقى مصطفى بوستة قطاع بسكرة بما فيه الصحراء، وعُيِّن مصطفى رعايلي، قائدا للقطاع المنشأ حديثا في سطيف، كما عُيِّن عبد الحفيظ طورش على قطاع بريكة، ومحمد الشريف بن عكشة في عين التوتة، وعلي بعزي في مشونش، والطاهر النويشي في بوعريف، والحاج لخضر في باتنة، وأخيرا عمار معاش في الشلية. [3]

---

1) لا يمكن القطع بالأسباب التي ادت بشيحاني إلى فرض انتخاب عمر بن بولعيد على رأس الإدارة. فمن المعلوم أنه طالما عمل وعاش في ظل حماية أخيه الأكبر مصطفى بن بولعيد وهيبته. ولعله في غيابه، قد أحس بعدم الأمان في هذا الوسط القاسي والمتكتم، حيث لا صديق له. فبعد ذلك بفترة، عندما اشتدّ أوار الحرب، وفك الجيش الفرنسي شبكات دعم جبهة التحرير الوطني في المدن، التحق عديد سكان المدن بجبهات القتال، وأحسوا بالشعور نفسه من عدم الفهم بل وعدم الأمان، وسط جبليين وفلاحين مختلفين تماما.

2) أصبحت مهمة مسؤول المالية حساسة، لأن ناحية كيمل قد تحولت إلى مخزن مركزي حقيقي منذ أن أصبحت توضع بها المؤن المرسلة من تبسة وخنشلة.

3) يتضمن التقسيم الجديد ستّ نواح (مناطق): أريس، كيمل، القصر، خنشلة، تبسة وسوق أهراس. وقسمت كل ناحية إلى قطاعات. فأريس مثلا تتضمن ثمانية هي: أريس، مشونش، بريكة، بوسعادة، باتنة، سطيف، بوعريف والشلية.

وصل من ليبيا أو من مصر ختم مطاطي مكتوب عليه: جبهة التحرير الوطني، وتحته جيش التحرير الوطني، مع نجمة وهلال في الوسط. سأل الشيخ مسعود بلعقون: "في الختم مكتوب جبهة التحرير الوطني، فوق جيش التحرير الوطني." فكان جواب شيحاني: "ثمة سوء فهم. فجبهة التحرير الوطني هي تحت سلطة جيش التحرير الوطني. ولا نقاش في هذا." [1]

وعن سؤال آخر، أجاب بأنه لا يحق للمجاهدين الاتصال بالمدنيين، إلا في حالتين هما المهمة والزيارة العائلية.

اقترب عباس لغرور– ولا ندري إن كان تحت تأثير أحد ما، أو كان فقط ينفذ تعليمات تركها له مصطفى بن بولعيد، قبل سفره إلى المشرق يوم 2 جانفي 1955 – من عمر وقال له: "أوصيك بالبقاء في الحارة، فليس ضروريا أن تنتقل حتى القلعة." فكان ردّ فعل عمر عنيفا: "لا مجال لبقائي. فحيث تذهب القيادة أذهب." فنصح مسعود بلعقون عندئذ عباس بأخذه معه. وبعد ذلك بفترة، طلب شيحاني نفسُه من عمر، أن يستعد لمرافقته. "الآخرون جميعهم يبقون في كيمل، فثمة أمور كثيرة ينبغي عملها هنا." وأمر عجول بمصادرة بعض البغال، لينقل نحو القلعة الأرشيف والآلات الراقنة. كما كلفه، رفقة عباس، بنصب المعالم في المسالك الجديدة بين كيمل والقلعة.

كيف كان الوضع في مطلع أفريل 1955؟ يؤمّن مسعود بلعقون ومسعود بن عيسى ومدور عزوي المناوبة، في مقر قيادة الحارة، بينما يؤمّنها عمر بن بولعيد وشيحاني وعباس لغرور وعجال عجول في القلعة، بالنمامشة، شرق وادي العرب بالتحديد.

---

1) في سنة 2001، أي بعد ستة وأربعين عاما، ما يزال قول شيحاني صحيحا.

في الأيام الأولى بدا أن كل شيء يسير على ما يرام، وكان عجول يقوم بنفسه بدور الاتصال بين الحارة والقلعة، ناقلا بوفاء أوامر شيحاني وردود مسعود بلعقون. "ولكن مسعود بن عيسى كان شديد الحذر – يقول لي الشيخ بلعقون – بعد ذلك بنحو خمسة عشر عاما. فقد شعرتُ بأنه لم يعد يريد منصب موزع المؤن. لقد كان يكرِّر لي، أن شيحاني قد نصب له فخا. فهو لم يكن يتحمل رؤية عجول مستقرا مع القادة في القلعة. وذات صباح، اختفى."

عندما غادر بن عيسى بدون استئذان مسعود بلعقون، ذهب ليلتحق بعمار معاش في الشلية. ولم يلبث نائبه، مدور عزوي، أن تبعه.

أخبر عجول شيحاني، واقترح عليه فرض عقوبات. فقد قال له: "كل ما تنبأتُ به بشأن بن عيسى قد تأكد. يجب معاقبة هذا العصيان فورا. إن مصداقية الثورة كلها على المحك." ألحّ عباس لغرور، الذي يحقد هو الآخر على عمار معاش، منذ إخلافه موعد أول نوفمبر 1954، كي يعاقب هو الآخر. ولكن شيحاني لا يفصل في الأمر. فقد صرف وقته كله، لتنظيم مقر قيادته الجديد في القلعة، وفي الاتصال بِأُناس تبسة. كما لو لم يعد للأوراس تأثير عليه.

رافقتُ عجول في سنة 1969 إلى سيدي علي، وهي قرية صغيرة من نحو عشر عائلات، شرق أريس. مشيْنا في أزقة وسخة، وسط دجاج خائف ومهذار. مررنا أمام مكتب جديد للمساعدة الطبية المجانية، فرفع ممرض ذراعيه إلى السماء، وصاح في حشد غفير من المرضى، كانوا يسعلون ويرتعشون من الحمى أو البرد: "لا دواء عندي، عودوا إلى منازلكم!". سألتُ الممرض عما يجري، فردّ عليّ أن هناك طبيبا بلغاريا يأتي للفحص مرة واحدة في الشهر. كان المرضى ينظرون إليّ كما

لو كنتُ آتيا من كوكب آخر. فقال لي عجول: "لا شيء تغيّر هنا. فسيدي علي هي الضفة المخفية. دخلنا منزل ابن عمه، وجلسنا على حصائر من الحلفاء، موضوعة على أرض ترابية. كان قرميد السقف الأحمر ظاهرا، إذ لا وجود لسقف. كان لأصواتنا صدى في الغرفة الفارغة والباردة. يشرح لي ابن عمه، أن سيدي علي تتبع دائرة أريس. يأتي أحدهم من الحكومة، مرة كل عام في سيارة الإدارة. ودون أن ينزل من السيارة، يسأل: "هل أعددتم مشروعا؟" ولا ينتظر طويلا: "لم تُعِدّوا؟ إذن فأعدّوا واحدا وسأعود."

ويتناول عجول الحديث: "الناس هنا لا يعرفون كيف يُعِدّون مشروعا، فهم لم يتعوّدوا على اتخاذ قرارات بأنفسهم، بل إنهم ليسوا متفقين فيما بينهم حتى، كل ما يريدونه هو فك العزلة عن قريتهم، بطريق تربطهم بالطريق الولائي، الذي يصل حتى تكوت." وأسأله: "والمجلس الشعبي البلدي من هذا كله؟" "إن رئيس البلدية رجل بسيط، مثل بقية السكان. وقد قالت له الإدارة: "أنتم تريدون طريقا، سنعطيكم ثمانين مليون سنتيم لترميم السدود." فأجاب: "كلا، لا نريد سدودا، ما دمنا في جميع الأحوال، لا نستطيع تسويق محاصيلنا لانعدام الطرق. فدعونا نستعمل الأموال من أجل الطريق."

ورفضت السلطات. وبقي الجميع ينتظر. وبعد بضعة أشهر، قدم مهندسون من باتنة، وأجروا قياسات، ثم شرعوا في الحفر. وبعد سنة من ذلك، حصلت "سيدي علي" على سدّ جميل، مليء بماء أزرق لا يفيد في شيء. حتى أنهم لم يضعوا فيه أسماكا. ثمن السدّ: خمسة وعشرون مليون سنتيم. ويضحك عجول وابن عمه. يدخل طفل صغير بصينية عسل، وقطع فطير رقيق، محروقة أكثر منها مطهوة. فدعاني عجول بابتسامة. "كُل! فأنت على أية حال لن تحصل على شيء آخر."

عند العصر، سلكنا طريق العودة، وسط أشجار عملاقة تنتصب على جانبيْ الطريق، مُخمدة لكل ضجيج. وأسأل عجول: "ما الذي فعلتَه في سجن لامبيز؟ خمس سنوات من العزلة، إنه زمن طويل!" [1] فأجاب: "عدتُ إلى قراءة القرآن فحفظتُه. ولكنني الآن نسيته. و في بعض الأحيان حادثتُ أناسا من المعارضة، ممّن يمكنهم الحديث".

غابة بني ملول كثيفة ومستعصية النفاذ. نجتاز "مدينة" تاركين أريس على الجانب، وننزل الطريق الوطني باتجاه باتنة. قبل وادي طاغا، كان عجول قد أنهى شرحه لسرّ مريم العذراء. وبعيدا عن العفاف، حوّلتُه إلى النبي لوط. فقال: "وأين المشكل؟" فقلت له إنني لا أفهم جيدا معنى السورة. فقال: "انتظر! دعني أتذكّر." وأغمض عينيه، وراح يتلو بسرعة وبصوت منخفض، ثم توقف ورفع يده اليسرى: "هي ذي:

فبعد بسم الله الرحمن الرحيم :

"ولوطا إذ قال لقومه ، يا قوم إنكم لتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أَئِنّكم لتأتون الرّجال شهوة دون النساء ، إن أنتم إلا قوم فاسقون" صدق الله العظيم

"سي عجول، في أية فترة لاحظتَ انحراف شيحاني؟" أطرق طويلا ثم أجابني: "كان ذلك في القلعة، ليلة التاسع من أفريل 1955 [2]. ليلتها أحسستُ بشيء ما." "ماذا؟ ما الذي أحسستَ به؟" وحاولتُ التحكم في صوتي. أخرج عجول سيجارة جديدة، وأشعلها من عقب القديمة. "رأيتُ

---

1) خلال إقامته بسجن لامبيز المركزي بعد استقلال الجزائر، لقي عجول معاملة سيئة. فقد ثبّت الحراس على ظهره بحبال، كيسا مليئا بالحجارة الكبيرة، وأمروه بالركض في ساحة السجن، وبالدوران عليها دون توقف، وقد انصاع للأمر حتى الإنهاك! وذات يوم خلال زيارة وزارية، وصفه محمدي السعيد بالخائن، فأجابه عجول: "أطالب بالمثول أمام محكمة وستظهر الحقيقة."

2) لماذا ليلة التاسع من أفريل 1955؟ يتمتع عجول بذاكرة عجيبة، قائمة على أحداث رئيسة. وتاريخ 9 أفريل يسبق بيومين كمين جلاّل، وهو المَعْلَم الزمني الهام لهذه الفترة.

شيحاني وشابًّا من خنشلة، مُمدَّدَيْن الواحد جنب الآخر." "وماذا كانا يفعلان؟" "لا شيء، كانا يتحادثان بالفرنسية ويمزحان." "أكان ثمة أشخاص آخرون في المخبأ؟" "أجل، سي عباس والشيخ علي وبيشة وعمر". هل لاحظوا شيئا ما؟" "كلا، فقد كنتُ الوحيد الذي استشعر الخطر."

العاشر من أفريل 1955. أوصى شيحاني مساعديه بانتظاره في القلعة، ثم اتجه على رأس حرس خفيف نحو تبسة. وما إن اختفى في الأفق، حتى انطلق عباس وعجول بدورهما. الأول نحو خنشلة حيث قضى يومه، والثاني نحو مقر قيادة أعالي الناس، عند عبد الوهاب عثماني، حيث أمضى يوما وليلة.

ولم يبق في القلعة سوى عمر بن بولعيد.

كمين جلاّل

الحادي عشر من أفريل 1955. عاد عباس وعجول بعد إفلاتهما، إلى القلعة حيث يسود سأم قاتل. ففي غياب شيحاني، تقلص نشاط مقر القيادة إلى الحدّ الأدنى. وقد أهمل عمر ذقنه، وراح يجتهد مثل مبتدئ هيّاب، في تقديم صورة القائد عن نفسه.

كان عباس يدور ويدور مثل نمر في قفص، ثم أمسك بسلاحه وعبّأه بالذخيرة. وردّ عن سؤال عجول: "أنا ذاهب لمحاربة الاستعمار. ألسنا هنا من أجل ذلك؟". كان عجول يودّ مرافقته، ولكنه قرر، لحذره وتخوفه من ردّ فعل شيحاني، إخبار عمر برحيلهما. فيسأله هذا الأخير، وهو يحس بشيء من الإطراء لكونه استُشير: "وهل سي مسعود على علم؟" فأجاب عجول دون اضطراب: "نعم."

كان الليل قد خيّم حينما انطلقا. لقد اتجها شمالا، مجتازيْن القرن لبيض، ثم التفّا حول "بوياكادان"، وبلغا عند منتصف الليل "هنشير علي بن عثمان"، بلدة تقع إلى الجوب الغربي من "تبردقة"، في القطاع الذي يقوده مسعود بن معاش. استقبلهم في "هنشير علي"، المسؤول العسكري المحلي، شخص يدعى "الحاج كربادو"، مسلح ببندقية "غاراند". وكان يرافقه ثلاثة مجاهدين: علي لعفيف ومحمد الصالح عيساوي وكربادو آخر، ابن عم الأول. كانوا مسلّحين على التوالي، بمسدس رشاش "تومسون" وبندقية أمريكية 17 وبندقية "ستاتي".

شرح عباس للحاج كربادو سبب مقدمهما. فقال له الحاج: "ينبغي لنا الذهاب إلى جلاّل إذن". ودون انتظار، توجهوا إلى جلاّل بالجنوب الغربي. كان يقطن بها، قرب مركز عسكري فرنسي، مقاومٌ مدني بإمكانه نظريا إعلامهما.

ترك الحاج كربادو مرافقيه إلى الخلف، وتقدم نحو بيت المقاوم، وطرق طرقا خفيفا على الباب، ونادى الرجل باسمه وطلب منه الخروج. فساد صمت طويل. ألحّ الحاج كربادو، فأجابه صوت امرأة: "لا أحد هنا، عُد في النهار". وسمع همسا، وبكاءً مكتوما. فقال: "هيا، قولي له أن يخرج. فنحن نريد التحدث إليه فقط." وسمع أنينا، ثم انفتح الباب وتعلقت عجوز بسترته. فردّد مُحرَجًا: "إننا نريد فقط أن يعطينا بعض المعلومات". فرفضت المرأة: "قلتُ لك إنه ليس هنا. لن يخرج!" ثم قالت شبه متراجعة: "بل هو هنا، سيخرج ولكن بشرط، أن تأكلوا قبل ذلك "زميتة" [1] فمن يذوق مِلْحَنا، لا يمكنه أن يُضمِر لنا سوءا." فقَبِل الحاج. وانتظر أمام الباب أن تجهز الحلوى، ثم أكلها سريعا، في وقت واحد مع الرجل، الذي كانت تتبعه نظرات النسوة وكلها يقظة وأسى.

---

1) الزميتة: حلوى تُعدّ من الدقيق المحمّص، يوضع عليها العسل والزبدة الذائبة.

في الأخير، تبيّن أن الرجل لم يكن يعلم شيئا ذا بال. فوجّه الحاج كربادو إلى جاره، الذي كان يتوفر على معلومات أكثر. فقال: "كل يوم، يمر موكب من سبع شاحنات عسكرية عبر جلاّل." فسأله الحاج: "ومن أين يأتي؟" "من خنقة سيدي ناجي ويتوجه نحو خنشلة."

بعد الاستماع إلى الحاج كربادو، أعلن عباس: "سننتظر الموكب عند مخرج المدينة." لم يكن قد بقي على طلوع الفجر الكثير. وكان البرد قارسا. اختار عباس مكان الكمين. ووضع الرجل المسلح بالستاتي على قمة رابية: "تصرخ ما إن ترى الموكب." وتلقى علي لعفيف، الذي كان قبالته، الأمر بألا يطلق النار، إلا عند إشارة من عباس أو عجول. تمدد الحاج كربادو وعيساوي على التلة المحاذية للطريق، وكذلك فعل عباس وعجول على الجانب الآخر.

طلع عليهم الفجر وهم مجمّدين من البرد. وبزغت الشمس، فأوقدت قطراتِ الندى المحيطة، وكشفت المنظر: لقد كان أجرد تماما. مرّ كل شيء بسلام حتى منتصف النهار، لكن بارتفاع الحرارة، صارت مواقعهم غير مريحة أكثر فأكثر. لقد استولى عليهم العطش، والتصقت مفاصلهم.

ولا شيء في الأفق دائما! فاقترب عجول من عباس: "إنني أكاد أموت عطشا وجوعا." فرمقه عباس بنظرة غير مهذبة. الساعة تشير إلى الحادية عشرة. قال: "نبه الآخرين بالإشارة أن يذهبوا لجلب بعض الماء." حرك عجول ذراعيه، وتلوّى قدر ما استطاع. لم يكن الآخرون يرونه أو لم يكونوا يفهمونه. كان عباس قد منع الحراك أو الكلام. "وحين يعطي عباس أمرا، فمن مصلحتك حقا أن تطيع". يضيف عجول مبتسما. "فاقتربتُ منه أكثر حتى كدتُ ألامسه، وأريتُه شفاهي الجافة، وقلتُ له: "إنني أموت عطشا"، فأشاح بوجهه عني ببساطة.

وواصلتُ الهمس حتى سئم، وأذن لي في غضب، بالزحف باتجاه الرجال الآخرين، والبحث عن الماء." لم يحالفهم الحظ ، فقد عادوا خاليي الوفاض، أكثر عطشا من ذي قبل. وسأل الحاج كربادو عجول: "أعلينا مهاجمة أية عربة عسكرية؟" فأجابه عجول: "كلا، لا مجال لذلك. وعلى أية حال، لن تطلقوا النار إلا بعدي." وعاد إلى مكانه قرب عباس الذي تجاهله، وهمس في عزم: "سننتظر. حتى الظهر، إن اقتضى الأمر."

بعد نحو عشرين دقيقة، ظهر من بعيد، مثل دودة وحشية لا آخر لها. موكب طويل من سبعين شاحنة على الأقل، تحميها من الأمام والخلف مدرّعات وعربات مجهزة برشاشات آلية. كانت مجنزرة المقدّمة تقترب بثقل، ثم توقفت لبرهة في قمة العقبة، ورأسها الصياد يدور على نفسه ببطء. كان جنود العدوّ يظهرون، سائرين على جانبيها. ابتهج عباس حدّ الإثارة، وقال : "إنها فرصة نادرة!" حاول عجول تهدئته. وحين رأى أنه على وشك إطلاق النار، ارتمى عليه ورقد تماما على بندقيته، هامسا بغضب في أذنه تماما: "لم تعد هذه حرب عصابات يا سي عباس، هذا انتحار!" كان الحاج كربادو يراقب المشهد مندهشا. "العدو أقوى منا بكثير!" يقول عجول خائرَ القوى. التفّ عباس على نفسه، وتخلص من قبضة عجول [1]. "أنت جبان يا عجول! أنت لم تُخلق للحرب. أقسم بالله ألا أشارك بعد الآن في كمين معك!". لقد كان غاضبا جدا، جدا.

كان الموكب الصامت أمامهم، يتمطط في هدوء لا يكاد ينتهي. في هذه الاثناء، كان على لعفيف الذي كلفه عجول بالبحث عن الماء

1) تشبه بُنية عباس بنية عجول، ويتمتع الاثنان بقوة غير اعتيادية.

والطعام، العودة إلى المقاوم المخبر، ليعطيه دلو ماء وبعض الرغيف وحفنات تمر جاف. فأكلوا وشربوا، وعندما شعروا بتحسن، عاد كل واحد إلى مركزه.

في العصر، عند الرابعة مساء، وتحت شمس حارقة، رفع لعفيف فجأة ذراعا فوق رأسه وحرّكه. فانتفض الحاج كربادو ورأى ثلاث شاحنات "جي أم سي" قادمة من جلاّل. بقي الرجال أرضا. وما إن رأى لعفيف الشاحنة الأولى، تبطئ عند المنعرج في نهاية العقبة، حتى فتح النار دون انتظار. فتوقف الموكب ونزل جنود من الشاحنات، وانبطحوا أرضا وشرعوا في إطلاق النار. ولمدة نحو خمس عشرة دقيقة، ظلت بندقيتان رشاشتان ومدفع من عيار 12/7، وأخرى من عيار 30، إضافة إلى بنادق ومسدسات رشاشة، تصُبّ عليهم مطرا من الرصاص. كان المجاهدون يردّون برشّات مشبعة لكن قصيرة. ثم كان إيقاف إطلاق النار. يروي عجول: "تعرفت على قناصين مختبئين تحت الشاحنات. فقلتُ لسي عباس إننا محاصرون بين مركزيْن عدوّيْن، أحدهما في جلاّل والآخر في خنقة سيدي ناجي. فكان لا بد من الحيلة." فبدأ يصيح: "أوقفوا إطلاق النار! إنهم إخوانكم في المقابل!" وصرخ عباس بصوته الجهوري: "حذار، لا تطلقوا النار! المجموعة 24 فصيلة 12، لا، لا تفكّوا مشابك قنابلكم!" وانضم المجاهدون الآخرون، وراح التصايح يتعالى، حتى بث البلبلة التامة بين القناصين. ولحسن الحظ، وبحادث سعيد نادر، كانت طلقة لعفيف، قد كسرت هوائي راديو شاحنة المقدمة.

ومرت بضع دقائق من الدهشة، يملؤها الصخب والصياح، ثم رؤي رجلان يقفزان من شاحنة، ويفران مثل أرنبين باتجاه جلاّل. أصاب عجول أحدهما في كتفه الأيسر، بينما أخطأ لعفيف الآخر. ولكنه لحق

به ركضا (فقد كانت التلة تخفيه عن طلقات العدو) وعاد به إلى عباس. وأفصح الفارّ: "أنا من تامزة. أنا الآن أسير الفرنسيين. إنهم يقتادونني إلى الرائد ميكال لاستنطاقي." فسأله عباس: "وإلى أين كنت تركض هكذا؟" "لقد أطلق الفرنسي سراحي مع رفيقي لأبلغ مركز جلال. فقد تم تخريب الراديو."

تحادث عباس وعجول لبعض الوقت، ثم التفتا نحو الفارّ. "سنطلق سراحك. ستعود إلى الفرنسيين. وهاك ما ستقول للضابط: أكثر من ثلاثمائة مجاهد مسلحين، كل واحد بأربع قنابل يدوية، لا ينتظرون سوى الأمر بالهجوم، إلا إذا استسلم هو ورجاله."

قال لي عجول: "دام الانتظار بعد إطلاق سراح الرجل عدة دقائق، بل قرونا، فقد كنا نخشى وصول قوات جلاّل." نزل قنّاصان من تحت شاحنة، وأطلقا العنان لسيقانهما مثل دجاجتين فزعتين. وفتح المقاومون النار، فجرحوا أحدهما. وطاردهما عيساوي وعاد بهما نحو عباس.

ابتهج عباس أيما ابتهاج: "نحن إخوانكم! ولن نؤذيكم. انظروا بأنفسكم." وبالكاد رفع القناصون أعينهم. "سنطلق سراحكم. فعودوا إلى رفاقكم. وانصحوهم بتسليم أنفسهم. نحن نضمن سلامتكم."

يروي عجول: "وحدث ما لا يصدّق. فقد سلموا أنفسهم في صفوف، الواحد خلف الآخر. كانوا في المجموع سبعة وعشرين قناصا جزائريا ورقيب فرنسي. كان عباس خائفا من أن يكشفوا الخديعة. فلم يَكُفّ عن أمرهم بالاحتفاظ بأعينهم مخفوضة، وبإلقاء أسلحتهم والإسراع في النزول إلى قعر الوادي. وتراكمت أمامي إثر ذلك كومة سلاح كبيرة: واحد وعشرون مسدسا رشاشا، بندقية "غاراند"، بندقية رشاشة "بار"

حسبناها من عيار 30) وصندوقا ذخيرة اثنان، وصندوق قنابل يدوية. وعندما أصبحوا جميعُهم في الأسفل، صعدتُ إلى ظهر شاحنة الـ "جي آم سي"، وحاولتُ تفكيك الرشاشة. وحين لم أُفلِح، رششتُها كلَّها بالبنزين بمساعدة عيساوي، وأضرمتُ فيها النار."

وأحرق عجول الشاحنتين الأخريين. وحين عاد، أخبره أحد القناصيْن، بوجود عدّة حقائب مملوءة بالمال في الشاحنة الأولى. فلم يكد عجول يخفي غيظه. "لا تهتم، إنه ليس سوى مال العدو! دعه يحترق!"

وسمع عباس يتحدث إلى السجناء: "مرحبا بكم في جيش التحرير الوطني! أنتم هنا في أمان، لأن جيش التحرير الوطني يعفو عنكم. إننا إخوتكم. نحن لسنا بمجرمين، بل نحن مجاهدون."

ونظر إلى الفرنسي: "أنت أيها الفرنسي، أأنت ديمقراطي؟ أجبني بصراحة." فأجاب الرقيب: "أجل أنا ديمقراطي، أنا أحترم جيش التحرير الوطني وأتفهمه. أنا الآن أفهم معنى كفاحكم. وأنا موقن من أنكم ستنجحون!" كانت البهجة تغمر عباس.

والتفت في هيئة المنتصر إلى القناصين. "والآن، دونكم أيها الإخوة! فليرفع يده من يرغب في الانضمام إلى جيش التحرير الوطني." لم ترتفع أية يد. وراحوا يتحدثون جميعهم في وقت واحد: "لسنا سوى احتياطيين، وسيتم تسريحنا قريبا. ولكننا سنعود، هذا وعد." وراحوا يتحدثون عن أطفال وعن والديْن عجوزين يتكفلون بهما، وعن عمل يخفي تسويته. فاسودّ وجه عباس. بدا كما لو كان خجلا. واستجوب الفرنسي: "كم ولدا لديك؟" فرفع الرقيب أصبعين. "خذ، هذا بعض المال. ليس كثيرا، يكفي لتشتري لهما بعض الحلوى." ووضع المال في يده

ثم أمر: "الاحتياطيون، اصطفّوا إلى جانب الرقيب!" انصاع نحو عشرين جنديا وانضموا إلى الفرنسي. بقي منهم ثمانية هم من العاملين. وفجأة شعروا بالقلق. فطمأنهم عباس: "ليس ثمة من سبب لأن تخافوا. ستساعدوننا على نقل الأسلحة إلى مكان قريب (ويشير بسبابته نحو ربوة قريبة) وغدا، أنتم أحرار."

أخرجوا جميعهم محافظ نقودهم، وفكّوا معاصم ساعاتهم اليدوية، وعرضوا كل ما يملكون، شرط أن يطلق سراحهم مع الآخرين. قطب عباس حاجبيه أمام مثل هذا الزهو. فنادى الرقيب: "أنت حرّ. فخذ الاحتياطيين معك. إننا ندعكم تذهبون بشرطين: الأول ألا تزعج السلطاتُ العسكرية الفرنسية الاحتياطيين، والثاني أن يتم علاج المدنيين الاثنين وتحريرهما." فوعد الرقيب بذلك. وأضاف أنه سيكتب إلى الصحف الفرنسية. "اعتمد عليّ. سأقول لهم كيف تعاملون أسراكم. سأشهد بأنكم لستم مجرمين." كان وجه عباس يقطر سرورا.

كان الرقيب متأثرا، إلى حدّ أنه ذهب في الاتجاه المعاكس. فلاحظ عباس ذلك ولحق به، وخطّ له جواز مرور، في حال ما إذا لقي دورية لجيش التحرير الوطني. وفي أثناء ذلك، مرت سيارة أجرة من خنشلة. تمهل السائق في البداية، ثم انطلق كالإعصار. فأطلق عباس عيارا ناريا في الهواء. فتوقفت السيارة. فأركب عباس الفرنسي والمدنيين الاثنين، ثم أمر السائق بالتوجه إلى جلاّل. وصاح في الاحتياطيين: "تدبروا أمركم من أجل العودة كالكبار!"

وانطلق عباس وعجول، ورفاقهم الأربعة، والأسرى الثمانية عند الغروب باتجاه القلعة. وتوقفوا في بيت الحاج كربادو، حيث تناولوا الطعام وقضوا الليل. في اليوم الموالي، أخبرهم مدنيون أن القوات الفرنسية قد اتجهت إلى مكان الكمين بأعداد كبيرة.

في القلعة، بينما كان عباس يستنطق الأسرى، [1] عمد عجول إلى توزيع الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها.

الثالث عشر من أفريل 1955. عاد شيحاني من جولته في تبسة. حدثه عجول عن كمين جلاّل. "أين الأسلحة؟" "وزعتُ قسما منها على الأفواج." "لا يحق لك التصرف فيها كما يحلو لك. فالأسلحة ملك النظام." ما كان يريده في الواقع – يقول لي عجول – هو تسليح فصيلته التي تَعُدّ نحو ثلاثين رجلا، والتي سميناها تفكُّهاً فصيلة الشيخ. فهم لم يكونوا خاضعين لا لأعمال السخرة ولا للمعارك: وكان سبب وجودهم الوحيد، هو حماية مقر القيادة. فسلمته بعض المسدسات الرشاشة بذخيرتها."

ظهر ثاني أثر لكمين جلاّل، بعد أن سمع شيحاني تقرير عباس، الذي لخص فيه استنطاق الأسرى. وبناء على هذا التقرير، قرر تصفية الرائد ميكال. [2]

كان هذا الضابط الفرنسي مُعسكِرا بالولجة، على بعد خمسة عشر كيلومترا، شمال خنقة سيدي ناجي. عيّن شيحاني مجموعة خاصة لإعدامه. كُلِّف أحد المجاهدين بجمع أقصى ما يمكن من المعلومات، عن التحرك المقبل للرائد وحرسه. فتسلل بين جنود اللفيف، وشرب الكثير من الجعّة مع القناصين والقومية، وعدّ الشاحنات، وتحدث هنا وهناك، ثم صعد ليرفع تقريره إلى قائد الفوج الخاص. سيكون ميكال في العربة الثالثة من الموكب رفقة الكاهن.

---

1) كان القناصون الجزائريون، المجندون طوعا في جيش العدو، يُستنطَقون ثم يعدمون بعد يومين.

2) كان الرائد ميكال، المتمركز في الولجة، يتصرف بطريقة مشينة مع السكان. وقد جمع ذات يوم سكان الولجة وقال لهم: "أترون أشجار الزيتون هذه، سأعصركم مثلها وأستخرج الزيت من أجسادكم."

يوم 15 أفريل 1955. تم إعداد الفخ بسرعة. تمرّ الطريق بين الولجة وخيران، ما بين جرفين، وهي شديدة الانحدار. فكان على العربات السير ببطء. لقد تم وضع ثمانية رجال بأسلحة آلية على قمة المنحدر، أربعة من كل جانب. أُمِروا برشّ العربة الثالثة والانسحاب بعد ذلك مباشرة. وهذا ما فعلوه. فقد شرعوا في إطلاق النار ابتداء من مؤخرة العربة الثانية، وركزوا على الثالثة. فرملت بعض الشاحنات، ونزل منها قناصون وجنود اللفيف وانبطحوا في الخنادق. في المساء أرسل "القايد" [1] اتصالا، ليعلن موت الرائد ميكال والمرشد الديني.

جولة عجول في الأوراس الشرقي

ما زلنا في شهر أفريل 1955، في مطلع النصف الثاني منه. عمر بن بولعيد وعجول وعباس وشيحاني موجودون بمقر قيادة القلعة. ثمة شيء غير اعتيادي: لا أحد من الرجال يدخن. لقد تم تحريم التبغ في 12 أفريل، وقد أعلن شيحاني: "كل سيجارة هي مساعدة لمجهود العدو الحربي." وعن سؤالي، أجاب عجول: "نعم، أنا أيضا أقلعتُ عن التدخين. امتناع آخر يضاف إلى الامتناعات العديدة الأخرى." وحتى قبل شهور قليلة من وفاته سنة 1991، كان يدخن غراماته الخمسين من التبغ يوميا، برغم نفثه الدم عديد المرات.

ويُفصِّل شيحاني الوضع مرة أخرى، فيقول أن ثمة، بحسب التقارير، نزاعات بين المجاهدين. "لقد أعددتُ ميثاقا لتحديد دور كل واحد نهائيا." وهكذا، فسيكون هناك المجاهد المسلح أو الجندي، والمجاهد المسلح أو الاتصال، والمناضل المدني المموِّن. [2] وتم رسم الحدود

1) "القايد" موظف من الأهالي، يمثل السلطة القضائية والتنفيذية لفرنسا في جهة ما.
2) تعني المؤونة بالمعنى الواسع مختلف المواد من غذاء ودواء ولباس ونقود...الخ

الجغرافية بين النواحي الست، وكذا أماكن تخزين المؤونة: لشعث (جبل 1511) في كيمل، هنشير علي بن عثمان جنوب تبردقة، حيث توجد مغارات ومخابئ كثيرة. وبهدف شرح تعليماته، والتحقق من تنفيذها على الميدان، وتنصيب الرجال الجدد في الوقت نفسه، أرسل مساعديه في جولة تفتيش. فكُلِّف عمر بن بولعيد وعباس لغرور بتفتيش الجهة الغربية من الأوراس، وهي وادي طاڤا والشمُرّة وبوعريف وقسرو ومستاوة ورفاعة ومتليلي ولزرق وأحمر خدّو.

أما عجول فقد تم تكليفه بتفتيش الجهة الشرقية من الأوراس، انطلاقا من تامزة: تكوت ومشونش وزريبة الواد وكيمل وزلاطو وقسم من النمامشة.

وهذا ما يقوله عن جولته: " ترك لي شيحاني كل الحرية في حل المشكلات في عين المكان، مُلِحًّا مع ذلك على أولوية المبادرة الثورية. فالجمود مرفوض." وهنا، توضيح يفرض نفسه: فعجول لا يتحدث كلمة واحدة بالفرنسية. إنه مُعرَّب خالص. فقد قال لي حرفيا: "الأولوية للمبادرة الثورية على التجميد". فشكلنا إذن مجموعتين، وبعد أن تركنا شيحاني بمفرده في القلعة، انطلقنا جميعا باتجاه تامزة إلى الشمال الغربي، وهنالك افترقنا. وواصل عمر وعباس نحو جبل الشلية، سالكيْن مجاري الوديان. أما أنا، فبدأتُ عملي في تامزة نفسها، وبالتحديد في "زيريس"، في وقت واحد مع قائد القطاع المحلي لتامزة. كان لديّ بالكاد الوقت الكافي، لتنظيم استقبال المجاهدين الذين يناهز عددهم الثمانين؛ ثلاثون من تكوت، وعشرون من أعالي الناس، وثلاثون من تامزة. ولا أحدثك عن البؤس الأسود السائد آنذاك. وكم من مرة سمعتُ الرجال يشتكون! والمسؤولون قبل غيرهم. لقد كانوا يشتكون من نقص الطعام، ومن نقص الذخيرة. وقد بلغ الجوع حدّ أن الرجال صاروا يرفضون القتال، ولم يعودوا يطيعون الأوامر!

وكنا نحن جميعا في القيادة نجهل تماما هذا الوضع: لقد كانت معنويات الجنود هابطة تماما. ومن جانب آخر، فإن السكان لم يعد لديهم شيء يعطونه، إذ أنهم كانوا، هم أنفسهم، مُهدّدين بالمجاعة. فقد حدث أكثر من مرة، أن قطع الرجال حتى مائة كيلومتر بحثا عن الطعام.[1]

كيف يمكن – قل لي – الحديث عن المبادرة الثورية حين تعاني البطون المجاعة؟ فقطعتُ الأمر على الفور، وأمرتُ بإخلاء قطاع تامزة وحوّلتُ مجاهديه إلى أليناس، تحت قيادة لزهر شريّط[2] وعبد الوهاب عثماني. وأعلنتُ تامزة قطاعا غير عسكري، مخصصا فقط للنظارة المالية. ووظفتُ ثلاثين مدنيا في عين المكان، وطلبتُ منهم مسح كل القطاعات المجاورة لاستعادة وتخزين كل ما يجدونه من أغذية. ثم من أجل تسهيل انتقال المعلومة وتجنب أخطاء الماضي، فرزتُ عشرة أعوان اتصال (ثلاث فرق من ثلاثة أفراد وقائد)."

عندئذ غادر عجول تامزة ، بعد أن أوصى عبد الوهاب عثماني بانتظار عودته لمهاجمة المراكز الفرنسية. ثم شرع في تمشيط جبل زلاطو في الغرب، فوجد هناك مشاكل الجوع نفسها، التي تشكل، أصلا، ظاهرة اعتيادية، لكن الحصار الفرنسي زاد من حدّتها. وفعل عجول كما فعل في تامزة، إذ أخلى زلاطو من مجاهديه وأمر مساعديْه، مصطفى بوستة ومسعود بن الحاج، بنقلهم إلى غابة بني ملول. وفعل الشيء نفسه في كيمل، فصرّف رجاله نحو بني ملول.

---

1) لتخفيف العبء الغذائي، والتقليل من المخاطر المفروضة على السكان، وسعيا لأن تكون حاضرة في كل مكان من قطاعات ناحية معينة، طالبت القيادة المجاهدين بالتحرك كثيرا، أي بمعدل ستين كيلومترا في اليوم.

2) أنقذ عجول لزهري شريّط من الموت في آخر لحظة، خلال عملية التطهير التي قادها شيحاني في ناحية تبسة، في مارس 1955

وبعد يومين، جمع مسؤولي الأفواج في سيدي علي، شرق زلاطو، وأبلغهم بمشروعه المتمثل في إنشاء مخزن مركزي للمؤونة، في غابة بني ملول.

1 – عُيِّن محمد بن زحاف لبدء حفر المطامير.

2 – اعتُبر موقع المطامير سريا للغاية.

3 – تُملأ المطامير وتفرغ ليلا فقط، تحت حماية حراسة مشددة.

4 – يُكلّف عمار عبد الهادي ومسعود خير الدين بتسيير المخزونات.

عجول رجل طموح، وهو لا يخفي ذلك: "كنتُ أريد أن تصبح كيمل ناحية نموذجية، أولا لإسكات مسعود بن عيسى الذي كان يزعم خنقنا، ثم لأثبت لشيحاني أنني أستحق ثقته. ومن أجل ذلك، بادرتُ إلى تحويل عبد الوهاب عثماني من أعالي الناس إلى كيمل. وفي أعالي الناس عوضتُه بلزهر شريّط. ثم عينتُ عثمان كعابشي على رأس أعوان الاتصال، الذين أصبح عددهم الآن ثلاثين (ثلاثة أفواج، كل فوج من عشرة أفراد) ومدنيين لاجئين في جبهة القتال، أغلبهم من عائلات المقاومين، كان علينا إطعامها."

يبقى المشكل الشائك: كيف نجمع المؤونة؟ أرسل عجول نحو الجنوب، الذي ما يزال مصاليا، رجليْن: زحاف والحاج عبد السلام. وكلفهما بأن يقوما بالدعاية في أوساط الناس ويجمعا الأموال، أو المواد الغذائية إذا تعذّر عليهم ذلك. فنزلا حتى ثقرت ووادي سوف، حيث لم يحصل عليهم السكان، الذين التفوا بسرعة حول الثورة، بشيء. وفي غرف عشرين يوما، امتلأت مستودعات سيدي عقبة وتاجموت وبني ملول. أما بالنسبة للتوزيع، فقد عمد عجول إلى الغشّ، إذ أعطى حصة الأسد لأفواج كيمل [1]، بل وأجاز لنفسه ترف تخصيص المموِّنين:

---

[1] كيمل محاطة بأعالي الناس من الشرق، والقلعة من الجنوب الشرقي، وعيدل من الجنوب، وتاجموت من الجنوب الغربي، وزلاطو من الغرب، وتامزة من الشمال الشرقي.

1 – جامعو الأسلحة والذخيرة
2 – جامعو المواد الغذائية
3 – جامعو الأدوية

وقيّد في السجلات جردا مفصلا، بالأغذية والأدوية وآلات الخياطة وقطع القماش. وعيّن قطعا أرضية، زرع فيها اللاجئون بعض الخضار. أملا في تحسين لائحة الطعام.

يقول لي عجول بشيء من الفخر: "بفضل المخازن التي أنشأناها عاشت ناحية بني ملول اكتفاء غذائيا لعدة شهور، برغم الحصار الفرنسي."

غير أن حدثا ظلّ يؤلمه: "كيف يمكن للمجاهدين، أن يجرؤوا على رفض القتال لأنهم لم يأكلوا؟ وحتى لا يُباغَت مرة أخرى، فقد عزّز عدد أعوان الاتصال، ورفع دورات عملهم. وهكذا، أصبح مقر قيادة كيمل، يستقبل أربعة أعوان اتصال على الأقل ، في الأربع والعشرين ساعة. وأصبح قطبا تنشط منه وتجتمع فيه ثلاثة أفواج، يتكون كل واحد منها من عشرة أعوان اتصال. *6

وعلى صعيد آخر، حاول عجول تكييف هياكل جيش التحرير الوطني، مع تمركز القوات الفرنسية، الموزعة بين الأوراس والنمامشة. فأعدّ قائمة بجميع المراكز الفرنسية، المنتشرة على طول ضفاف وادي العرب، ورتّبها حسب درجة أهميتها. وهكذا علم من بين ما علمه، أن تعداد العدو في الولجة، شمال خنقة سيدي ناجي، يبلغ أحيانا أهمية فيلق. ثم يضيف: "لم أتوقف طيلة شهر. فبعد كل تفتيش، كان عليّ إعادة تنظيم هياكل بدت غير مناسبة، وتعيين قادة أفواج جدد، ومكافحة المتشائمين والانهزاميين، النادمين على السلم الفرنسي. كانت سلطة القيادة شبه معدومة. وكان أقسى شيء عليّ، هو ملاحظة أن جيش التحرير الوطني الذي كان صيادا، قد تحوّل إلى طريدة."

وعاد إلى تامزة، نقطة انطلاقه. واستلم مائة وثمانين قطعة من السلاح الحربي مرسلة من الجنوب، ولكن دون ذخيرة. وأعدّ خططا هجومية بهدفين في ذهنه :

1 – رفع معنويات المجاهدين

2 – تحصيل أسلحة وذخائر

قادت الهجمات أنصافُ أفواج من ستة رجال، في شكل كمائن فقط. ولأول مرة، طالب بدراسة تصرف العدو قبل كل عملية: مواعيد الاستخلاف، عدد الجنود، دورة سخرة الماء وتوقيتها، وأخيرا، عدد الحاصلين على الإجازات وهواياتهم.

وقطعةً بقطعة، تجمّعت الاستعلامات باتجاه مقر القيادة في كيمل، حيث يتدارسها عجول وقادة الأفواج. وفي تاريخ 11 ماي 1955، بدأ استغلالها. وقع أول هجوم في درمون، على بعد عشرين كيلومترا شمال زريبة الواد، بمناسبة سخرة ماء (أشغال جلب الماء). وتم رسم خطة الكمين بدقة. وعُهدَ بتنفيذه إلى نصف فوج (خمسة رجال وقائدهم): يتمركز تحسُّباً، ثلاثة مجاهدين ليلا قرب النبع، وعُيِّن اثنان للهجوم نفسه، بينما وُضِع السادس في قمة رابية لمراقبة تحركات الشاحنة. وتمت دراسة تصرف العدو بالتمام: فالجنود ينزلون كل يوم في الساعة نفسها، في شاحنة رباعية الدفع حتى النبع، حيث يملؤون براميلهم، تحت حماية رامي بندقية رشاشة، يساعده ممونان.

تم الهجوم في وقت الملء. قُتِل أحد الأعداء، وأُلقي القبض على الآخرين، وأُحرِقت الشاحنة على بعد أقل من 500 متر، من المركز العسكري الفرنسي. واسترجع جيش التحرير الوطني بندقية رشاشة وبندقية "غاراند" ومسدسيْن اثنين. ودام الهجوم أقل من خمس دقائق. ثم انسحب المجاهدون وأسراهم باتجاه مركز العدو. وحين أصبحوا

على بُعد بضع عشرات الأمتار منه، انحرفوا نحو الغابة. أقلعت طائرة مروحية من المركز، وحلقت فوق الناحية لبضع دقائق.

طلب عجول من الأسرى الستة، وهم قناصون جزائريون من جهة وهران، إن كانوا يريدون الانضمام إلى جيش التحرير الوطني. فقالوا لا، وطلبوا تحريرهم. فأعطى الأمر بعدم معاملتهم بعنف، وانتزع منهم ثيابهم وساعاتهم وأحذيتهم، ثم ألبسهم أسمالا بالية، وأطلقهم تحت أنظار سكان مشدوهين.

وفي يوم الحادي عشر من ماي 1955، نجح جيش التحرير الوطني في خوض ثلاثة هجومات :

1 – كمين في خيران، شرق الولجة.

2 – اشتباك في تاجموت، شمال شرق زريبة الواد.

3 – مهاجمة ورشة في خنقة سيدي ناجي.

بعد يومين، أي في الثالث عشر من ماي، حدث في "ليانة"، جنوب غرب خنقة سيدي ناجي، جهة السراحنة، أن تلقى زحّاف، وهو الشخص نفسه، الذي تم إرساله في مهمة إلى وادي سوف، كثيرا من المعلومات عن المركز المتقدم لـ "قومية"[1] ليانة، المكلف بتغطية مركز لفيف والذي يبعد بمائة متر. أرسل عجول إلى هناك نصف فوج بقيادة العياش باتسي. ارتدى المقاومون الستة عباءات فوق أزيائهم، ودخلوا إلى المركز المتقدم، فوجدوا ثمة ستة "قومية" يلعبون الورق ويحتسون الشاي. كانت أسلحتهم معلقة على الجدران، أما العريف، فكان مستلقيا في زاوية على سلاحه، ما مكنه من إطلاق النار. فقتله ابن العياش من الطلقة الأولى، ثم أُخرِج "القومية" بضرب الأخمص واستُولِيَ على

1) القومية: مساعدون من الأهالي في الجيش الفرنسي مسلحون ببنادق الصيد أو بنادق قديمة (ليبيل موسكتون، ماس 36).

أسلحتهم. وكان الاتجاه نحو الجبل القريب، حيث جرى سيناريو مماثل لما وقع في درمون. رفض القومية البقاء. فجرّدوا من لباسهم وأُطلِق سراحهم.

وخلال اليوم نفسه، اقتحم جيش التحرير الوطني قرية عين الناقة، الواقعة على بعد أربعين كيلومترا جنوب بسكرة، وهاجم قرية قنطيس (شرق تبردقة)

"باتباع مجرى وادي العرب فقط.- يقول لي عجول – تمكنتُ من مراقبة مجموع الناحية الشرقية من الأوراس. فقد أجريتُ لقاءات مع قومية"، دعوني في كل ثقة إلى تناول القهوة في بيوتهم. فأعطيتهم بعض المال، وشرحتُ لهم أهداف كفاحنا. وقد انضم عشرة منهم، من بني ملول إلى جيش التحرير الوطني بسلاحهم ومتاعهم."

في 16 ماي 1955، مدّدت فرنسا حالة الطوارئ إلى منطقتيْ بسكرة ووادي سوف.

انتقل انعدام الأمن الآن إلى المعسكر الفرنسي. وانتقل عجول ثانية إلى تامزة، فهو مثل شيحاني مهووس بالحصائل. وحصيلته إيجابية كثيرا. ففي ظرف شهر، أصبحت الناحية الجديدة المعلنة في كيمل مهيبة، بتسليحها الحديث ومطاميرها ومغاراتها، ومخابئها المليئة بالمؤن من كل صنف، وشبكة أعوان اتصالها العديدين والفعالين.

فلندعه يتحدث: "برغم كل شيء، لم أكن راضيا. فعبد الوهاب عثماني لم يكن يبذل قصارى جُهده. لقد قلتُ له أن ينشط قليلا. فقد كان عليه بصفته قائد ناحية كيمل، أن يضرب المثل، وحدثتُه عن "القومية" العشرة الذين انضموا إلى جيش التحرير الوطني فقط بقوة الإقناع. وهو، ماذا فعل؟ بعد ثلاثة أيام، في 16 ماي، شاركتُ في ثلاثة كمائن: الأولى في تامزة والثانية في بغلة مع لزهر شريّط، والثالثة في

تارجالت مع لخضر أوصيفي. وقد نجحت هذه العمليات الثلاث فوق كل توقع، إذ أننا استولينا على ثلاث بنادق رشاشة وأربعين سلاحا فرديا."

نزل عبد الوهاب عثماني مستثارا من بني ملول نحو الولجة، حيث نجح في مجموع أربعة كمائن. كان لأولها أثر نفسي لا ينكر: لقد كان يقع في الولجة مركز اللفيف الأجنبي، مقابل القرية، يفصله عنها وادي العرب. وكان جنود اللفيف قد تعوّدوا على الاستحمام في مياه الوادي عراة تماما، عارضين وشمهم الجرماني، أمام النساء اللواتي كن يغسلن الثياب في الجوار. فأطلق ثلاثة مجاهدين مختبئين في بستان النخيل، من بينهم عبد الحفيظ سوفي، النار على اثنين من المستحمّين، واستولوا على ثيابهما وأسلحتهما واختفوا. لقد كانت عملية استعراضية، لا سيما وأنها جرت على مرأى من نساء القرية.

بعد ليلتين، فرّ سبعون "قوميا" بأسلحتهم. كانت لدى معظمهم قرابة عشائرية بعثماني، مما ساعده في اللعب على هذا الوتر وأثار تغيير مواقفهم.

في قطاع الولجة دائما، خاض عثماني بنجاح كمينيْن آخرين.

في 18 ماي 1955، وقع اشتباك في وادي مريال، وتم اقتحام قرية تاجموت.

وعاد عجول مرة أخرى إلى زلاطو، غرب تامزة. فجنّد عناصر جددا وجهزهم. ولم يلبث عثماني أن التحق به، فنزلا سويا نحو تكوت. وهنا نصّبا مجموعة من نحو عشرين مجاهدا، تحت قيادة محمد الصالح شنخلوفي، الذي كلّفه عجول بمهمة مناوشة تكوت، وناحيتها، المدعوة أيضا الخط.

وواصل الرجلان جولتهما عبر جبل أحمر خدّو، وتوقفا بتاجموت حيث جنّدا فوجا جديدا، عهدا إليه ببندقية رشاشة.

"كانت فكرتي، يقول عجول، هي إحاطة مقر قيادة كيمل بحزام أمني مع مراكز في تامزة وتكوت وتاجموت والولجة وخيران، على طول وادي العرب." وفي 19 ماي اشتبك شنخلوفي مع وحدة مظليين فرنسيين وكبّدها خسائر.

وبفضل أعوان الاتصال، أرسل عجول إلى شيحاني التقارير واحدا تلو الآخر، يصف له فيها نشاطاته ونجاحاته. علم شيحاني تماما أن تحوّل كيمل إلى ناخية، لن يعدم أن يسمّم أكثر، العلاقات الصعبة أصلا بين عجول وبن عيسى، هذا الأخير الذي لم يظهر عنه أي خبر، منذ رحيله المبكر نحو الشلية، حيث يتولى القيادة خلفا لعمار معاش.

في 22 ماي اشتبك جيش التحرير الوطني، مع فصيل فرنسي في جبل عمران. واستعمل الفرنسيون للإفلات لأول مرة، طائرات مروحية، من نوع "سيكورسكي" باغتت المقاومين. وفي اليوم نفسه، هاجم جيش التحرير الوطني قرية خيران، فردّ الجيش الفرنسي بقصف جوي.

في حدود الرابع والعشرين من ماي، نُصِب كمين في سوق لعجاج، لإعدام الحاكم العسكري لبلدية تبسة المختلطة. لم يكن المحصول جيدا. ولم يكن القمح قد حُصِد بعد. في منتصف النهار، نهض الراصد المتمركز في قمة رابية، ليعلن وصول الموكب. وإذا بالفرنسيين يطلقون النار عليه. فانطلق المجاهدون المختبئون في حقل القمح نحو الطريق، وأطلقوا النار على الشاحنات، وقتلوا أربعة ضباط صف فرنسيين، والحاكمَ وحارسَه الشخصي. وحاول الملازم الأول الفرنسي عبثا، تشغيل البندقية الرشاشة، فأُردِيَ هو الآخر قتيلا.

ما زلنا في ربيع سنة 1955. كانت الجزائر غارقة في حالة حرب مع :

– منع حرية التنقل على الأشخاص والحيوانات والبضائع.
– إلغاء حرمة المساكن، إذ كانت عمليات التفتيش والتوقيف تقع ليلا ونهارا.
– تسخير كل شخص لأعمال إجبارية: فتح مسالك في الجبال، إصلاح أعمدة قطعها جيش التحرير الوطني، وضع سياجات من حول المحتشدات، تجنيد إجباري في مجموعات الدفاع الذاتي.
– اعتقال المشبوهين في المحتشدات، مع إطلاق النار مواجهةً والإعدام الجماعي.

قضية الحاج كربادو

في مطلع جوان 1955، في مقر قيادة كيمل، كان عجول متوعكا. فقد جُرِح في كتفه الأيسر أثناء هجوم تاجموت. كان عبد الوهاب عثماني، الذي كان ملمّا بعض الشيء بالتمريض، يعالجه بما توفر لديه من وسائل. ولم يكن لذلك نتائج باهرة، فكان يعاني من ارتفاع الحرارة وشدة الألم مع وجود ورمة بكتفه.

عجول الذي نحل وشحب وجهه، ممدد الآن على حصير من الحلفاء. وقُبالته عون اتصال، وصل لتوه من مقر قيادة القلعة. يتحقق عجول من ختم الرسالة، ثم يفتحها ويقرأها على بصيص ضوء مصباح البترول الشاحب. ثم يعبس. إن شيحاني يأمره بالتنقل إلى القلعة في أقرب الآجال. قال لي: "كنتُ جريحا، وكتفي الأيسر مشلول، وحمّى قاتلة تنتابني؛ كنتُ بالكاد أستطيع الحراك. فأجبتُ بالنفي. لن آتي. أنت، تدبّر أمرك لترسل لي الممرض مع الأدوية. هذا ما كتبتُ له. وفي اليوم الموالي، أُخبِرت بأن عباس لغرور قد مرّ بتامزة مع مجموعته.

ولم يأتِ لرؤيتي. ولكن هذا، كان من الأمور المعتادة في ذلك الوقت، فالعمل أولى من كل شيء آخر.

وبعد بضعة أيام جاءني اتصال آخر، يحمل هذه المرة رسالة، وقعها سويا عمر وعباس. ويأمرني المُوَقِّعان بالالتحاق بالقلعة فورا. ما العمل؟ شعرتُ حقا أن شيئا خطيرا قد حدث. وبما أنني لم أكن أستطيع السير، فقد جعلتهم يُركِبونني ظهر بغل، وقمتُ بالرحلة على عدة مراحل.[1] تصور المفاجأة التي واجهتني، وأنا أدخل مقر القيادة قبيل منتصف الليل، أرتعش من الحمى، وكتفي ممزق من الألم، وشيحاني يستقبلني بالصياح. كان يغلي غضبا. "لقد حدث شيء خطير. لقد اغتال الحاج كربادو قائد قطاع تبردقة." وكي أكون صريحا معك، فإن ذلك لم يؤثر فيَّ بشيء. "أتكون لديك فكرة عن دافع الجريمة؟" فقلتُ لا. فأعلن أمام عمر وعباس: "إذا كنتَ أنت لا تعرف، فأنا أعلمك أن هذه هي الفوضى. إن الأمر يتعلق بإخلال خطير بالانضباط. إلى أين نتجه؟ إذا كان كل واحد يقتصّ لنفسه؟ سيكون العقاب عبرة. لقد انتهى عهد الثورة المسالمة، الخ...الخ". لقد نسي أنه يُبشِّر مؤمنا. فهو إذا انطلق لا يتوقف أبدا. أما أنا فلم أعد أسمعه، غارقا في ألمي وتعبي، باذلا جهدي كي أبقى واعيا."

عند الفجر، لم يعد يدري عجول لِمَ لَمْ يعد ذراعه وكتفه يؤلمانه. ربما كان هذا بفضل الشاش الذي وضعه كحمّالة كما نصحه بذلك الممرض؟ هو الآن واقف مع عباس، مقابل صخور ضخمة تنزّ عبرها رطوبة، يحسّ بها أكثر مما يراها. يلُفّ بيد واحدة عدة فطائر رقيقة،

---

1) عموما، تستغرق المسافة الفاصلة بين كيمل والقلعة مدة ستة أيام. ولتوضيح الفكرة، فإن المسافة الفاصلة بين احمر خدو وصراع الحمام تدوم يوما واحدا، أما المسافة بين احمر خدو وجبل فورار، فتدوم يومين.

ويغمسها في قهوة كثيرة السُكّر وشديدة الحرارة، ويبتلع دون مضغ. وجه عباس يظهر بالكاد في الظلام، لكنه يسمع صوته الغاضب وهو يحكي: "حين وصلتُ من تامزة إلى القلعة، وجدتُ شيحاني يكاد يُجنّ من الغضب. لقد أمرني بأن أعود إلى "هنشير علي"، وأن أجلب له الحاج كربادو حيا أو ميتا، دون أن يترك لي وقتا لاستعادة أنفاسي." "لماذا؟ ما الذي حدث؟" "قضية خيانة زوجية. وأنا أعطي الحق لكربادو. لقد لطخ شرفه مسعود بن معاش، فقتله، إن ذلك من حقه."

يمسح عجول السّكّر في قعر الفنجان بقطعة فطير ويسأل: "إذا كان يعرف الدافع، فلماذا يطلب مني أن أبحث عنه؟" "من؟ شيحاني؟ إنه مغتاظ لدرجة أنه لا يدري ما يقول. يواصل عباس: "لقد تجنبنا الكارثة بقليل، فقد رفض الحاج كربادو مقابلتي. وقد جمع رجاله وأعلن الانشقاق، وربما بنيّة الالتحاق بصفوف الاستعمار: من يمكنه التنبؤ بما يدور في رأسه؟ ولكي يوافق على مقابلتي، كان عليّ ارتداء لباس مدني، ومقابلته على انفراد، وإقناعه بمرافقتي تحت حمايتي. وقد أقسمتُ له على ذلك. لقد خشي أن أقتله، أو أن أسلمه إلى شيحاني ليعدمه. فقلتُ له أن المحاكمة ستكون شكلية لأن القانون إلى جانبه، ولكن مع ذلك، فقد كان عليه الرجوع إلى القيادة قبل أن يثأر لنفسه. وقد استمع إليّ وتبعني إلى هنا."

أثناء رحلة العودة، قرر عباس المصحوب بالحاج كربادو، القيام بزيارة مفاجئة إلى قائد قطاع "سباخ خنشلة"، شخص يدعى عمر مـ... وها هو ذا ما روى لعجول: "وجّهنَا اتصالٌ نحو مزرعة حسنة المظهر، يحميها فريق حرس خاص حقيقي. وقد اعترض بعض الحراس دخولي. لا يهم. فقد دخلتُ بالقوة، وفي الداخل، يا للمنظر! قائد القطاع يعيش حياة ترف مع ما لا يقل عن أربع نساء، قد خُضّبت أيديهن

وأقدامهن بالحناء. فقلتُ له: "أهذا أسلوبك في الجهاد؟ أنت لا تختلف عن الاستعمار." في الفناء كانت ثمة سيارة ذات دفع أمامي، لا بد أنه كان يستخدمها للنزهة. "لقد خرق النبيل الزائف دون حذر قوانين الثورة. وقد أعدمه عباس في وقت واحد مع جواريه وحرسه، وأحرق المزرعة والسيارة، ونصّب تيجاني على رأس القطاع، وواصل طريقه نحو القلعة.

لم يكد شيحاني يُصدِّق. طعنتان في وقت واحد تقريبا في ظهر الثورة. كان يستمع إلى عباس في صمت، ثم طلب منه تقريرا للأرشيف، وأخيرا وليس آخرا، وضع الحاج كربادو رهن الاعتقال في انتظار محاكمته.

وأسأل عجول: " ألم يكن يتوجب على عباس توقيف عمر مـ... ومحاكمته في محكمة القلعة؟" "أجل ولكن سي عباس، ربما هو الوحيد من بين أعضاء القيادة في الأوراس، الذي لا يخلع طابع التقديس عن الثورة. وهو لا يقبل التساهل مع الضمير، ولا يعرف الشفقة عندما تتوجب معاقبة مرتكبي ما يعتبره انتهاكا للحرمات."

شهر جوان 1955، مقر قيادة القلعة. حضر جميع المسؤولين الذين استدعاهم شيحاني لتدارس الوضع (مرة أخرى!) باستثناء مسعود بن عيسى ومدور عزوي.

في السبعينيات اتصلتُ بعمر بن بولعيد في باتنة، وطلبتُ منه إفادتي عن دوره في جيش التحرير الوطني من 1955 إلى 1957. فأجابني بنبرة ساخرة: "لقد سبق لي أن ألّفتُ كتابا عن الثورة، ضخما بهذا القدر – ورسم بين يديه مساحة عشرين سنتيمترا على الأقل – ولكن الرئيس بومدين طلب مني عدم نشره، لأن الوقت لم يحن بعد." ولم أُلِحّ. فقد كانت ما تزال تتوفر يومئذ مصادر معلومات أخرى.

ولنعد إلى القلعة واجتماع جوان 1955. أنهى عجول قراءة تقريره. كل شيء يسير على أحسن ما يرام. تحدث عن كيمل قبل التفتيش الذي قام به، ثم بعد التفتيش، وهنا يكمن الفرق، بالأرقام الصريحة: زيادة عدد المجاهدين بثلاثة أضعاف تقريبا، رفع عدد الأسلحة وتحديثها – صندوق ذخيرة، أربع بنادق رشاشة، عدة مسدسات رشاشة– الأمن الغذائي بفضل المخزونات المحفوظة في مطامير سرية.

ويلاحظ شيحاني: "إن كنتُ قد فهمتُ جيدا، فقد أصبحت كيمل حصنا أمريكيا!" ويضيف عجول، تحرّكه ذكرى كتفه المصاب : "أنوي فتح عيادة لضمان العلاج الأولي على الأقل. فقد يكون الموت أحيانا أفضل من الألم." ويذهب شيحاني أبعد من ذلك: "ولِمَ لا يكون مستشفى بالمرة؟ فقد حصلنا تحديدا على عتاد جراحة."

جولة عمر بن بولعيد في الأوراس الغربي

أما عمر بن بولعيد وعباس لغرور، فقد قادتهما جولتهما إلى الخروب، على بعد نحو عشرين كيلومترا شمال قسنطينة ، وحتى برج بوعريريج غربا، عبر جبال بوعريف وكسرو وتلماط وبوطالب وأولاد تبان والمعاضيد. وقد تكررت الاشتباكات مع العدو، سواء في الذهاب أو الإياب، ولكنهم لم يستولوا على أي سلاح. وقد اشتبكوا مرة مع "الطابور" المغربيين، الذين يقول عنهم عباس، أنهم يقاتلون جيش التحرير الوطني، دون رحمة في قلوبهم.

وأعلن عمر أنه أدخل تعديلا شاملا على هياكل الأوراس الغربي:

1 – الفصل الفعلي بين المهام العسكرية والوظائف المدنية.

2 – إعادة تحديد دور الاتصال، احترام السُلّم التصاعدي وفق تخطيط: الخلية، القطاع، الناحية، مقر قيادة الحارة.

3 – اقتسام مدينة باتنة بين الطاهر النويشي والحاج لخضر. فهي توفر للرجلين مؤونة كافية، بفضل الخلايا المدنية العديدة الناشطة جدا.

4 – لمعالجة أزمة الأسلحة، قال عمر أنه أعطى أمرا لجميع المسؤولين بمهاجمة فرنسا[1] والاستيلاء على أسلحتها.

ثمة ما يقال وما لا يقال. ويعرف عمر– أو ربما لا يعرف – أن عباس قد حرر تقريره الخاص عن جولتهما، يؤكد فيه أن تصرف عمر، قد بث الاضطراب في بال أكثر من واحد، من مسؤولي غرب الأوراس. فقد ظهر خلاف عنيف بين عباس وعمر أثناء اجتماع فوغالة بجبل وستيلي، بناحية باتنة، الذي حضره، زيادة عن عمر بن بولعيد وعباس لغرور وحسين برحايل، كل من أحمد عزوي قائد فوج الكوماندوس المتطوعين، ونائبه محمد بولقواس، ومصطفى رعايلي قائد قطاع سطيف، وعبد الحميد طورش قائد قطاع بريكة، وأحمد نواورة قائد قطاع أريس، ومحمد بن مسعود وعلي بعزي قائدا قطاع مشونش، والحاج لخضر والطاهر النويشي قائدا قطاع باتنة، ومسعود بن عيسى وعمار معاش قائدا قطاع الشلية، ومدور عزوي ابن عم أحمد عزوي، وهو نفسه عضو الكوماندوس.

ولفهم أسباب هذا الخلاف، ينبغي لنا العودة إلى مطلع شهر أفريل 1955. فقد تمّ انتخاب عمر بن بولعيد لتوه مسؤولا عن الإدارة. ولأنه واعٍ بأن مهمة القائد الحقيقي الرئيسية، إنما هي القيادة، وأنه لذلك يحتاج إلى قوة ضاربة ذات مصداقية، فقد شرع دون علم الآخرين، وبكل الطرق والوسائل، في إنشاء فصيل خاص من نحو مائة بندقية تابعة

---

1) حين يتحدث أحد الثوريين عن مهاجمة فرنسا، فهو لا يقصد البلد أو الشعب الفرنسي، بل الاستعمار، متجسدا في جيشه وأجهزة قمعه.

له وحده. وسنحت فرصة في الفترة نفسها، فقد جمع شخصٌ يدعى محمد بولقواس، فصيلة متنقلة من المتطوعين، في غابة سقاف جنوب لامبيز. وكانت فكرته، الحميدة في ذاتها، هي مساعدة الأفواج التي تلاقي صعوبة في كل مكان وكل وقت. وقد أجبر عمر، الذي يريد تنصيب رجاله، بولقواس على التنحي عن منصبه لفائدة عزوي، أحد خُلصائه. وإضافة إلى ذلك، وبما أن هذا الفصيل المتنقل لا يزيد عن أربعة وعشرين رجلا، فقد أمر أحمد نواورة ومسعود بن عيسى، بتجنيد عناصر جدد في تكتُّم. ونجح الرجلان في جمع نحو ستين مجاهدا، لكن بقيت مسألة تسليحهم. كان عمر في جولته التفتيشية، يُلحّ كثيرا في بعض الأحيان، على القادة المحليين ليُسلّموه أسلحة، ولو تطلب ذلك نزع أسلحة مجاهدين آخرين.

كان حسين برحايل ناقما. وقد أعرب عن ذلك. فوضعه عمر فورا رهن الاعتقال، بنيّة إعدامه خفية. فاعترض عباس بعنف كعادته. واستشاط عمر غضبا فقال له: "هذا لا يفاجئني منك يا عباس، فأنت تنتمي إلى عشيرة نموشية، لم تقبل انتخابي على رأس الثورة." فأجاب عباس: "يا عمر، لا تخلط شعبان برمضان! إن تصرفك غير لائق ولن أدعك تفعل."

وتردد عمر، فقد كانت سلطته على المحك. وقَبِل بتسوية. فحالة حسين برحايل، ستخضع لتحكيم شيحاني عند نهاية الجولة. وفي انتظار ذلك، سيبقى رهن الاعتقال.

والآن في القلعة، فإن شيحاني الذي يعرف برحايل وولاءه للثورة، يطلب تبريرات من عمر: "لماذا يُنزع سلاح برحايل ويُوضع رهن الاعتقال؟" فأخذ عباس الكلمة: "إنه بريء، لا يمكن مؤاخذته على شيء." فصاح عمر: "لقد قلّ أدبُه معي أثناء الاجتماع."

فقال عباس: "هذا ليس صحيحا سي عمر، فأنت قمت باستفزازه. كان عليه أن يتحدث. ولم يكن بإمكانه السكوت!"

ويرد عمر: "أنا رئيسه، وعليه احترامي وطاعتي."

ونجح شيحاني في فرض كلمة الفصل في المسألة. وكخبير نفساني وعارف بالأثر المُدّمر لفعلٍ متهور أو زلة لسان، فهو يُفضّل تجاوزها. وتم إطلاق سراح حسين برحايل، الذي كان منزوع السلاح ورهن الاعتقال منذ ثلاثة أيام[1]، في اليوم الرابع. ولتهدئة غيظ عمر، طلب شيحاني من عجولٍ معاند، تزويده بأسلحة لصالح فصيلة من الكوماندوس المتطوعين.

فأجاب عجول، أنه لا يتوفر على سلاح. فألحّ شيحاني: "أعطه ما لديك، فحتى مخزون قديم يفي بالغرض! تدبّر أمرك." فصاح عجول متعجبا: "أتدبّر أمري؟ كيف؟ ليس ثمة جندي يقبل بتسليم سلاحه، وخاصة إذا كان قد حصل عليه من معركة." ثم وضع يده على جبينه. "آه، تذكّرت. فقد حدثني مصطفى بوستة عن شيء ما." وتبين أن المعلومة صحيحة. وسلّم شيحاني نحو أربعين بندقية بذخيرتها إلى عمر، وأرسله للقيام بجولة ثانية، بدون عباس هذه المرة، مناشدا إياه بأن يهاجم فرنسا في أغلب الأحيان، وأن يرسل المزيد من الأسلحة إلى القلعة."

لا يعلم شيحاني بذلك، ولكنه ارتكب لتوه خطأً فادحا. ولن يفوّت عباس الفرصة بعد ذلك ليروي له، كيف أن عمر قد وصفه بالنموشي (وذلك ليس صحيحا)، المعادي لعائلة بن بولعيد. ولم يكفّ عمر، عن ترديد أن إرث أخيه مصطفى، قد تعرض للخيانة.

---

1) استشهد حسين برحايل بعد شهر في تافاسور خلال اشتباك مع اللفيف الأجنبي.

وأعلن عباس: "لحسن الحظ أن المجاهدين يعرفونه جيدا، حتى لا يقعوا في فخه."، ثم أضاف بنبرة مرارة، أن ناحية أريس قد أصبحت من الآن فصاعدا محرّمة عليه.

واجتهد شيحاني في تسوية مشكلة عمر. "عليه بطاعة الأوامر وإلا فسيدفع الثمن".

ثم انتقل إلى قضية الحاج كربادو. كان وحده بخلاف الجميع مناصرا لعقاب يكون عبرة.

تأسس عباس مدافعا عن القاتل. "إنه رجل مُسنّ في شرفه، وهو مقاوم من بين الأوائل، ولا يُؤاخَذ على شيء. وقد كان تصرّفُه عن نيّة سليمة." وقال عجول أنه يجب تجريده من السلاح لبضعة أيام دون معاقبته. "فهي ليست، كما يقال، مسألة خيانة، إنها قضية أخلاقية بسيطة." وانتهى شيحاني الذي كان مترددا في البداية، إلى الرضوخ فحُكِم على كربادو بالتنقل دون سلاح لمدة عشرة أيام، مع تحذيره رسميا بأن النظام هو السلطة العليا.

ما زلنا في الأسبوع الأول من جوان 1955. على عمر بن بولعيد المهان والمجروح الأنا، أن يرحل مجددا، وحيدا، لتنفيذ تفتيش ثان وتجسيد قدَره المحتوم والمشؤوم. وهو يفكر بل ويعلن صراحة، أن أخاه لم يعرف كيف يختار مساعديه، و"سندفع جميعا عواقب هذا الخطأ."

استأنف شيحاني، الذي لا يكاد يعرف كعادته إلا العمل، الاجتماع الذي دام اثني عشر يوما.

فأكد تعيين تيجاني في قطاع خنشلة، وسيدي حني في تبسة. أما قطاع باتنة فكانت له قيادة برأسين: الطاهر النويشي والحاج لخضر. وكذلك قيادة أريس مع أحمد نواورة ومدور عزوي. وأضاف أن أعالي الناس ستقسم بين خنشلة وأريس.

ولأول مرة يثير جهرة، الـ
غادر مركزه في الحارة دو
ثم أعلن أن الوقت قد حان،
حدد دورهم: "سيقومون بـ
وسيرسلون رسائل إلى "القو
الأجنبي، لحثهم على الفرار
الجدد، وسيعلّمونهم ضمن ا
جميع المشكلات التي تطرأ
الواضح أخيرا، أن المحافظي
العسكريين." (1)

تقنين العمل الثوري

وقام بسحب سلسلة من
والفرنسية لنشرها في النو
النمط، تُطلَب من كل مجاه
مرور خارج قطاعه، يُنتزع
ويتنقل أعوان الاتصال لي
مورّدين شيحاني بآخر الأ

وقام بحذف الجانب إ
حقيقي لحرب العصابات
تلقائية؛ ولا هو مناورة عسك
من اختيار الميدان، وساعة

(1) كان أول محافظ سياسي عيّنه شيح

ولأول مرة يثير جهرة، المشكلة التي طرحها مسعود بن عيسى: "لقد غادر مركزه في الحارة دون إذن القيادة. سنحاسبه على ذلك جبرا." ثم أعلن أن الوقت قد حان، لإنشاء سلك المحافظين السياسيين الذين حدد دورهم: " سيقومون بعمل الدعاية والشرح في أوساط السكان، وسيرسلون رسائل إلى "القومية" والطابور والقناصين وأفراد اللفيف الأجنبي، لحثهم على الفرار. وسيتولون التربية الإيديولوجية للمجندين الجدد، وسيعلّمونهم ضمن احترام قواعد النظام الأساسية. وسيتكفلون بجميع المشكلات التي تطرأ بين السكان وجيش التحرير الوطني. ومن الواضح أخيرا، أن المحافظين السياسيين سيعملون تحت سلطة القادة العسكريين." [1]

تقنين العمل الثوري

وقام بسحب سلسلة من التعليمات، على آلة الرونيو، بالعربية والفرنسية لنشرها في النواحي. وأعدّ جوازات مرور جديدة موحدة النمط، تُطلَب من كل مجاهد لدى تنقله. فكل رجل يوجد بدون جواز مرور خارج قطاعه، يُنتزع منه سلاحه، ويُقيّد حتى تتبين حسن نيته. ويتنقل أعوان الاتصال ليلا ونهارا، مثل ثيران ناعورة لا تنتهي، مورّدين شيحاني بآخر الأخبار، الآتية من جميع النواحي.

وقام بحذف الجانب الارتجالي من الكمائن، وعمد إلى تنظيم حقيقي لحرب العصابات. وأكد: "إن الكمين ليس في شيء عملية تلقائية؛ ولا هو مناورة عسكرية انتحارية. إنه يستجيب لمعايير دقيقة، من اختيار الميدان، وساعة الهجوم، وإمكانيات الانسحاب."

---

1) كان أول محافظ سياسي عيّنه شيحاني، هو عثمان كعابشي بناحية كيمل.

هو ذا ما رواه لي مصطفى بوستة في تكوت في حدود سنة 1969. في البداية كان من الصعب عليّ أن أُبعِد عن ناظري، وجهَه الذي خرّبه الانفجار، الذي أودى بحياة مصطفى بن بولعيد في مارس 1956. "في نهاية اجتماع القلعة المطوّل، بدا لنا أن شيحاني قد نجح في فرض نفسه كقائد أعلى دون عنف، بالحفاظ على حساسية كل واحد، بعد اندلاع الثورة بثمانية أشهر فقط، برغم صغر سنّه." "كم كان سنُّه؟" "أوف، لعله لم يكن يزيد عن الخامسة والعشرين. لقد كان القائد. كانت قوته تكمن في انعدام الأحكام المسبقة لديه. لقد كان يسبح فوق الاضطرابات العشائرية، ولم يكن يولي بالا، إلا لقيمة المجاهد الفردية، وعلاقته الشخصية بالجهد الجماعي." وسألني إن كنتُ قد سمعت عن "التويزة"، أو المساعدة المجانية التي يتلقاها الشاوي من متطوعين، عندما يحصد قمحه أو يذروه، وعندما يبني منزله، أو يزوج أبناءه أو يدفن قريبا. "كانت الثورة أشبه ما تكون بالتويزة؛ فقد كان كل واحد يضع يده في العجين." "نعم، ولكن عمر بن بولعيد كان مع ذلك يمثل خطرا، أليس كذلك؟" "ليس في الحال، فقد كان يبدو مروَّضا. تماما مثل بن عيسى وآل عزوي (علي ومدور). صحيح أنهم كانوا شبه منشقّين، ولكن شيحاني كان عائدا من تبسة، مكلّلا بنصره على منشقّي النمامشة، الذين كانوا أشد ضراوة – صدّقني – من مفسدينا في الشلية! وقد كذّبَنا المستقبلُ، ولكن مَن كان بمقدوره التنبؤ بذلك؟"

أراد عجول العودة إلى كيمل، "حيث ما يزال لديّ الكثير من العمل" يقول لشيحاني. فرفض شيحاني تركه يذهب. انصاع عجول، ثم عاد إلى مطلبه مرة إثر مرة، حتى اضطر شيحاني بعد طول إلحاح، إلى الترخيص له بإجازة لمدة شهر. لا أكثر. واغتنم عباس الفرصة، هو الآخر، ليطلب إذنا بالذهاب لممارسة رياضته المفضلة: الحرب. فحصل على الإذن.

ظل شيحاني بعد رحيلهما وحيدا، ينفخ جمر الثورة. صارت الأخبار سارة نادرة تماما، ولكنه مثل مصطفى يتكيّف معها. واستمرّ يملي على كُتّابه، ما كان سيصبح قانون الثورة الحقيقي.

1 – لم تتوقف المعركة ضد فرنسا في سنة 1830. فقد اتخذت المقاومة عديد الأشكال، بدءا بالتمسك العنيد باللغة والدين، برغم عنف التدخل الاستعماري ومفارقاته، حتى الانتفاضات المسلحة.

2 – إن ثورة نوفمبر 1954 ليست سوى حصيلة مسار طويلٍ وعميق. فقدرة تحمل الفلاح الجزائري كبيرة، ولكنها ليست غير محدودة. وينبغي البحث عن دوافع الثورة ضد السلطة الاستعمارية في المضايقات والتنكيد.

3 – ليست الثورة حرب عصابات فقط في الجبال، وإرهاب في المدن – وإن كان صحيحا أنها تهدف إلى انعدام الأمن في صفوف العدو – فهي على الخصوص تريد التكفل بالأهالي وتأطيرهم بمحترفين. فالهواة منبوذون تماما، مثل الرجل المتناقض والمتقلب. كما أن العنوان السياسي ليس مهمّا بتاتا، ما دامت المُثُل الثورية محترمة.

4 – ينبغي الدّسّ على إدارة الاحتلال، بدءا من أسفل درجة. فليس محظورا استخدام الهيئة النظامية الأهلية، مثل أعوان الشرطة والحراس البلديين وحراس الغابات، و"القياد" والقضاة وحراس السجون، وجميع من له قدم في المنظومة الاستعمارية.

5 – ليس المقاوم بالضرورة بطلا ذا صفات مُختبرَة. بل هو بالأحرى رجل متكتم وصبور، يعمل كل يوم دون كلل، وعلى الخصوص دون تبجح، متجنبا التهميش. إن الثورة عمل أناس بسطاء وأشداء.

6 – للتخريب – بسيطا كان أم كبيرا – تأثير على جهد المحتل. فعدم دفع الضرائب، وعدم استهلاك التبغ، وقطع عمود هاتفي، أو سدّ

طريق، أو إلصاق منشور، جميعها أعمال تُضعِف معنويات العدو، دون مخاطر كبيرة على السكان، الذين طالما رفض شيحاني، على غرار مصطفى بن بولعيد، تعريضهم للعقاب الجماعي، كما تمارسه فرنسا. ولكنه يوضح من جانب آخر، أن تعسف الفرنسيين، كما كان له من الأثر، أن جعل من مستعمَرين غير واعين، مستعمَرين واعين، فكذلك أعمالهم الانتقامية، تجعلهم أكثر تطرفا، وأكثر تقبلا للأفكار الثورية. ولطالما قال أن الجزائري، لم يعد ذلك الكائن المستكين، الذي يقبل قدَره بجبرية.

7 – على الثورة الجزائرية واجب هدم البنيات القائمة، وتعويضها بنظام جديد. فهي لا تهدم فقط، كما يزعم الفرنسيون.

8 – ليس جيش التحرير الوطني جيش مرتزقة، ولكنه جيش من رجال، يُبغضون الظلم والجور.

9 – يعتقد شيحاني يقينا، بوحدة الشمال الإفريقي. وهو مناصر لاشتعال المغرب العربي كلّه.

هي ذي الأفكار الرئيسة لشيحاني، كما استقيتُها من رفقائه. وقد قالوا لي أيضا، أنه كان يحب كتابة المناشير بالعشرات، بالعربية والفرنسية، وأنه كان يطلب من أعوان الاتصال، توزيعها في المدن، أو إلصاقها على الجدران. وكان يحب أيضا تحرير رسائل، موجهة شخصيا إلى أفراد اللفيف، وإلى الطابور المغربي، حيث يشرح لهم، أن عليهم الكفّ عن المشاركة في حرب ظالمة. كما استخدم آلة الرونيو مرة، لإخراج جريدة من نحو ست صفحات، أرسل منها نسخا حتى إلى تونس.[1]

---

1) اغتنم شيحاني سفر عمرو المستيري في جوان 1955 نحو المشرق، ليكلفه بإبلاغ أحمد بن بلة من الوفد الخارجي بالقاهرة، بأنه هو، شيحاني، سيد أوراس النمامشة الآن، وطلب منه أن يعطيه في وقت واحد، مع الجريدة المسحوبة على الرونيو، قائمة باحتياجات جيش التحرير الوطني من سلاح وعتاد مختلف. لسوء الحظ، أوقف الفرنسيون المستيري في بوشبكة، على الحدود التونسية الجزائرية.

غادر عجول بعد أن أذن له شيحاني بذلك، مقر قيادة القلعة في وقت واحد مع عمر بن بولعيد، الذي كان عليه القيام بتفتيش ثانٍ. توقف عجول في كيمل، وواصل عمر باتجاه الشلية. عند الانطلاق من القلعة، كان عجول مرفقا بأربعة رجال، أصبحوا ثلاثين عند وصوله إلى كيمل، التي كان ينوي، كما قال، مواصلة تنظيمها في العمق. يجدر الاعتراف بأنه مغرور قليلا، عندما ينظر إلى ما أنجزه من عمل في هذا الوقت الوجيز! فقد أصبحت كيمل، التي هي من إنشائه، ناحية نموذجية، حيث أفواج المجاهدين فيها، أفواج حقيقية، مسلحة ومغذاة جيدا وقادرة على القتال.

يروي عجول: "تصور، لقد كان لدينا من القوة، بحيث لم أتردد لحظة واحدة، في إرسال إنذار نهائي لفرنسا؛ فقد منحتُها أجل ثلاثة أيام، لمغادرة كيمل ووادي العرب، وإلاّ تكبّدتْ خسائر بالغة. وقد وفيتُ بوعدي! فمراكز زلاطو والولجة ولمسارة وتكوت وتاجموت، أي عموم الدائرة المحيطة بكيمل، تعرضت جميعُها لهجمات بلا توقف. وقد فرّ "القومية" بالعشرات، والتحقوا بجيش التحرير الوطني. وقد سمح لنا كمين في قايس، بالاستيلاء على بندقيتين رشاشتين، وعشرين سلاحا فرديا.

وقد شكّلتُ مع عبد الوهاب عثماني ومصطفى بوستة وعثمان كعابشي، نوعا من المجلس الاستشاري لتسوية النزاعات، بين جيش التحرير الوطني والسكان. يمكنك القول، أنه لم يكن ثمة، في بداية الثورة تماما، تعايش سلمي بين الجنود والشعب. فلأسباب متصلة بالكرامة وبالعشائرية والقمع، لم يكن الناس يفهمون، لماذا كان عليهم التعرض للتمشيط والتفتيش، والسرقة والإعدام الجماعي، على أيدي الجنود الفرنسيين، بعد كمين أو هجوم لجيش التحرير الوطني.

لقد كانوا قبل ذلك وبعده، مجرد متفرجين على حرب بين جيشين. كان ينبغي أن نشرح لهم أنهم جزء أصيل مثلنا، وأن لدينا عدوا مشتركا، ومصيرا مشتركا في الوقت نفسه. وقد قبلوا ذلك بصعوبة."

عمد عجول إلى تنصيب محمد بن مسعود على رأس قطاع مشونش، ولكن بدون مدينة بسكرة التي احتفظ بها لنفسه، لأنه كان يعرف أهم العائلات بها. فلطالما عملت معه مباشرة، ولم تبخل قط بهباتها، من المال وورق الطباعة أو الأدوية.

في أواخر شهر ماي 1955، استقبل قائدَ قطاع مشونش الجديد، أحمد بن عبد الرزاق. كان هذا الأخير، وهو أصيل مشونش، ضيفا ثقيلا، لأنه كان معروفا على أنه مصالي في الصميم. فقال لمحمد بن مسعود: "جئتُ من الجزائر لأضع نفسي في خدمة جيش التحرير الوطني". ردّ محمد المُحرَج الذي تجاوزه الحدث، بأنه لا يملك سلطة قبوله في قطاعه، ونصحه بالتوجه إلى رئيسه مصطفى بوستة.

وبما أن بوستة كان غائبا، فإن نائبه أوغالي هو من استقبله. فعرض بن عبد الرزاق مرة أخرى خدماته، إضافة إلى كمية من الألبسة العسكرية الجديدة، ومبلغ عشرين ألف سنتيم. فقبل أوغالي الهبات، ووجهه نحو مسؤول آخر. وفي أثناء ذلك، تم إبلاغ عجول. "حتى بالنسبة إليّ، كان من الصعب الفصل. فأرسلتُ كلمة مع اتصال إلى شيحاني طالبا منه تعليمات."

فقلتُ له: "لقد كنتَ صريحا حقا!" فقال: "لطالما كنتُ صريحا مع الجميع. ولا تنس أنني ابن النظام، وأن الانضباط عندي مقدّس. وأجابني شيحاني عن طريق الاتصال نفسه، بأن أقبل بن عبد الرزاق في التنظيم، ولكن بصفة مدني فقط. فلا يحق له مغادرة قطاع مشونش، ولا التدخل في المسائل العسكرية." "ولماذا؟" "لقد كان

شيحاني *دائم الحذر من بن عبد الرزاق، كما كنا معنا جميعا*، ومصطفى نفسه. ذلك أنه مصاليّ مُخلِص. ثم إن كل هذه الهبات لجيش التحرير الوطني لم تُعجبه ، وهي عمليات إغراء لم يكد يفهم أهدافها."

ولكن ها نحن أولاء. فما إن طلب عجول أن يؤتى ببن عبد الرزاق، حتى أخبروه بأنه توجه إلى الشلية ليلتحق بعمر بن بولعيد: والرجلان متفقان مثل سارق ولص. عرض بن عبد الرزاق المال والتجهيز، ووعد منها المزيد، فلم يتردد عمر لحظة واحدة: وأعلمه أنه انتُخِب قائدا أعلى للإدارة في جمعية سيّدة. وبحكم سلطاته، عيّنه ناظرا رئيسيا للمالية بأثر فوري، ومنحه كامل الحرية في التنقل، ليس في الأوراس فحسب، بل في البلاد كلها لجمع الأسلحة والمؤن. وعليه، رفع تقاريره مباشرة إلى نائبه محمد الشريف بن عكشة.

بدأ عمر بن بولعيد يكشف عن حقيقة نواياه. فلم يكتف بتعزيز فصيل مجاهديه الذي بلغ مائة وخمسين رجلا، بل صار يغيّر قادة النواحي والقطاعات، ويعوضهم بالتوابة [1] أو بمخلصين له. ومسح جبال أريس والشلية وأولاد فاضل وفم الطوب وواد طاقا. وأقام علاقات ممتازة مع أحمد نواورة وعمار معاش مسعود بن عيسى وأحمد ومدور عزوي ومسعود بلعقون.

وها هو الآن، قد حصل على خدمات أحمد بن عبد الرزاق. غير أن استفزازاته تجاه شيحاني، بقيت إلى الآن عند هذا الحد.

سارع عجول إلى إخطار شيحاني. فكان رد فعل هذا الأخير سريعا: فقد أمر جميع قادة القطاعات، في الجهة الواقعة بين واد عبدي ولبيض، وحتى واد طاقا والشلية شمالا، بقطع كل اتصال بعمر، وبأخذ أوامرهم مباشرة من مقر القيادة المركزي بالقلعة.

---

1) التوابة جمع توبي، عشيرة الأوراس الرئيسية، تنتمي إليها عائلة بن بولعيد.

كان عجول متعبا وكتفُه يؤلمُه. فقرر الذهاب للاستراحة في درمون. كان الحَبّ قد نضج، منذ شهر على الأقل. ولم يتمّ حصادُه، إلا منذ نحو عشرة أيام.

ومرّ عجول أمام باقات السنابل، التي كانت تجف تحت الشمس، وسط حقول صغيرة جدا. وحثّ الخطى، وقد جلبته نكهة حمّام شبّورة الكبريتية، التي يأمل أن يُهدِّئ ماؤها الحارّ بعض آلامه. وبقي هناك ليلة ونصف يوم.

قضية الغبروري

أذكر هذا الاستحمام لأنه مرتبط في ذاكرتي بقضية الغبروري. فأثناء غيابي، أوقف قائد ناحية كيمل عبد الوهاب عثماني، مقاوميْن اثنين أجنبيين عن الناحية، لعدم توفرهما على جواز مرور وقيّدهما. ولدى عودتي إلى مقر القيادة، أبلغني بأمرهما. وعندما رأيتُ الرجلين، عرفتهما: فهما عمار معاش ومحمد الغبروري من قطاع الشلية. فأمرت بإطلاق سراحهما.[1] وعن أسئلتي، أجابا بجهلهما بالقانون الجديد، الخاص بتنقل الجنود، وقد استضفتُهما على كل حال ليومين في كيمل. فطلبا مني تسليمهما جوازيْ مرور للذهاب إلى القلعة للعلاج هناك؛ ولم يبدُ عليهما التوعّك، ولكن عبد الوهاب عثماني حقنهما تحسبا لكل احتمال، بحقنة مُضادٍّ حيوي لكل واحد. أما أنا، فقد لعبتُ ورقة الشفافية: فقد أمضيتُ لهما جوازيْ المرور، وأعطيتهما بغليْن للسفر.

---

1) هذان الرجلان المتمركزان عادة في الشلية في حالة شبه انشقاق، يجهلان على الأرجح التنظيم الجديد.

واتجه الرجلان نحو الجنوب الشرقي، واجتازا مجرى وادي العرب، وتجاوزا تبردقة، وتوغلا داخل النمامشة حتى قرية العامرة، وهي آخر محطة قبل مقر قيادة القلعة. في الواقع، بقيا هنالك محصورين طوال الليل، بأمر من شيحاني، الذي أرسل إليهما في الصباح الموالي، عباس الغرور لسبر نواياهما. وراح عباس الذي لا شكوك لديه بشأنهما، والذي يعتبر حذر شيحاني مبالغا فيه، يستنطقهما رغم ذلك. فيكرران عليه تصريحهما، أنهما مريضان ويرغبان في أن يفحصهما ممرض مقر القيادة، لا أكثر. فليكن! أنزل عباس ممرض القلعة؛ يفحصهما، فلا يجد لديهما شيئا غير عادي. ولكن الرجليْن يُلِحّان: لماذا يُرفَض صعودُهما إلى القلعة؟ أليسا من جنودِ جيش التحرير الوطني؟ وانتصبت أمامهما عباس.

لقد بدأ يَشُكّ في حسن نيتهما، ولكنه لا يُبدي ذلك. ومرّ النهار. وفي المساء دعاهما على الكسكسي المعتاد. كان محمد الغبروري يتحدث وهو يأكل، ولا يتوقف عن الكلام. وأمام مستمعين من الجنود والمدنيين، بدأ ينتقد صراحة القيادة والإدارة، ويزعم أن الطريق الذي خطه مصطفى بن بولعيد قد انحرف، وأن الثورة في خطر. كان عباس متضايقا جدا، فأراد النهوض؛ وبينما هو يستند على يديه ليقف، إذا به يلاحظ مسدسيْن مخفييْن تحت المائدة. إنه خرق فادح لقواعد اللياقة. لقد انتُهكت قوانين الضيافة: ولم يعد يحق لهما الاستفادة من حمايته.

فنهض بوثبة واحدة، ومثلما في معركة، دفع الرجلين بقوة، وقلب الطاولة واستولى على المسدسين. ونودي جنديان ففتّشاهما ثم قيّداهما. فاستعلى الغبروري، وهدد عباس بأقسى العقوبات. وتمت مرافقتهما حتى مقر القطاع. وأُفرغت كنانتاهما، فأخرج منها

واتجه الرجلان نحو الجنوب الشرقي، واجتازا مجرى وادي العرب، وتجاوزا تبردقة، وتوغلا داخل النمامشة حتى قرية العامرة، وهي آخر محطة قبل مقر قيادة القلعة. في الواقع، بقيا هنالك محصورين طوال الليل، بأمر من شيحاني، الذي أرسل إليهما في الصباح الموالي، عباس الغرور لسبر نواياهما. وراح عباس الذي لا شكوك لديه بشأنهما، والذي يعتبر حذر شيحاني مبالغا فيه، يستنطقهما رغم ذلك. فيكرران عليه تصريحهما، أنهما مريضان ويرغبان في أن يفحصهما ممرض مقر القيادة، لا أكثر. فليكن! أنزل عباس ممرض القلعة؛ يفحصهما، فلا يجد لديهما شيئا غير عادي. ولكن الرجليْن يُلِحّان: لماذا يُرفَض صعودُهما إلى القلعة؟ أليسا من جنودِ جيش التحرير الوطني؟ وانتصبت أذنا عباس.

لقد بدأ يَشُكّ في حسن نيتهما، ولكنه لا يُبدي ذلك. ومرّ النهار. وفي المساء دعاهما على الكسكسي المعتاد. كان محمد الغبروري يتحدث وهو يأكل، ولا يتوقف عن الكلام. وأمام مستمعين من الجنود والمدنيين، بدأ ينتقد صراحة القيادة والإدارة، ويزعم أن الطريق الذي خطه مصطفى بن بولعيد قد انحرف، وأن الثورة في خطر. كان عباس متضايقا جدا، فأراد النهوض؛ وبينما هو يستند على يديه ليقف، إذا به يلاحظ مسدسيْن مخفييْن تحت المائدة. إنه خرق فادح لقواعد اللياقة. لقد انتُهكت قوانين الضيافة: ولم يعد يحق لهما الاستفادة من حمايته.

فنهض بوثبة واحدة، ومثلما في معركة، دفع الرجلين بقوة، وقلب الطاولة واستولى على المسدسين. ونودي جنديان ففتّشاهما ثم قيّداهما. فاستعلى الغبروري، وهدد عباس بأقسى العقوبات. وتمت مرافقتهما حتى مقر القطاع. وأُفرغت كنانتاهما، فأخرج منها

المقاومون رزما من المناشير، بطول عشرة سنتيمترات على عشرة، مكتوبة بالعربية. وسكت الغبروري. ورآهم يقرّبون المناشير من مصباح الفحم، ويوجهونها نحو الضوء. واستمع عباس لفك شفرتها الشاقة، في مزيج من الدهشة والغضب [1]. الدهشة لأنه مكتوب فيها أنه هو، عباس بمساعدة شيحاني وعجول قد خانوا الأوراس، وأنه على وشك بيعه بأرخص الأثمان للنمامشة.

خلال هذه الليلة نفسها، كان عمار معاش محبوسا ومقيّدا دائما في سجن بالقطاع، تحت حراسة شخص يدعى أحمد الغول، الذي أعلن له عباس: "لو فرّ أو حدث أي شيء، فستتحمل المسؤولية كاملة." أما الغبروري، فقد تم نقله إلى مقر قيادة القلعة، حيث تم استنطاقه ليلة ويوما، ثم تم إعدامه دون أي شكل آخر من المحاكمة. [2]

في اليوم الموالي لإعدامه، في أول الليل، وصل عجول إلى العامرة، حيث كان ينوي الاستراحة قليلا، قبل مواصلة السير حتى القلعة. في مقر قيادة القطاع، كان يسود جو ثقيل. أخبره اتصال بقرب مجيء عباس. وبدت على موسى رداح، قائد قطاع العامرة، جميع علامات التأثر البالغ. فقد قبّل عجول، وانتحى به جانبا ثم قال له: "سي عجول، لقد قتلوا الغبروري. لقد مات. إن عمار معاش موجود هنا، مقيد وحبيس." لم يفهم عجول على الفور. فواصل موسى: "سي عباس هو من قتله، لا شك أنه سيقتل عمار!" "ولماذا؟" سأله عجول، فأجاب بحذر "لا أدري". يعلم عجول أن موسى رداح على علم، وأنه لا يتكلم خوفا من عباس. وهو يعرف أيضا أن عمار معاش يكون ابن عمه.

---

1) كان عباس لغرور غاضبا على الخصوص، لأن المشبوهيْن هما بالتحديد، من تخلفا عن موعد 31 أكتوبر 1954 بعين سليمان، وتركاه يهاجم بمفرده مدينة خنشلة.

2) بعد اندلاع الثورة بثمانية أشهر، كانت هذه أول مؤامرة للإطاحة بالقيادة، عن طريق القتل. وستكون ثمة مؤامرات عديدة أخرى.

وقرر عجول زيارة السجين في زنزانته. تعرف إليه أحمد الغول، فتركه وحيدا مع عمار. وهكذا عرف بشأن المناشير. "مسعود بن عيسى هو من كتبها – يقول عمار – أنا لا دخل لي." ووعد عجول عمار بالتدخل لصالحه لدى عباس. غير أنه أضاف: "إنها قضية تتجاوزني. لقد كنتَ أنت والغبروري سيّئَيْ النية معي."

بعد الوجبة أُعلن وصول عباس. كانت في عينيْه نظراتُ الأيام السيئة. خاف عجول. فسارع إلى نفي الإثم عنه. "سي عباس أنا لستُ مخطئا! فقد سلمتُهما جوازيْ مرور بكل حسن نية." لا يمكن توقع ردود فعل عباس أحيانا. "اقرأ هذا المنشور! إنه يقول إنك وشيحاني تريدان بيع الأوراس إلى النمامشة. هذه حماقة! أسمعتَ من قبل بمثل هذه البلاهة؟ سأذهب لقتل هذا العمار!" كان صوته مليئا بالحقد.

شعر عجول بالراحة، إذ علم بأنه لم يكن المستهدفَ، فحاول القيام بمناورة لصرف النظر. "عمار ليس وحده المتهم. فعمر وبن عيسى ينبغي أن يدفعا الثمن. دَعْ شيحاني يقرر. ثم إنه هو أصلُ هذه القضية كلِّها." تردد عباس ثم قبل: "لقد اعترف الغبروري بكل شيء. فقد وشى بعمر وبن عيسى." فسأل عجول: "ما الذي قاله تحديدا؟"

"لقد تحدث عن مخطط لعمر يتضمن، حسب أقواله، ثلاثة جوانب :

1 – إعداد الميدان نفسيا بتوزيع مناشير معادية للقيادة حيث تناشد – تمالك نفسك – كرامة الأوراسي. وتم تهويل ما يسمى بخيانة سي مصطفى، وما يسمى ببيع الأوراس بأرخص الأثمان إلى النمامشة قريبا جدا. وثمة استعجال. "الثورة في خطر. وعمر بن بولعيد يَحُلّ بدل الأب الغائب." ويضحك عجول، فيرمقه عباس بنظرة ثاقبة. "ليس ثمة ما يدعو للضحك!"

2 – اغتيال أعضاء القيادة الثلاثة الذين لا أحد منهم من الأوراس. أتتصور!؟

3 – وأخيرا عودة مقر القيادة إلى أريس، من حيث لم يكن ينبغي قط أن يحوّل. هو ذا كل ما أقرّ به الغبروري."

قبل مغادرة العامرة تلك الليلة، أوصى عباس أحمد الغول باليقظة: "ستدفع من حياتك إن حدث أي شيء!"

ويشرح في مسلك البغال المؤدي إلى القلعة: "بعد قَتْلِنا أنا وأنت وشيحاني، كان الغبروري ومعاش سيُنبِّهان عمر وبن عيسى ومدور عزوي ومسعود بلعقون، قادة الإدارة الأربعة في المستقبل. فليأتوا سأترك لهم كل شيء! أنا لم أصعد إلى جبهة القتال حبا في السلطة!"

وبينما كانا يسيران في ذلك الليل الصيفي، لم يُضيّع شيحاني وقته فقد أرسل اتصالا خاطفا إلى عمر بن بولعيد، آمرا إياه بالالتحاق فورا بالقلعة مع رفاقه الثلاثة. لا يدري عباس وعجول ما كان ينتظرهما وما إن رآهما شيحاني حتى صبّ طوفانا حقيقيا من العتاب والشكوى بل والسباب، أمام عجزهما عن توقع الأحداث. "أين مصلحة استعلاماتكما؟ صفر على طول الخط. فبسبب لا وعيكما، توشك الثورة أن تُخفق. أنتما لا تريان شيئا أبدا. ذات يوم، إن لم تأخذا حذركما فسيأتي "القومية" لقطافكما من سريركما. هكذا!" كانت عيناه اللتان تتوهجان عادة من المكر، قد اسودّتا. كانت قبضته اليمنى المشدودة تطرق دون توقف يده اليسرى. واحتفظ عباس بصمت آثم.

يروي عجول: "لم أرَ في حياتي شيحاني يفقد برودة دمه بهذه الطريقة. وفي لحظة معينة هاجمني مباشرة: "كيف يمكن لك أن تسلم جوازات مرور، لأنصار ثورة مضادة، دون اتخاذ أية احتياطات أمنية؟ تصور: ماذا لو نجحا في الصعود إلى هنا؟ هذا خطأ لا يغتفر من مقاوم قديم مثلك!" كان ذلك أكثر مما أحتمل، فقررتُ الخروج عن صمتي: "تستطيع الحديث، أنا أوافقك. لقد أخطأتُ عن حسن نية، ولكن

أنتَ، لقد توّجت عمر رئيسا على الإدارة، وأنت أيضا من حوّل مقر القيادة إلى النمامشة، ثم أنت من أجبرني على إعطاء الأسلحة إلى فوج عمر. وعندما حذّرتُك من أنه سينشق، ما الذي فعلتَه؟" أنا أيضا لم أعد أتمالك نفسي. نظر إليّ شيحاني – أذكر ذلك – باندهاش. لزم الصمت لفترة طويلة، ثم قال: "أنت وعباس، لطالما أشركتُكما في قراراتي. كنتُ أُخبركما باستمرار بكل شيء. وكنتما دائما متفقيْن معي." "كلا، لم نكن متفقيْن. فبوضعك عمر على رأس الإدارة، قد خالفتَ أوامر سي مصطفى، وعباس شاهدٌ على ذلك." وخفتت نبرته قليلا: "حسنا، ما وقع قد وقع. كفى حديثا في ذلك ! أما مناوشاتك في المقابل مع هؤلاء وأولئك، فليس هذا ما سيسوّي الأمور!"

فصِحتُ فيه: "ليس لي مناوشات مع أي أحد، باستثناء مسعود بن عيسى. فهو الوحيد الذي يقف ضدي، وهذا معلوم من الجميع."

وأضاف شيحاني: "لقد أرسلتُ اتصالا إلى عمر. لقد استدعيتُه هنا مع شركائه الثلاثة." ابتسم عجول ابتسامة ساخرة. "أنت مخطئ يا سي مسعود، لا أحد سيأتي، باستثناء الشيخ بلعقون ربما." وأكد عباس أقوال عجول: "لن يأتي عمر. صحيح أنه مجنون، ولكن ليس إلى هذا الحدّ!" "سنرى." قال شيحاني بعصبية.

ويروي عجول: "قلتُ له، لقد ارتكبتَ خطأً بقتل الغبروري. لن يخاطر عمر أبدا بالمجيء عندما يعلم بإعدامه." ولكن شيحاني العنيد جدا، يتمسك بالنظام: الغبروري مذنب بارتكابه جريمة خطيرة، لقد تمت محاكمته وإعدامه. فألححتُ: "ما جرى هو من الماضي. عليك الآن إطلاق سراح عمار معاش، وتركه يذهب برسالة إلى عمر". فأجابني: "لا مجال لذلك"، ووافق عباس رأيه. فجلبنا عمار إلى مقر القيادة، واستنطقناه. فاعترف بخطئه، متمسكا بشدة، بأن مسعود بن عيسى غلّطه. ولمدة عشرة أيام كاملة، لم أكفّ عن مضايقة شيحاني وعباس.

فقبلا أخيرا بتحريره وإرساله إلى الشلية، محملا برسالة، مفادها "على عمر ورفاقه تسليم أنفسهم في الحال إلى مقر قيادة القلعة" ولكنهم رفضوا المجيء، متحججين كل مرة بأعذار مختلفة. وأُرسِل إليهم أربعة اتصالات، قبل أن يحل الصمت، ثم بعد ذلك القطيعة.

دام الوضع القائم حتى مطلع جويلية 1955، التاريخ الذي جمع فيه شيحاني مسؤولي المناطق والنواحي. بدأ بالقول: "إن الوضع خطير بسبب خطأ من أناس أنانيين ومتعصبين. وفي غياب سي مصطفى بن بولعيد، فإن من واجبي السهر على تنفيذ توصياته."

ويعلق عجول: "حين تستمع إليه وهو يتحدث، تحس بأنه يريد التقليل من شأن انشقاق عمر، ويعتبره كحادثة عارضة بسيطة. وكان في الوقت نفسه، يرفض الاعتراف بأخطائه، التي تتمثل في تسمية عمر على رأس الإدارة، وتحويل عمر نفسه من مقر قيادة القلعة وإعدام الغبروري."

والواقع أن انكفاء الشرعية الثورية شرقا، وأفول نجم أريس، قد أثارا استياءً لدى التوابة والبوسليمانية وبني وجانة.

وقد راهن عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى على هذا الاستياء، وأجّجاه باللجوء إلى العداء بين العشائر، الذي حاربه مصطفى بن بولعيد بكل قواه طيلة حياته. وقد لعب شيحاني بالنار بسبب انعدام الخبرة. وأطرح السؤال على عجول: "ودوركما أنت وعباس؟" "لقد سعيت إلى التقليل من الأضرار. وقد رفض شيحاني الاستماع إليّ. ولأني أعرف عناد عمر وخاصة بن عيسى، فقد بذلتُ كل ما في وسعي لإطفاء الحريق. دون نسيان تعزيز ناحيتي أبدا. فبعد قضية الغبروري، لم يغامر شيحاني وعباس بنفسيْهما مطلقا في الأوراس، خوفا من أن يقتلهما رجال بن عيسى."

عزل عمر بن بولعيد

"ما الذي حدث خلال هذا الاجتماع؟" "لقد عيّن شيحاني على رأس الإدارة خلفا لعمر، شخصا يدعى سعيد فرحي من تبسة. ووضع أحدَ كُتّابه وهو حسين معارفي، على رأس المنطقة الثانية، منطقة أريس. وحصل على المصادقة بالإجماع على مقترح، أو قل هو حُكم، تسقط بموجبه عن عمر ورفاقه، صفة جنود جيش التحرير الوطني. وأمر حسين معارفي أخيرا، بأن يأتي بهم بكل الوسائل الممكنة إلى القلعة لمحاكمتهم."

"هو إعلان حرب إذن؟"

"بدون تأثير كبير، إذ أن معارفي لم يتمكن قط من تنفيذ مهمته. وواصل عمر وأصدقاؤه التنقل دون مشاكل، بين الشلية والجبل لزرق تحت حماية مائة وخمسين مجاهدا، مسلحين جيّدا."

أما الحرب ضد فرنسا، فلم تتوقف. فهي تُغذّي نفسها، غير آبهة بالنزاعات المصيرية. وتضاعفت الاشتباكات والكمائن في إشمول وأعالي الناس ولمسارة وبوحمامة والولجة وفم الطوب ومنعة ولامبيز وقنطيس وتاوريت، بحشود موتاها وجرحاها من الجانبين.

نجح عباس وعجول في جمع غنيمة خرافية، كان شيحاني يؤمّن توزيعها عبر مناطق الأوراس والنمامشة وحتى خارجهما. فقد أجاز لعباس مثلا، منح ستين سلاحا آليا للتونسي صالح بن يوسف. [1]

وبفضل الأسلحة المسترجعة، كان جيش التحرير الوطني يستقبل كل يوم مزيدا من المجندين، حتى بلغوا ألفي مجاهد، بين منطقتيْ الأوراس والنمامشة.

أ) لم يقبل شيحاني أن يكسر بورقيبة التونسي، جبهة الكفاح في شمال إفريقيا، راضيا بالحكم الذاتي الذي منحته القوة الاستعمارية لبلاده، متفرغة بذلك للجزائر.

ما زلنا في شهر جويلية 1955. بلغت الأموال التي تم جمعها أربعين مليون سنتيم شهريا بالنسبة للمناطق الست، منها سبعة عشر فقط من الجنوب. كان شيحاني يمسك محاسبة صارمة. وقد بلغت نفقات التسيير ثلاثة وثلاثين مليون سنتيم شهريا، وهي تتشكل مما يأتي: منح عائلية لأصول المجاهدين وفروعهم (في البداية سبعمائة وخمسون سنتيما، ثم ألف ومائتان وخمسون سنتيما، وأخيرا ألفا سنتيم للفرد شهريا) ثم فصل للتكفل بالمدنيين اللاجئين في جبهة القتال، وأخيرا المصاريف المختلفة (الأمانة، التجهيز). ولم يكن المجاهد يقبض راتبا.

وأذن شيحاني للمناطق النائية في استخدام الأموال المجموعة لديها وفق احتياجاتها، ثم إرسال الباقي إلى القلعة مع الوثائق التبريرية.

وكان مصدر الأموال متنوعا: اشتراكات المواطنين، هبات، غرامات وأخيرا وهي حالة نادرة جدا، فإن كل جامع للأموال، كانت تثبت عليه السرقة، يعاقب بالموت.

رأينا أن شيحاني، وهو وفيٌّ في هذا لأفكار مصطفى بن بولعيد، قد دعا إلى انفتاح الأوراس على نواحي الجزائر الأخرى. فقد أرسل أسلحة إلى الشمال القسنطيني. وقد طلب من القبائل ومن زيغود يوسف، أن يرسلوا رجالهم إلى الأوراس، للتزود بالأسلحة إن كانت تنقصهم أو بالمناشير، إذ أن آلات رونيو بالقلعة تطبع بانتظام، أربعة قناطير من الورق كل شهرين، في شكل مناشير وجوازات مرور وتعليمات ورسائل مختلفة.[1]

---

1) ردت ناحيتا قسنطينة والقبائل، أنهما بحاجة ماسة إلى الأسلحة، وأن على إدارة الأوراس، أن ترسل إليها منها بأسرع ما يمكن!

تتكور تكوت (التي يُنطَق اسمُها على وزن كلمة موت) من شدة البرد في شعاب وادي شناورة. لا يبدو على مصطفى بوستة، التأثر كثيرا بالبرد القطبي لهذا الشتاء من سنة 1969. أنظر إلى قمم الجبال المحيطة، فأجد الجليد فيها يلمع بكل بريقه، تحت الأشعة المائلة للشمس الطالعة. انطباع أشبه بنهاية العالم، قنوط كوني. كما لو كنا محاصرين بالشتاء. لم يكن لبوستة رد فعل فوري، قال: "نحن معتودون على ذلك!" أما أنا فلن أتعود أبدا على هذه المناطق، وعلى حدّتها وانغلاقها. ولكنني ألتزم الصمت. وبدأ مصطفى بوستة الحديث : "بدأت المتاعب مع انشقاق عمر بن بولعيد. فلأول مرة تحدى أحدهم السلطة سي شيحاني، أنت تعرف المثل الذي يقول "حين يسقط الثور، تكثر سكاكينه". لم يكن شيحاني قد سقط أرضا، ولكنّ ثلمًا ظهر في درعه. فقد شعر منذ البداية، ومنذ إلقاء القبض على سي مصطفى بن بولعيد، بأن الصراع على السلطة سيكون بلا رحمة. وبخاصة من طرف سي عجول، الذي لم يكن يروقه أداء الأدوار الثانوية، والذي سبق له أن تحدى سي مصطفى عدة مرات. وليس شيحاني هو من سيعيق طريقه!"

فقلتُ له: " ينبغي الاعتراف بأن شيحاني هو من أعطاه العصا ليضربه." "لقد كانت تنقصه التجربة! فلفرط اكتراثه بمصالح الثورة العليا وحدها، نسيَ الغيرة وجراح الكبرياء الصغيرة، الهامة جدا في نواحينا. كما أنه، بمغادرته الحارة إلى القلعة، ترك المجال حرّاً لسي عجول، الذي حوّل منطقة كيمل إلى حصن، ونصب رجاله في المراكز الحساسة. كما أنه ارتكب خطأ آخر، بإهانته عمر بن بولعيد وصرفه من القلعة. لقد كان يظن أنه يعترض مطامح سي عجول باستخدامه لنفوذ عمر بن بولعيد، ولكن العكس هو ما وقع. فقد حشد عمر لنفسه آل التوابة وبوسليماني وبني وجانة، وألّبهم ضد القيادة باستعمال الجهوية

الأكثر فظاظة. وهذا أمر لم يغفل شيحاني عنه، فذكره أثناء اجتماع آخر جويلية 1955."

"اجتماع آخر! يا سي بوستة، وكأن شيحاني لم يفعل سوى ذلك!"

"الأمر هذه المرة خطير. فقد رفض حسين معارفي، وهو توبي رئاسة المنطقة الثانية (أريس)، وهو رفض يعفيه من مهاجمة توبي آخر، عمر بن بولعيد."

"فقد أعلن تحلُّله إذن من وعده بالقبض على عمر؟"

استدعى شيحاني – وقد ثار غضبا – قادةَ المناطق لتعداد مآخذه مرة أخرى، على عمر:

1 – محاولة تقسيم جيش التحرير الوطني: وشهادة عباس لغرور إثبات على ذلك. فقد بثّ عمر الاضطراب في أذهان مسؤولي الأوراس الغربي، بالتشكيك صراحة في كفاءات قيادة القلعة. وقد استعمل إضافة إلى ذلك، نزعة جهوية بدائية لزعزعة الإدارة. وقد أكد شيحاني في هذا الصدد: "إن النزعة الجهوية لم تعد مقبولة في كفاحنا من أجل التحرر الوطني. فنحن جميعا على ظهر سفينة واحدة، وإن فرنسا قبل قتلنا لا تفرق بين توبي ونموشي."

2 – زيادة عن محاولة تقسيم جيش التحرير الوطني، فإن عمر يريد تصفية قادته. وقضية الغبروري تشهد على ذلك.

3 – لقد رفض عمر الاستجابة لأربعّة استدعاءات. فإن لم يكن ثمة ما يؤاخذ عليه، وكان يؤمن حقا بقيم الثورة، فلماذا لا يأتي للتفاهم؟

"فقد علمنا – يضيف شيحاني – أنه لا يعترف بجوازات المرور المسلّمة من هيئات الإدارة الشرعية، وأنه ينهك أعوان اتصالنا ومجاهدينا، عندما يعبرون الشلية وناحيته. والأخطر من ذلك، أنه يبيح تعاطي التبغ، مساعدا بذلك العدوّ في جهده الحربي."[1]

1) تم حظر تعاطي التبغ على الجزائريين ابتداء من أفريل 1955.

4 – وأخيرا، فقد كانت الضربة القاضية، في أن عمر قد ضم إلى فصيله أحمد بن عبد الرزاق، وهو مصاليّ شهير.

لهذه الأسباب جميعها، فإن عمر ورفاقه، الذين سبق تجريدهم من صفة جنود جيش التحرير الوطني، قد حُكِم عليهم بالإعدام. فلنقل ذلك! وليكن هذا الحكم معروفا لدى الجميع! وإذا لم تقبض المنطقة الثانية عليهم في الأيام القريبة المقبلة، لأسباب غامضة وغير قابلة للوصف، فإن القيادة العليا ستستخدم جميع الوسائل التي بحوزتها لتوقيفهم وإعدامهم!"

"وما كان ردّ فعل المسؤولين الآخرين؟" "لقد كانوا محرجين ومترددين أكثر من أي شيء آخر. فهم لم يكونوا يريدون التورط أو تهويل قط. وعموما، فقد كانوا يأملون في ترك ذلك للزمن، وكانوا يضعون ثقتهم في عجول وعباس."

على الجانب الآخر في الشلية، كان عمر ينادي عاليا بأنه هو الشرعية. فبصفته أوراسيا قُحّا وحقيقيا، فقد كان من حقه هو، الحفاظ على إرث أخيه مصطفى. ولم تكن تهديدات شيحاني سوى ذرٍّ عاجز للرماد.

أما على الميدان فقد كانت الحقيقة غير ذلك حسب عجول. فقد بدأت الناحية التي يسيطر عليها عمر، تعاني حصارا فرضه شيحاني. ولم يعد المستودع المركزي في كيمل يرسل إليه لا الأسلحة ولا المؤن.

وبقيت مجموعات مسعود بن عيسى، التي طالما عاشت على النهب، منغبة، لأن الفرنسيين أصبحوا يتحاشون الخروج في عمليات بسبب انعدام الأمن. وأصبح رجال جبهات القتال، مضطرين لقطع مسافات تكبر باطّراد، بحثا عن العدو. وهم على هذه الحال، في نحو الرابع والعشرين من جويلية 1955، بلغوا قرية الولجة على ضفاف وادي

العرب، بعيدا عن قواعدهم. فالتقوا فصيلة من منطقة كيمل، وكان التواصل فوريا وأخويا.

واستقبلهم في مقر قيادة المنطقة عجول الذي خطب فيهم بإيجاز. "للثورة قائد واحد، وهو ليس مسعود بن عيسى، بل سي شيحاني."

وعرض عليهم وجبة غداء، ثم جعل رجاله يرافقونهم حتى القلعة. حيث خاطبهم عباس بالحديث نفسه، غير متردد في وصف بن عيسى، بخائن القضية الوطنية. وبما أنهم جاءوا للقتال، فقد قادهم بنفسه إلى تافاسور، وهي منطقة ذات تضاريس فظيعة في شكل مضيق. جنوب تبردقة ببضعة كيلومترات. ونصبوا سويا كمينا، لموكب من نحو عشر شاحنات للفيف الأجنبي. كان الاشتباك عنيفا. "أفراد اللفيف كُفّار – يقول لي مسعود بلعقون– فهم يقاتلون لأنهم مخدّرون بالكحول، وحين يتخذون وضعية الانبطاح للرمي، فإن مؤخرتهم السمينة هي دائما أول ما نرى!"

لقي ثمانية مجاهدين من جيش التحرير الوطني حتفهم، وأُحرقت عدة شاحنات عدوة، وتم الاستيلاء على نحو سبعين سلاحا. وعمد عباس إلى القسمة. فعاد رجال بن عيسى مثقلين بغنائمهم، شمال الشلية، واعدين بالعودة.

رفع عباس تقريره إلى شيحاني الذي أبدى تفاؤله. "سترى يا عباس. سيأتي عمر وبن عيسى قريبا ليأكلا من يدي. إنهما ليسا من صنف القادة الكبار." وفي انتظار ذلك، عمد إلى استكمال تنظيم المناطق.

ها هو شهر أوت 1955 قد حلّ. إنه يبدو مقدم خير. تتوفر الثورة على حَرَم مكوّن من ست مناطق، يحتل مجملَ الأوراس والنمامشة، من وادي سوف جنوبا حتى أم الطبول شمالا. وهو يمتد على الأطلس التلي والهضاب العليا حتى برج بوعريريج، والحضنة، حتى المسيلة وبوسعادة.

ويتضمن التنظيم على الصعيد العسكري أربعة هياكل:

1 – المجموعة أو الفوج (اثنا عشر رجلا).

2 – الفصيلة أو الفرقة، وتتكوّن من ثلاث مجموعات.

3 – الكتيبة وتتكوّن من ثلاث فصائل.

4 – الفيلق الذي يضم ثلاث كتائب.

"هذا على الورق" يقول عجول. "أما على الميدان، فلم نصل إلى مرحلة الفيلق – إلا ربما خلال معركة الجرف – لأنه يعرض مساحة كبيرة جدا وضعيفة جدا، أمام قوة القتال الفرنسية الأقوى منا بكثير. في أغلب الأحوال، تتم تنقلات جيش التحرير الوطني، بفصائل أو أفواج يصعب نسبيا كشفها، فتكون بذلك أقل ضعفا. وحين يتطلب الوضع ذلك، ينقسم الفوج إلى قسمين وحتى إلى ثلاثة، وفي حالات أخرى بالعكس، يمكن للأفواج الاندماج لتكوّن حتى كتيبة. ويبقى الأهم هو المرونة التامة. وذلك عمليٌّ جدا للضرب والفرار. وحين يتعلق الأمر بكمين، فإن ثمة قواعد. الاستعلامات أوّلا؛ فهي حيوية، ويتم الحصول عليها بالتعاون مع المقاومين المدنيين في المدن والقرى. وهو ما يقتضي تفاعلا دائما بين جيش التحرير الوطني والأهالي. ثم يأتي الإيجاز: فالكمين ينبغي ألا يجاوز بضع دقائق. أما الاشتباك فمختلف. وأحسن طريقة لفك الاشتباك، إذا استحال الفرار، هي التقدم بجرأة على خطوط العدو، وتجنب القصف الجوي أو المدفعية أو الهاون. يستطيع الفوج المتخندق جيدا، مواجهة فيلقين عدوّين أو ثلاثة، لفترة لا تتعدى الثلاثة أيام. ثم عليك أن تتذكر دائما أن القوات المتنازعة ليست متوازنة. ففرنسا، بفضل اتصالاتها وطيرانها، وفصائلها الميكانيكية

المتنقلة، قادرة على تركيز حدّ أقصى من القوة في مكان ما، في وقت وجيز جدا.[1]"

أرسل شيحاني أربعين رجلا في منطقة الشمال القسنطيني لدى يوسف زيغود. وقد كانوا مُحمّلين، عدا سلاحهم الفردي الخاص، بحصة من أربعة وعشرين مسدسا رشاشا وبندقيتين رشاشتين، موجهة إلى المجاهدين المحليين لتوسيع الحرب.

"ولكن الحقيقة – يقول عجول – أن ما جرى في 20 أوت 1955، قد باغته. فهو لم يستطع أن يفهم كيف يمكن الإلقاء بالمدنيين العزّل إلى الموت. وبعد ذلك بفترة، تمالك نفسه وقال: «لقد كانت العملية ربما سلبية بحكم ضحاياها المدنيين، ولكن ستكون لها انعكاسات إيجابية، إذ أنها ترمز إلى الطلاق النهائي بين الجزائر وفرنسا. »"

أبواب مفتوحة على الثورة

قرر شيحاني تنظيم أبواب مفتوحة على الثورة. نحن في شهر سبتمبر 1955. وقد اختار المكان لذلك؛ سيكون في الجرف، على ضفاف وادي هلال، في مكان منقبض بين منحدرات رأسية هائلة، حافلة بالمغارات والكهوف الأرضية، تعلوها صخرتان عملاقتان. هي من وجهة النظر العسكرية موقع حصين. وماء وادي هلال يجري وافرا صيفا وشتاء.

1) تعتبر حالة مسعود ڤرين نموذجا لذهنية أوائل رجال الجبهة، المتميزة باحتقار العدو والمبالغة في تقدير قواتهم الخاصة. فقد قَبِل المعركة بعد أن خدعته فرنسا، وسقط مع رفاقه أمام قوة نار أعلى من قوته بأضعاف مضاعفة.

أسأل: "لِمَ هذه الأبواب المفتوحة؟ إن هذا مفهوم حديث جدا في العلاقات العامة." فيجيب عجول: "كان هدف شيحاني هو التعريف بالثورة وهيئاتها لدى السكان. وكان يريد القيام به في إطارٍ احتفالي، وحتى ينجح ذلك، فقد خصص مبلغ مليونيْ سنتيم. وتم شراء اللحم والكسكسي والخضار، وكل ما هو ضروري لمأدبة شعبية، كي تبقى راسخة في كل ذاكرة. وكان يريد أيضا أن يُكذِّب بالوقائع، والدعاية الفرنسية التي تصور جيش التحرير الوطني كعصابة خارجين عن القانون."

ودعا أعيان مدن وقرى النمامشة وتبسة والشريعة وقنطيس وببار والزوي وتبردقة وبير العاتر [1]. ونظم نقلهم حتى الجرف، في سرية تامة وعبر مسالك خاصة. وقد أحضر كلُّ زائر، كما هي العادة في الجزائر، عطيّتَه، مع الحرص على الإشهار جيدا لها: زرابي من صوف، برانس، رزم أوراق مالية، ذهب، صفائح زيت، مواد من كل صنف، مثلما يوهب عادة بمناسبة "زردة"[2]. وتولى مقاومون مدنيون حفظ الأمن.

بتاريخ 25 سبتمبر 1955، كان شيحاني قد سبق له أن أرسل إلى وادي هلال، نخبة جيش التحرير الوطني، ما يقارب الثلاثمائة مقاوم. يقع الجرف في النمامشة. ويجري التجمع المتوقع أعلاه، شمال طرفاية بعشرة كيلومترات، في منطقة وعرة المنفذ، حيث تكثر المغارات، معششة بين صخور عملاقة، وموصولة فيما بينها، بأروقة أرضية

---

1) نصبت فرنسا خمسة مراكز مراقبة عسكرية، من حول النمامشة وقنطيس والجرف وراس العش وبير العاتر وتبردغة.

2) الزردة : حفل شعبي سنوي يقام على شرف أحد الأولياء الصالحين.

عديدة. وإلى الأسفل بمئات الأمتار، ينساب وادي هلال بين المنحدرات الشديدة، التي تشكّلت منذ أزمنة بعيدة. لقد أحسن شيحاني الاختيار. فالمكان من وجهة النظر العسكرية منيع. ثم إنه يحتوي على مخزون هام من المؤونة، والماء يجري فيه بوفرة.

وفي اليوم الموعود، في أول الليل، حيّا المجاهدون المهندَمون، ضيوفَهم بما يلزم من المودة والرزانة. كان القادة هنا من حول شيحاني بلحمهم وشحمهم – عباس لغرور وعجال عجول ولزهر شريّط وسيدي حني. وداخل المغارة الفسيحة التي استُعملت كقاعة محاضرات، استمع الضيوف الجالسون على زرابيّ من صوف خشن، إلى خطاب المناسبة. ولم يكن على عباس وعجول وشريّط فعل شيء، سوى فسح المجال أمام شيحاني متألق.

كان خطابه رائعا. فقد كان كعادته يقيم الحجة، ويشرح ويستفسر ويجيب – لقد كان يَشعّ قوة وتفاؤلا. وافتُتِن الحضور به. وكيف لا يفعلون، كيف لا يكون المرء موقنا بأن الثورة ستنتصر، كيف يمكن الارتياب في أناس قادرين على تنظيم تجمع بهذه الأهمية، برغم أنف ولحية فرنسا القوية؟

أضف إلى ذلك الطعام الوفير واللحم المكدس فوق الجفان، والضحكات الخافتة للمجاهدين المدججين بالسلاح، ومنظر القمر في هذه الليلة الخريفية التي لا تشبه سواها، والإحساس بالأمان والمناعة. فكل شيء كان يساهم في خلق هذا الجو الفريد من التواصل الثوري. ذلك أن السكان في تلك الفترة – لا ننس ذلك – لم يكونوا بعد يهتزون لأبطالهم. إنهم ينتظرون. فما تزال الجماعات المسلحة وحتى الثورة نفسها، مفهوما مجردا وبعيدا؛ النقيض تماما للقوات الجوية والبرية الفرنسية ذات الوجود المحسوس.

أما الآن، فالوضع مختلف. فثمة علاقات بين الشعب وجيش التحرير الوطني، واللغة واحدة حيث يمكن التفاهم. ثم إن هذه أول مرة يكون فيها النظام هو المضيف. وكم من مدني نموشي، كان عليه في زمن ليس بالبعيد، اقتسام قوته الزهيد مع مقاومين جائعين ومرتابين وعابسين؟

ويروي عجول دائما: "لم أكن بصراحة متحمسا جدا لهذا الاجتماع الشرفي. فقد كنتُ مرتابا من الجميع. لقد كنتُ واثقا من أن المكتب الفرنسي الثاني، قد بثّ عناصره بين الضيوف. وفي رأيي، فقد كان من الخطأ خلط المدنيين والجنود، ولكن شيحاني قرر، ولم يكن علينا إلا الطاعة. كنتُ قد أوصيتُ جميع قادة الأفواج بأقصى الحذر، وحينما انتهى الحفل قبل الفجر بثلاث ساعات، وصدر الأمر بالتفرق، تنفستُ الصعداء. لم أكن أعلم طبعا بأن الجيش الفرنسي، وقد لدغته ربما أحداث 20 أوت المنصرم، كان قد قام بتطويق منطقة الجُرف، على شعاع قدره ثلاثمائة كيلومتر. كانت أسوأ مخاوفي ستتحقق، ولكن الوقت ليس وقت مزاج."

لم يعد الفجر بعيدا. ولتسريع التفرق، أمر شيحاني خمسين مجاهدا، بمغادرة الجرف على ظهر الخيول والتوجه نحو مسهالة، على بعد خمسين كيلومترا إلى الجنوب.

وكان على باقي المجاهدين إخلاء المكان، سيرا على الأقدام، فصيلة إثر فصيلة.

وبعد ذلك بساعة، بدأ المغادرون الأوائل بالارتداد نحو الجرف. وقالوا إن الفرنسيين قد طوّقوا المنطقة كلها على عدة أعماق. ولم يكد المجاهدون يغتاظون لذلك. كانوا جاهزين للمواجهة، وهم مجهزون بأسلحة آلية وببنادق رشاشة، ولديهم طعام وماء وحصن طبيعي. فماذا يأملون أكثر من ذلك؟

معركة الجرف

عجول وبيشة جودي هما من رويا لي معركة وادي هلال. وقد حاولتُ إعادة سردها، باحترام إيضاحات الرجليْن مع فروقهما الخاصة. "لقد كانت لدينا بنادق رشاشة وأسلحة آلية وذخائر وأطعمة، لا نكاد ندري ما نفعل بها. كان بمقدورنا تحمل حصار لعدة سنوات، بل قرون إن اقتضى الأمر. فقد كنا المجاهدين في سبيل الله، لا نُغلب".

كانت إحدى الفصائل التي رحلت سيرا على الأقدام، في حدود الساعة الثانية فجرا، وقوامها خمسة وثلاثون رجلا، قد اصطدمت بعُدّة العدوّ وقفلت عائدة. وقد تعرضت في ميدان عارٍ للإبادة حتى آخر رجل. لم يعد تعدادنا سوى مائتين وستين، إضافة إلى بعض المدنيين المحصورين معنا، والمسلحين ببنادق صيد. ينبغي أن أشرح لك: وادي هلال منطقة قفر، صخرية، وذات شعاب ومنحدرات، مع كثير من الصخور، من بينها على الأخص صخرتان هائلتان، وضعهما الله تماما عند مدخل مغارتنا لحمايتنا. وكنا قد خزّنّا داخل المغارة مؤنا، وتحت أقدامنا نبع ماء عذب. كنا نشرب منه في كثير من الأحيان، وظل يسيل صافيا وهادئا، لا يعير بالا لصخب السلاح. أتسمعني؟ حسنا. كانت الصخرتان متقابلتين على جانبيْ وادي هلال مطلتين على مجراه. وحيث أنهما يكادان يتلامسان، فقد كنا نقفز من قمة إحداهما إلى قمة الأخرى دون عناء. وعند قاعدتيهما مدخل يكفي بالكاد، لإتاحة مرور ثلاثة رجال يسيرون في آن واحد.

في حدود الواحدة زوالا، كان الجيش الفرنسي قد أتم حصاره المطبق. كنا نرى جنود العدو في كل مكان. لا يمكنني ذكر العدد. فقد

كانوا أشبه بالجراد. ذُكِر لي بعد ذلك رقم أربعين ألف – وقد كان ثمة من كل صنف: أفراد اللفيف، القناصون، المظليون، رجال المدرعات. أضف إليهم المجنزرات والدبابات والطائرات والمدفعية والدخان، لتكون لديك فكرة عامة عن الأمر. يمكنني القول، إنه كان ثمة أكثر من أربعين ألفا، ولو أني أكره ذكر الأرقام. أما نحن فكنا تحت الصخور، مموهين جيدا. وحين اقتربوا أطلقنا النار. فسقطوا بالعشرات في البداية، لأنهم كانوا يتقدمون دون معرفة، كأنما كانوا تائهين. ثم دفعوا مجنزراتهم إلى المقدمة. فأصبنا منهم نحو أربعين. فأطلقوا دخانا أسود كثيفا.

ثم دخلت المدفعية إلى الميدان، فارتعدنا سويا مع الصخور، وقد أزكمتنا رائحة البارود. كانت معنوياتنا عالية جدا. وكانت الصخور تحت الضربات تتفتت مرسلة شررا. وخنقنا الغبار. فكنا نسعل ونتراجع داخل المغارة حتى هدأ الوضع. ثم جاءت ستائر من دخان.

أتعرف؟ لقد كانت فرنسا تستخدم الدخان لتتقدم أو لتتراجع. أما نحن، فلم نكن نعرف قط، متى كانت تتقدم ومتى كانت تتراجع. فقد كنا نطلق النار على كل ما يتحرك، ولم نكن نبالي بالبقية. ومر المساء سريعا. ثم تباعدت الطلقات وتوقفت أثناء الليل. وفي اليوم الموالي، فهمنا مناورة الاستعماريين. في البداية عشرون دقيقة من المدفعية، ثم عشرون دقيقة أخرى من قذائف الهاون من عيار 120، ثم المدة الزمنية نفسها من الرش والقصف الجوي، وأخيرا ستار الدخان الذي من شأنه التمويه على تقدم المشاة.

كان عجول وعباس ينزلان بانتظام وبالتناوب ليرفعا تقريرا إلى شيحاني الذي بقي في الداخل. كان يسأل إن كان ثمة جرحى. "كلا، لا جرحى ولا قتلى." كان كاتبه يستمع إلى الأخبار في مذياع ذي

بطاريات. كان شيحاني يبدو هادئا. وكان يوصي مساعدَيْه بعدم التعرض دون فائدة. "ما تزال الثورة بحاجة إليكم !" ولكن الرجلين في لهب القتال، لم يكونا يُلقيان بالا لأوامره.

شهدت الليلة الثانية انخفاض حدة العمليات العسكرية. وفي الصباح وصلت دبابات ضخمة، ضخمة جدا، بحيث لم نر مثلها من قبل. كانت تتقدم وتسحق الحصى تحت سلاسلها. وعند كل واحدة من طلقاتها، كنا نحس بارتجاف الصخور وكأنه زلزال. كانت تطلق النار ثم تقذف سُحبا بيضاء. اختبأنا في قعر المغارة تماما؛ سمعنا الفرنسيين يصيحون: "سلموا أنفسكم!" فأجبناهم: "تقدموا! سترون، سنشرب من دمائكم!"

في اليوم الثالث، عاودت الدبابات تقدُّمَها ببطء. عددتُ مرة مائتي متر تقريبا في ظرف أربع ساعات. الأمرُ كما أقول لك! كانوا يطلقون النار على جميع الثقوب، وكانت الأرض ترتجف، وكان لدينا انطباع مريع، بأن كل شيء سينهدّ فوقنا، وأننا سنُدفَن في المكان أحياء. ثم بدأت الروائح الكريهة، ونتانة الجثث – أعداء وبغالا معا – تُزكِم أنوفنا، وعندها حاول القادة الخروج. أتعرف؟ كان بإمكاننا التحمل لسنوات، ولكن الدبابات الضخمة، كانت تتقدم أكثر فأكثر، وكادت الصخور تقع على رؤوسنا. ثم إن وقتا طويلا قد مضى، دون أن نتحرك من أماكننا، فقد كان يلزمنا بعض الحراك. كما أننا كنا قد أحرقنا من الذخيرة كميات مذهلة.

وتقرر أن يبقى شيحاني بالمكان مع بعض الرجال. فما كان لينقصهم الطعام ولا الذخيرة، في حال ما إذا تحتّم عليهم القتال. وكان شيحاني قد ألحّ مرة أخرى، على أن يبقى عجول وعباس معه، ولكنهما رفضا.

وقد شكّلت ثلاث فصائل تعُدُّ كل واحدة خمسين رجلا من أجل اختراق صفوف العدو؛ كان عجول يقود الأولى، التي كان عليها فتح الطريق، ولم تكن بحوزتها سوى أسلحة آلية. أما الثانية التي يقودها سيدي حني، فلم يكن لديها إلا بنادق "ستاتي" وقليل من الذخيرة. وأما الثالثة وهي أثقلها، والتي كان لديها نحو ستة بنادق رشاشة (لم أعد أذكر، أكانت أربعا أم ستا) بقيادة عباس لغرور، فقد كان عليها أن تكون آخر من يخرج. وكان على بقية المجاهدين المسلحين بقنابل يدوية، انتظار فتح ثغرة للتسلل منها.

كنا قد بلغنا رابع ليلة من القتال. وحسب ما كنا نعلم، فقد كان الحصار شاملا، من مهبط وادي هلال ومن مُرتقاه، وعلى ضفتيه.

وقد عثرتُ على رسم لمعركة وادي هلال، تم تصميمه وفق توضيحات عجول. نرى فيه نهرا، وصخرتين معلّقتين على ضفتيه، مطلتين على مجراه من الجهة الأمامية، وباتجاه الشمال الدباباتُ والمدفعية، وهياكل مجنزرات محروقة، وحرفا "ج ف" (جنود فرنسيون) في كل مكان تقريبا، مشكِّلةً دائرة مغلقة حول النهر.

"عند الساعة التاسعة من هذه الليلة الرابعة، (عليّ ألاّ أنسى بأن أقول لك إن الجحيم دام سبع وجبات) [1]، خرجتُ مع الفصيلة الأولى، وقوامها خمسون رجلا. أذكر أن القمر كان عاليا فوق الصخور. كان الجو حارا. كنا نمشي ببطء شديد، الواحد خلف الآخر، باتجاه الجنوب، في صمت تام. لم يكن ينبغي لنا أن نطلق النار إلا في حال الهجوم. كان الفرنسيون مُطرِقين. على بعد نحو عشرة أمتار، توقفتُ، وأحجمت عن النزول نحو الوادي، وانتظرتُ لبضع دقائق. لا شيء. فقررتُ أن

1) سبع وجبات تساوي أربع ليال وثلاثة أيام.

أعود بمفردي إلى المغارة لتنبيه عباس: "يجب أن نخرج كلُّنا سويا، دون انتظار." لا يحب عباس أن يدفعه أحد، ولكن حين يتعلق الأمر بالهجوم، فهو دائما موافق. تركته خلفي مع سيدي حني، وعاودتُ تقدمي نحو مهبط النهر، ونفذتُ إلى الماء البارد بحذر شديد، وتبعني رجال فصيلتي واحدا تلو الآخر."

بعد ذلك بقليل، كانوا يتقدمون في الوادي حتى منتصف أجسادهم في صمت، لنحو مائة متر. توقف عجول بفضول، أمام جدول رافد على ضفة النهر اليمنى، وأمر: "أطلقوا النار بكثافة!" وبعد بضع ثوانٍ، فتحوا النار.

"كان هذا مثل انفجار حبات قمح على النار، مضاعفا ألف مرة، أو الضجيج الذي تحدثه آلات خياطة عملاقة. لم أعد أعرف، فقد كنا نخوض في الماء الأسود، ونطلق النار دون توقف. عندها أطلق العدو صاروخا مضيئا، وأصبح الليل فجأة نهارا. كنّا كما لو كُنّا عراةً، أو كما لو أن أحدا سحب الغطاء فجأة من على أجسادنا. وبدت بعض الأشجار على يميننا، بينما واصل الماءُ انسيابه وتكسُّره علينا بفقاعات. رأيتُ جنودا فرنسيين قريبين جدا وسط الوادي، وسمعتُ زمجرة الـ"هوتشكيس" الصمّاء على الضفة الأخرى. وكان الفرنسيون الواقعون بين رشاشتهم وأسلحتنا الآلية يسقطون بكثافة، ملوّنين الماء بالأحمر. ثم انطفأ الصاروخ، واختفى كل شيء."

لم يعد عجول يرى شيئا. وأحس بهزتين أو ثلاث على جسمه، ثم سقط وظن أنه مات. ثم قام بعناء، وواصل التقدم في الماء، إلى الأعلى، إلى الأسفل، لم يعد يعرف. ثم وجد نفسه وسط مجموعة جنود أعداء يتصايحون "أوه لا لا ! أوه لا لا !" كان يتعثر أحيانا في جسم، ثم يُرفَع أحيانا أخرى خارج الماء. واستسلم لذلك. لقد جُرِح، واختلط عليه كل

شيء. لم يعد يعرف
الماء. لم يتوقف أ
النار. وعاد عجول
يهيم.

"نحن الآن مختل
وأنين بالعربية وب
كنتُ أسجل كل شي
في نفسي، فليحدث
نفسي على الجانب
لم أعد أحس بأطرا
ظهري، لا سترة ولا
أنني تساءلتُ: كيف
الأوقات!"

لقد خف إطلاق ا
وعند منعطف منه،
الذي يحمل بندقية
عباس. "كان عباس
كان يُربِّت بيده اليم
"لا أعلم، لقد اختلط
ساقه. كنا وكأنّنا
وأنا والبغل وعبا
وصول العدو. فنظر
في الظلام، والتفتُّ
وحيدا، يائسا."

شيء. لم يعد يعرف كيف حدث له ذلك، حتى وجد نفسه مدفوعا خارج الماء. لم يتوقف أزيزُ الرصاص الطنان، عن الفرقعة مثل الحَبّ على النار. وعاد عجول إلى وسط الوادي، وراح يزحف داخل الماء في ليل بهيم.

"نحن الآن مختلطون بالفرنسيين ولا أحد ينتبه للآخر. صيحات ألم وأنين بالعربية وبالفرنسية، والمعاناةُ هي نفسُها، ونداءات استغاثة. كنتُ أسجل كل شيء، وكان كل شيء يجري مثل كابوس. وعندئذ، قلت في نفسي، فليحدث ما يحدث، ووقفتُ ومشيتُ، أو بالأحرى جررت نفسي على الجانب الأيمن. أذكر ذلك لأن الجانب الأيسر كان يؤلمني. لم أعد أحس بأطرافي، كنت أشعر بالبرد فقط. لم أعد أحمل شيئا على ظهري، لا سترة ولا صدارا. كان سروالي ممزقا، وكنتُ حافيا. أذكر أنني تساءلتُ: كيف حدث ذلك؟ ما الذي يفكر فيه رجل في مثل هذه الأوقات!"

لقد خف إطلاق النار. وتمكن عجول من الوقوف، وخرج من الوادي. وعند منعطف منه، يرى رجلا واقفا قرب بغل. يقترب منه، وإذا بالبغل الذي يحمل بندقية رشاشة "بار" جريح. يتعرّف عجول على الرجل: إنه عباس. "كان عباس مُنهكا تماما، حتى أنه لم يتعرف عليّ في الحين. كان يُربّت بيده اليمنى على عنق البغل. فسألته: "أين البقية؟" فأجابني: "لا أعلم، لقد اختلط كل شيء." خفض البغل رأسه، ثم لعق الجرح على ساقه. كنا وكأنّنا في واحة، غير أن حدّة المعارك قد تضاعفت الآن، وأنا والبغل وعباس واقفون. فقلتُ له: "هيا بنا، يجب الرحيل قبل وصول العدو. فنظر إليّ وقال: "اسبق أنت وسنتبعك!" فاستأنفتُ سيري في الظلام، والتفتُّ بعد برهة؛ لم يكن ثمة أحد. ووجدتُ نفسي من جديد وحيدا، يائسا."

كان يظن أنه يسير، لكنه سرعان ما انتبه إلى أنه على أربع، لأن ركبتيه كانت تؤلمانه. فتوقف، وتوقف القمر بدوره بين الصخرتين تماما. وسمع طقطقة الأسلحة الآلية، تَقْطعُها أحيانا طرَقاتٌ ثقيلة. هو لا يعرف ما يحدث، هو لا يريد أن يعرف. وقام مرة أخرى، ووضع قدما أمام الأخرى، وسحب نفسه نحو الأمام. وعند منعطف، وقع على رجُلين كامنيْن. فتعرّف إليهما فورا؛ مدنيان كانا قد حضرا اجتماع الجرف، مواطنان من تبسة، مسلّحين كليهما ببندقية صيد. لم يتحركا من الفزع، مثبتين نظرة مرعوبة على يده اليمنى. وجّه عجول نظره نحو ما كان يشدّهما: كانت يده منقبضة على مسدس 9 ملم، مسدسه؛ لم يفقده، وكان يصوّبه نحوهما. فوجها بندقيتيْ صيدهما المزدوجتيْ الماسورة باتجاه الأرض.

سألهما: "أثمّة جنود في القُرب؟" فأجابا: "لا نعلم." فأمر: "اتبعاني!" وإلى الأسفل بنحو مائة متر، بلغا أكمة تخفي ذراعا آخر من الوادي. وما إن جاوزاها، حتى انطلقت عيارات نارية. إنهم جنود فرنسيون كامنون على مقربة؛ لحسن الحظ أن هؤلاء الأوغاد يختبئون لإطلاق النار، وإلا كانوا سيصيبون هدفهم. أو ربما هو الظلام الذي أعاقهم. فتمتم: "كم طلقة لديكم؟" "واحدة، اثنتان" أجاباه، وقد رفع أحدهما أصبعا والآخر اثنين. "حسنا، أنت من لديك طلقتان، ستذهب لتتمركز على التلة، خلف الفرنسيين. أطلق مرة وعد إلينا." فانصرف الرجل وانتظرا بقلق طلقته العريضة. ولم يلبث أن فعل. وما إن سمعاه، حتى ركضا إلى الأمام، باتجاه الجنوب. ثم لحق بهما الآخر بالخطو السريع. وبعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر، لم يعودوا يسمعون أية طلقة. فقرر عجول الانحراف غربا، وتسلقو قمة كثيب رمل كبير. ما زال الظلام مخيما. قال لهم: "فليحفر كل واحد خندقه هنا." كان وحده يملك مبادئ عسكرية.

وراحا يحفران. بينما يتأمل عجول الرمل. "لا أحد مرّ من هنا". فقال الآخران، مؤكديْن: "لم نعد نفهم شيئا! لا بد أن جميع الجنود قد ماتوا. لا نريد أن نتعفن هنا." يقول عجول: "كلا بالعكس، سنختبئ في الخنادق وننتظرهم."

قال لي عجول بعد ذلك بفترة طويلة: "كنتُ أظن أنه لم يعد ثمة عدو لجهة مهبط النهر. وكنتُ أجهل أن ثمة عدة حلقات من الحصار".

عيارات نارية. تبدو آتية من الأكمة عند المهبط. "إنهم جنود يقطعون النهر، واصِلا الحفر!"

كان عجول حافي القدمين. وقد فقد سرواله وصداره وسترته. لم يعد يرتدي سوى قميص وتُبّان. وضع مسدسه على الرمل، وحكّ الأرض بيده اليمنى، فاليسرى جريحة. وفجأة أقبل أحد المدنييْن مسرعا نحوه، وطوّق يده وصاح في رفيقه: "هيا أطلق النار، اقتله!" فانتفض عجول، وأسقط الرجل من على ظهره، وانتزع منه بندقيته، وارتمى على الرجل الآخر، ودفعه بقوة، والتقط مسدسه الـ 9 ملم وصوّبه نحوه. كان يلهث مثل فقمة. "ما الذي حلّ بكما؟" "أنت فرنسي! تريد أن تخدعنا!" ثم بعد لحظة: "أرنا قضيبك! أرنا إياه وسنصدقك!" [1]

"كلا، انتظرا! تذكّرا! في الجرف، أفرغتُ صفائح الزيت، ووضعتُ السدادات في كومة في زاوية. أليس كذلك؟" فتذكّرا. "ليغفر لنا الله ولتغفر لنا أنت!" وأعاد لهما بندقيتيهما.

"كانت تلك أطول ليلة. كنتُ سأدفع أي ثمن لأرى نهايتها. بعد الحادثة بقليل، وصل سيدي حني وثلاثون مجاهدا، هؤلاء الذين كان الفرنسيون قد أطلقوا عليهم النار لتوهم. لقد أفلحوا في العبور. فلم نكن

1) عجول رجل ذو بشرة بيضاء وشعر كستنائي.

وراحا يحفران. بينما يتأمل عجول الرمل. "لا أحد مرّ من هنا". فقال الآخران، مؤكديْن: "لم نعد نفهم شيئا! لا بد أن جميع الجنود قد ماتوا. لا نريد أن نتعفن هنا." يقول عجول: "كلا بالعكس، سنختبئ في الخنادق وننتظرهم."

قال لي عجول بعد ذلك بفترة طويلة: "كنتُ أظن أنه لم يعد ثمة عدو لجهة مهبط النهر. وكنتُ أجهل أن ثمة عدة حلقات من الحصار".

عيارات نارية. تبدو آتية من الأكمة عند المهبط. "إنهم جنود يقطعون النهر، واصِلا الحفر!"

كان عجول حافي القدمين. وقد فقد سرواله وصداره وسترته. لم يعد يرتدي سوى قميص وتُبّان. وضع مسدسه على الرمل، وحكّ الأرض بيده اليمنى، فاليسرى جريحة. وفجأة أقبل أحد المدنييْن مسرعا نحوه، وطوّق يده وصاح في رفيقه: "هيا أطلق النار، اقتله!" فانتفض عجول، وأسقط الرجل من على ظهره، وانتزع منه بندقيته، وارتمى على الرجل الآخر، ودفعه بقوة، والتقط مسدسه الـ 9 ملم وصوّبه نحوه. كان يلهث مثل فقمة. "ما الذي حلّ بكما؟" "أنت فرنسي! تريد أن تخدعنا!" ثم بعد لحظة: "أرنا قضيبك! أرنا إياه وسنصدقك!" [1]

"كلا، انتظرا! تذكّرا! في الجرف، أفرغتُ صفائح الزيت، ووضعتُ السدادات في كومة في زاوية. أليس كذلك؟" فتذكّرا. "ليغفر لنا الله ولتغفر لنا أنت!" وأعاد لهما بندقيتيهما.

"كانت تلك أطول ليلة. كنتُ سأدفع أي ثمن لأرى نهايتها. بعد الحادثة بقليل، وصل سيدي حني وثلاثون مجاهدا، هؤلاء الذين كان الفرنسيون قد أطلقوا عليهم النار لتوهم. لقد أفلحوا في العبور. فلم نكن

---

1) عجول رجل ذو بشرة بيضاء وشعر كستنائي.

جميعا موتى. كان المجاهدون مذهولين، ومنهكين. ولاحظتُ أنهم مثلي نصفُ عراة. وسألتُ سيدي حني كيف حدث ذلك. "خرجنا مباشرة بعدكم. وببنادقنا الـ "ستاتي"، أطلقنا ما أمكننا من نيران، ثم سبحنا في الوادي وصِحنا في القناصين بألا يطلقوا على إخوانهم، حتى انطلاق الصاروخ المضيء الخادع. وابتداء من تلك اللحظة، اختلط كل شيء. وها نحن أولاء!"

"والآخرون؟" "لم أر أحدا. رجالي جميعهم سالمون ما عدا واحدا، جُرِح في كتفه الأيسر." لا يستطيع المجاهدون البقاء واقفين؛ وراح سيدي حني يقنع عجول، بمغادرة منطقة المعارك. "حسنا، سنرحل، ولكن في آخر الليل. فلننتظر قليلا."

وهكذا حفر سيدي حني ورجاله خنادق في الرمل وغاصوا فيها.

بعد فترة من الزمن، التحق باقي المجاهدين بعجول؛ كانوا في أفواج من عشرين أو عشرة أو أقل. كانوا جميعهم منهكين. ولكن السرور يلمع في أعينهم. كانوا هم أيضا عاجزين عن تفسير ما حدث، أو كيف بقوا على قيد الحياة. وقد فقدوا جميعهم شيئا ما أثناء الاختراق: سلاحهم أو أحذيتهم أو ستراتهم.

" لا يزال الليل معتما ؛ تبيّنّا جنودا آخرين يعبرون أعلى خطوط العدو (كنا نتخيلهم صورة تلو الأخرى، فوحده التعوُّد على المعارك الليلية، يُكسِب هذه الحاسة السادسة، التي يزيد من حدتها الإحساس المضاعف بالخطر). في آخر الليل، كنا نحو مائة وستين مجاهدا، منهم ثلاثة جرحى. وحده عباس لم يلتحق. صار بإمكاننا الآن تبيّنُ الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كان لدينا الكثير من القنابل اليدوية، وبعض صناديق الذخيرة، التي وصلت حتى هنا بأعجوبة لا نعلمها، وثلاثة أو أربعة بغال، يحمل كل واحد منها بندقية رشاشة.

وبرغم التعب، كان علينا استئناف السير. وطلع علينا الفجر، فكشف أن المكان الذي جنحنا إليه، كان عاريا مقفرا، وغير محصّن تماما."

قسّم عجول الرجال المائة والستين، إلى أفواج من عشرين لكل فوج، وأمر بترك فاصل من ستة أمتار بين كل فوجين. وحُمِل الجرحى على الظهور. أما صناديق الذخيرة، فلم يكن أحد يريدها. وفي الأخير، فرضت علينا غريزة البقاء، أكثر من الخوف، أن يحملها متطوعون، في البداية على الأقل.

أمر الفوج الأول بالتوجه نحو شعبة مريم، غرب مسهالة بعشرين كيلومترا. تبرّم الرجال. "رأيناهم يرفضون مسهالة ويسلكون اتجاه الجنوب، ولم يعد ذلك يعني لنا شيئا. فليرحلوا أو فليبقوا. وبمحض العادة، واصلت أقدامُنا، التي كانت في الغالب عارية، أو مُغلّفة بخِرَق، سيرَها. فلم يعد لأي شيء من قيمة، سوى وضع قدم أمام الأخرى. سمعنا كلابا تنبح، فأمرنا سي عجول بالتوقف، والجلوس على الفور. أُرسِل رجلٌ نحو الكلاب، فإذا ببدو رُحّل في المكان. أخبرونا بأن الفرنسيين يحاصرون المنطقة كلها. فأردنا الفراغ من ذلك نهائيا، والذهاب لمواجهة العدو وقتاله. لم يكن سي عجول موافقا. طلب من البدو الرحل استبقاء الجرحى، وحفر تجاويف داخل الخيام، وإخفاء صناديق الذخيرة داخلها. كم هو عجيب أن أتذكّر نظرته، وحركة شفتيه حين يتحدث. كانت نبرته تهديدية. لم يكن النهار قد طلع.

واستأنفنا مسيرنا. وانطلقت عيارات نارية في البعيد. فقال سي عجول: "إنه الفوج الأول. لقد اشتبك. سيشغل ذلك الفرنسيين لفترة." كان حذرا. ولم يعد يقوم بالذهاب والإياب، من أول الرتل إلى آخره. كان يتوقف في الوسط ثم يعود على الفور إلى المقدمة. وبرغم جهوده، فقد ضاعت البغال بحمولتها. لحسن الحظ أن صناديق الذخيرة مخبأة

لدى البدو، يا للصفقة! كل ما يُرجَى هو ألا يكون علينا حملها من جديد!"

وتواصل التقدمُ نحو الغرب. وسُمِعت عيارات نارية أخرى، آتية من مسهالة دائما (تبيّن من بعد ذلك، أن سي عباس وفوجه، هم من وقعوا في اشتباك مع جنود العدو في مسهالة – لحسن الحظ دون خسائر!).

استنتج عجول بحق، أن الفرنسيين قد ركزوا قواتهم في مسهالة. فقرر النزول رأسا نحو الشمال، لا سيما وأن النهار الآن قد طلع تماما، وهي فترة الاستراحة العادية لدى جيش التحرير الوطني. فأمر بالتفرق والصمت وعدم الحراك، كل واحد في خندقه.

بقي المجاهدون الذين تمنعهم الإثارة من النوم، هادئين حتى المساء. أرسل عجول رجليْن إلى مخيّم البدو، شمال مسهالة تماما، لجلب الجرحى.

وأرسل في الوقت نفسه، دورية نحو وادي عليف، الذي يبعد بأربعة كيلومترات، حيث يوجد مستودع لجيش التحرير الوطني، مليء بالأدوية والضمادات والأغذية. وتمت معالجة الجرحى الذين جرى نقلهم على ظهور الإبل. وبقي الطعام على النقيض كما هو – فقد كان الرجال من التعب، بحيث عجزوا عن الأكل. "أتعلم؟ ثمة أوقات في الحياة نتوقف فيها لإلقاء نظرة خلفنا، ونتساءل إلى أين نحن ذاهبون. لم تعد العضلات والعظام تستجيب كما في البداية. وكان الإيمان ما يزال قويا، لأننا لا يمكننا فعل شيء آخر. كانت جميع الجسور مقطوعة، وبقي وحده الطريق نحو الموت مفتوحا. ولكن حتى الموت نفسه، لم يعد يريدنا. وكأننا كنا نقزّزه بجوعنا وتعبنا. أوه! التعب. أعلم جيدا، هي كلمة نقولها، لكنها لا تكاد تزن شيئا أحيانا."

كان الإنهاك التام الذي أوهننا بلا حدود؛ كان يمنعنا من الاستراحة وتناول الطعام. كان التمر والرغيف عسيرين على المضغ، فكنا ننظر إليهما دون مدّ أيدينا رغم جوعنا."

أمر عجول – في الظلام المناسب – بالسير مجددا، نحو الشمال الشرقي هذه المرة، باتجاه وادي شديدة، على الحدود، بين منطقة تبسة وخنشلة. ولكن الرجال، هذه المرة ، رفضوا الذهاب إلى أبعد من دار القايد، لشدة الإنهاك. "توقف يا سي عجول، لقد اجتزنا نصف الطريق، هذا يكفي.". فاستلقى عجول إلى جانبهم، وكان يتحدث ويناقش طيلة ساعات وقرون. كانت يداه تتحركان وهو يتكلم؛ كانت أسنانه تبدو ضخمة وشفتاه جافتين. كانت قشور من الدم عالقة بساقه الأيسر وكتفه. كان يعد بأزياء جديدة، وأسلحة جديدة. ثم فتش آليا في كيس، فوجد فيه صفارة. فأصفر وقمنا، ظنّا منّا أنه هجوم من العدو.

نظر عجول إلى أقدامهم المنتفخة والنازفة، ثم أمر بالسير: "حالا! انطلقوا."

وقد أفلح في مدّهم بالطاقة، من أعماقه، لتشجيعهم وتحفيزهم، رغم حالة الإنهاك التي كانوا عليها. ولم يَكْفِهم الليل بطوله، لبلوغ مخبأ وادي شديدة، حيث وصلوا بعد طلوع النهار بفترة.

ثم بدأت مرحلة استراحة دامت عدة أيام. وبعد يومين من وصولهم، التحق بهم عباس وفوجُه. فكانت البهجة، رغم غياب ثمانين من ذويهم – خمسة وأربعون قتيلا، بينهم خمسة وثلاثون في مستهلّ المعركة، وعشرة أثناء اختراق صفوف العدو، وأربعون أسيرا.

وتواصلت المعارك لخمسة عشر يوما، يتراوح عنفها حسب الأيام.

موت شيحاني

ظل شيحاني في هذه الأثناء مختبئا في المغارة مع الشيخ علي وشامي وعبد الرحمن.

فشيحاني كان آمنا داخل المغارة، الواقعة على الضفة الشرقية من وادي هلال، لنحو ثمانية أيام. أخلت القوات الفرنسية المكان في الرابع من أكتوبر 1955، وشيحاني غادر في التاسع. وتوجه إلى العامرة، آخر مرحلة قبل القلعة. فوجد هنالك مساعديْه المُقرّبيْن: عجال عجول وعباس لغرور، ومعهما لزهر شريّط. كان الجو ثقيلا. وكان اللقاء يخلو من الحفاوة بصورة رهيبة، ولكن لم يبدُ على شيحاني ملاحظة شيء. إنهم جميعا هنا في مقر قيادة القطاع. ولأول مرة، وكما لو كان يريد تأكيد سيطرته، فقد علّق بدبّوس على أعلى صدره إلى اليمين، شارة القيادة: نسر ذهبي رائع، مشرع الجناحين عريضا. اقترب منه بيشة جودي، الذي لم يفارقه منذ رحيل مصطفى بن بولعيد، وسأله مازحا: "سي مسعود، لِمَ هذه الشارة؟" مُلمحا بصورة ظاهرة، إلى أن الوقت غير مناسب تماما.

فضحك شيحاني. "لماذا؟ هل تضايقك؟ دعك من هذا! وحتى لا أحطّ من كلامك، ها أنا سأنزعها." وافتتح الجلسة. قرأ النائب تقريره عن معركة وادي هلايل. وعدّد تصاريفها بنبرة كئيبة ثم خلص: "الحصيلة سلبية. لقد منحنا الاستعمار فرصة ذهبية، ليقتل أفضل عناصر جيش التحرير الوطني، ممّن يمثلون هيكله. لم يكن نصرا للثورة. كما أننا خسرنا كثيرا من الأسلحة." كان شيحاني يسمع ويدوّن ملاحظات. كان مصباح البترول ذو البطن السمين، مثل بطن هِرّة حبلى، الموضوع على طاولة واطئة، يتنهّد ويُصفِر. يُبدي عجول، الذي يشدّ ذراعه الأيسر

بعصابة، وجها كالحا. ما يزال بؤسُ العالم أجمع ينعكس فيه. هو يعتبر نفسه – وهو في الثانية والثلاثين – الأخ الأكبر لشيحاني وعباس، اللذين لا يبلغان مجتمعيْن الخمسين.

ذكر عباس بدوره المفقودين، من ماتوا ومن أُسِروا منهم، بـ"المجاهدين الحقيقيين." ذكرهم، وقلبه مثقل، هو الذي طالما رقّع أثوابهم، وصلّح مذاييعهم ذات البطاريات بالمطاط، وحمل عُدّتهم على أكتافه العريضة، وداوى جراحهم أو أمراضهم، مثل أمٍّ رؤوم مُحِبّة.

وتناول شيحاني الكلمة. "أتفهّم شكواكم وحزنكم. لن تذهب تضحياتُ هؤلاء الشهداء سدىً. لا تقوم الثورة بجيش "أوبريت". لن أستعمل مقولة ، أنه لا أحد ضروري – بل بالعكس، فجميعنا في كفاحنا، لا غنى عنا."

قال لي عجول: "لقد سعى شيحاني إلى إغراق السمكة. فقد كان من الصعب عليه قبول خطئه." "لِمَ لمْ تقل له أي شيء، عندما تحدث عن تنظيم اجتماع الجرف؟" "أقول لك بصراحة، لم يكن هذا شأني. فهو منذ قضية الغبروري يأمر وأنا أطيع."

لا يهم، فقد ترك شيحاني العاصفة تمر [1]، وأمرهم بأن يلتحق كل واحد بمنطقته، وضرب لهم موعدا بعد ثمانية أيام في القلعة.

20 أكتوبر 1955. حضر إلى القلعة أعضاء القيادة، إضافة إلى لزهر شريّط، أما سيدي حني فقد تخلف في وادي شديدة ولم يستطع الحضور. كان قادة النواحي والكُتّاب هناك متنبهين. وبدأ شيحاني الرسمي جدا: "لقد فكرتُ كثيرا. أشعر بأكبر المخاوف على الثورة. لقد

---

1) تفطن شيحاني خلال ربيع سنة 1955، أثناء إقامة بحاسي مسلّم إلى طموح عجول. فقال له: " يا عجول، سنلتقي في هذه الحياة أو في الموت. إن كلام سي مصطفى مقدس، وسنحترمه ما دام حيا، وبعد موته ما بقيتُ أنا حيا."

سلك الأوراس طريقا سيئا. لقد عهد إليّ سي مصطفى بن بولعيد بالإدارة. وأنا إلى اليوم مستودع هذه الهبة الوحيد. إن سي مصطفى هو أبونا جميعا. وأنا أخلفه حتى عودته، وأطلب منكم أن تُقسِموا مثلي على احترام إرادته."[1]

أجري اقتراع ثقة بكياسة. كان شيحاني يجهل أن مصيره قد تم البتّ فيه. ووضع مبتسما يديه، على أيدي عجول وعباس وشريّط وأقسم. وفعل الآخرون مثله. هم الآن مرتبطون بهذا العهد. ثم انتقل شيحاني إلى الأمور الجديّة، ففتح سجلّه ونظر إلى عجول: "عجول، ستغادر كيمل. أنت منقول إلى تبسة." فأجاب عجول بكل هدوء: "حسنا! سمعا وطاعة!" [2] فكتب شيحاني في السجل بتاريخ 20 أكتوبر 1955: تم نقل عجول إلى منطقة تبسة. ثم التفت نحو لزهر شريّط: "أنت منقول إلى كيمل." فاحتج شريّط: "ولكنني سأضيع في كيمل. لا أعرف أحدا هناك ولا أحد يعرفني." "لا تقلق. سأعمل على أن تعرفها في وقت وجيز. فهل أنت جاهز؟" "أجل، أنا جاهز." ودوّن شيحاني مرة أخرى في السجل. [3]

وجاء دور عباس، فأخبره شيحاني بأن عليه الالتحاق بالمنطقة السادسة (تبسة) مثل عجول، بمهمة خاصة تتمثل في تنظيم الحدود الجزائرية التونسية، الواقعة شمال تبسة بين جبال "مجردة" و "أم

---

1) كان أول قَسَم في 30 أفريل 1954 في مزرعة مصطفى بن بولعيد في لامبيز. وقد كان حاضرا كلٌ من مصطفى وعجول وعباس ومسعود بلعقون والطاهر النويشي. وبعد خمسة عشر يوما، أدّى شيحاني وحاجي وخنترة بدورهم القَسَم نفسه، بالمشاركة في اندلاع الثورة وعدم خيانتها.

2) كان عجول يُخفي تحت مظهر هادئ، غضبا كبيرا واضطرابا عميقا. وشرع فورا في تأليب عباس، مؤكدا له أن شيحاني، لا يملك أية سلطة عليهما، وأن عليهما القيام برد فعل. واقترح الذهاب إلى معقله بدرمون لتسوية المشاكل نهائيا.

3) السجل والختم وسلاح يدوي والآلة الراقنة المحمولة، والمراسلات والوثائق المتعلقة بالاتصالات، التي جرت مع باقي الجزائر أو الخارج، كل ذلك مخبأ في كنانة من كتان – وهو ما جعل شيحاني يقول غالبا: "أحمل الإدارة كلّها على ظهري!"

الطبول"، بما في ذلك عنابة. "كما سبق أن قلت لك، فالوضع ليس متألقا في هذه المنطقة الحيوية بالنسبة للثورة؛ إنني أعوّل كثيرا عليك. فهل أنت موافق؟" ووافق عباس.

فدفع شيحاني بالسجل نحوهم. وبصورة طبيعية تماما، وضعوا توقيعاتهم عليه. و صار الجو أليفا بعد أن كانت تسوده الكآبة. وجلس معهم شيحاني هادئا، منشرحا، يشاطرهم الوجبة. عندما حل وقت الافتراق، اقترب منه عجول. "أريد أن تُكرمني بحظوة!" فأجاب شيحاني بيده على صدره: "اطلُبْ. اعتبرني مثل أبيك!" "حسنا، أريد أن نذهب جميعا إلى حمّام شبّورة، وأن نقضي هنالك بضعة أيام. سيسمح ذلك للزهاري شريّط، بالتعرف أفضل على المنطقة، والتآلف مع المجاهدين." "فكرة رائعة! اعتبرني موافقا."

لم ألتق بيشة جودي إلا في حدود سنة 1985 أو 1986. وكانت هذه أول مرة. كان عجول قد حدثني عنه بصفته حارسا شخصيا بسيطا فلم ألِحَ في معرفة المزيد. وعندما كنتُ أقضي عطلتي في باتنة، زرتُ كالعادة عجول. فوجدته مريضا، وكان يلبس نظارات رؤية غليظة. وكالعادة، قررنا القيام بجولة إلى أريس، ثم المرور بعد ذلك إلى مكان آخر... سوف نرى...

وهكذا اقترح علي أن نذهب من أريس إلى تكوت. "فلنذهب إلى تكوت!" ظننتُ أنه ذاهب إلى هناك لقضاء بعض شؤونه. وتوقفنا أمام البلدية.

"سأقدم لك شخصا." لم أكن أفهم. دخل بخطوة مترددة إلى المبنى (كان بصره قد ضعُف كثيرا)، تاركا إياي أمام لافتة ضخمة؛ على الواجهة: "بالشعب وللشعب". ثم خرج يرافقه رجل قصير القامة، نحيف وجاف مثل غصن دالية. وقد أثقل رأسَه شاشٌ أبيض حائل، وهو يَسبح في سترة وسروال عريضين، وينتعل حذاء قماشيا أبيض.

أشار إليه عجول بكل عجرفة، وأعلن بصوت ساخر: "ها هو بيشة!" وصافحني بيشة، وقال إنه سمع عجول والآخرين، يذكروننني في كثير من الأحيان. "أهلا بكم في بلاد آخر الدنيا ! كيف أمكنكم الضياع في هذه البقعة النائية؟" وأخذَنا رأسا إلى مقهى، لتذوُّق شاي الفقراء كما قال. لم تكن عيناه الماكرتان تدَعان شيئا يَبِين. ذهب عجول إلى دورة المياه، فانتهزتُ الفرصة وسألتُ : "بيشة، ينبغي أن نتحدث أنا وأنت" "أجل، ولكنني لا أعرف الكثير." "لقد رأيت مع ذلك أشياء، أليس كذلك!" "من المؤكد أنني رأيت!" ثم سكت حين رأى عجول عائدا. "ها، ماذا كان يقول لك هذا العفريت؟" "لا شيء يا سي عجول، كنتُ أحدثه عن تكوت." ردّ بيشة بدلا مني ضاحكا. وبعد بضعة أيام، اشتريتُ كراسة تلميذ، وصعدتُ ثانية إلى تكوت، حيث قضيتُ يوما كاملا مع بيشة على انفراد.

ولكن لنسمع قبل ذلك رواية عجول: "كما قلتُ لك، كنتُ قد شممتُ في تصرّف شيحاني شيئا غريبا. فطريقته في الحديث، حتى أني أقول تهامسه مع كُتّابه، والضحك طول الوقت معهم دون سبب، كل ذلك بدا لي غير لائق. ولكن حيثُ جاوز الحدود، إنما كان أثناء معركة وادي هلال. فقد جاء الشيخ علي ينبهني، إلى أن شيئا مايحدث داخل المغارة. "شيء ما؟" لقد رأى شيحاني وأحدَ الكُتّاب يأتيان فعلا منافيا للطبيعة. حادثتُ عباس في الأمر. فقال لي: "سأقتله." فمنعته مخاطرا بحياتي، إذ أنه كان سيُصفّيني معهما لو أنني أصررت. "هذه الأشياء كما تقول، تكون قد حدثت أثناء المعارك؟" "أجل، فشيحاني لم يخرج مرة واحدة، هو لم يطلق عيارا ناريا واحدا." "وبعد خروجه، ما الذي حدث؟" "ألححتُ على عباس من أجل محاكمته. واستمع إليّ عباس. وحوكم شيحاني وأدين ثم أعدِم." "من الذي حاكمه؟" "لا أذكر، عباس

وآخرون. لقد كان مستشيطا غضبا. لقد سعيتُ لمنعه من قتله، ولكنني لم أُفلح."

أستعيد منظر عجول أمامي. فبقدر ما يُسهب في سرد الأحداث التي ترفع من شأنه، بقدر ما يصبح موجِزا حين أخوض في حالة شيحاني، أو حالة استسلامه هو للفرنسيين، في نوفمبر 1956 في زريبة الوادي. أوه، هو لا يرفض الحديث في ذلك، ولكنه يكرر الشيء نفسَه في كل مرة، ودائما بصورة هادئة. وقبل وفاته ببضعة أشهر، سألته دون أن أقول له إنها آخر حظوة أطلبها منه، عن الحقيقة بشأن موت شيحاني. فأجابني: "لقد كانت لشيحاني علاقات منافية للطبيعة. وقد راقبه عباس ورآه. وقد بدا له ذلك غير قابل للتصديق، لدرجة أنه وخز عينيه بإبرة! (*)"

ولنر الآن رواية بيشة جودي: "بعد كارثة وادي هلال، بقينا مثل كلاب جريحة، نلعق جراحنا ونحاول استعادة قوانا. أما سي عجول، فلم يكفّ عن الحركة. فقد أجرى جردا للأسلحة والذخائر والرجال، واضعا نُظّاره في المناصب الحساسة. وأعاد تنظيم الفصائل لمصلحته. وفكّك الفصيل المخصص لحماية مقر القيادة وشيحاني. لم أكن موافقا. فقال لي: "لا تقلق. فأنا أحتفظ له بحماية أفضل".

كان شيحاني ما يزال في مغارة وادي هلال. وأثناء غيابه، كان عجول يتصرف بمطلق السيادة، لا يعارضه أحد. فقد كان عباس لغرور تحت تأثيره. وقد فاجأتهما في عديد المرات مجتمعين بصفة غير رسمية مع لزهاري شريّط، ولكنني "بأمّيتي"، لم أفكر في أمر سيء.

(*) منذ أن صدر الكتاب باللغة الفرنسية في 2001، وصلت الكاتب توضيحات جديدة من شاهدين مقربين مازالا على قيد الحياة، وهما يرفضان من خلالها فكرة أن شيحاني "يتميز بسوء أخلاق". هذان الشاهدان، وهما عبد اللطيف قمازي ودراجي بن حبيلس، كانا يدرسان معه في مدرسة جول فيري بقسنطينة وكانا مقيمين معه – في النظام الداخلي – لمدة ثلاث سنوات.

وقد قال لي سي مصطفى بن بولعيد: "شيحاني هو الرجل الذي يدوّن كتابات الثورة. وإن حدث له أمر ما، فإن الثورة تصبح غبارا."

لاحظنا جميعنا في العامرة غضب عجول وعباس، ولكننا ظننا أنه تم فقع الدملة، وأن الأمور ستعود إلى طبيعتها. كان شيحاني واثقا من نفسه فوق اللزوم. كان يظن أن وعد عجول وعباس لمصطفى بطاعته وحمايته سيتم احترامه. لم يكن حَذِرًا. أنا أعرف عجول منذ سنوات طويلة. أعلم أنه بئر بدون قعر، قادر على تحمل أي شيء لبلوغ غايته. ولأسباب، لِنَقُلْ أنها أمنية، منعني من رؤية شيحاني. فقد كان في فترة نفوذ، سي عجول! و"يده رابحة". فقد عُزِيَ إليه فضلُ الإبقاء على جيش التحرير الوطني في وادي هلال. وقد قيل أن برودة أعصابه وحنكته، هما فقط من أنقذ جيش التحرير الوطني، من استئصال مؤكد. بدأ الأمر بالهمس، ثم صار يُقال صراحة وعاليا أكثر فأكثر، بأن القيادة العليا من حقّه شرعا!"

وأسأله: "أي سبب أعطاك إياه يا بيشة؟" "لقد أوحى لي بأن رؤيته خطر عليّ. فقد قال: "إن علي كربادو معه، وهذا يكفي."

أنا أمّنتُ حراسة الإدارة منذ بداية الثورة [1] حتى خلفني الحاج كربادو، أنت تعرفه، ذلك الذي قتل قائد القطاع، الذي ارتكب الخيانة الزوجية[2]، والذي كاد ينشقّ رفقة رجاله. فشيحاني الذي كان حاقدا عليه كثيرا في البداية، تعرّف عليه جيدا بعد محاكمته، وعرض عليه حراسة مقر القيادة. وبعد تعيينه قائد كتيبة، تم تعيين أخيه الأصغر بدله."

---

1) قبل رحيله إلى المشرق، شكّل مصطفى بن بولعيد فصيلة من 35 رجلا لضمان حماية الإدارة، مع بعدم نقلها. وخلال غياب شيحاني، الذي كان في جولة تفتيش في النمامشة، فكّكها عجول وعوّضها له. فنصح بيشة، الذي علم بالأمر، شيحاني بجمع فصيلة أخرى، مكونة هذه المرة من مجاهدين نموشية له شيحاني: "أنت ناصح أمين. أرأيت، إن تعليمي لا يفيدني في شيء هنا."

2) انظر أعلاه .

"ما الذي حدث بعد اجتماع القلعة؟" "بعد الاجتماع، غادروا القلعة في اليوم الموالي، جميعُهم سويا: شيحاني وعجول وعباس وشريّط، تصحبهم على الأقل ثلاث فصائل من الجنود. لاحظتُ أن عجول لم يفارق شيحاني ثانية واحدة. فقد كان طول الوقت وراءه. كان يزعم أنه قلق على أمنه. وقد وضعه تقريبا في السّرّ، مانعا إياه من أن يَرى أو أن يُرى. وقال له: "يا سي مسعود، أنا اتصالك. أُأْمر وأنا أبلّغ. فأمنُك أولى من كل شيء." وصنع الفراغَ من حوله، ولم يترك سوى علي كربادو الذي أوصاه بأقصى الحذر. "احذر، فالاستعمار يريد قتل سي مسعود. فلا تدعْ أحدا يقترب منه." وكان علي كربادو شابّا قوي البنية. "لا تقلق يا سي عجول!" توقفنا بالعامرة لتناول الطعام، ثم صعدنا باتجاه الشمال الغربي نحو تافاسور. وأثناء هذا المقطع من الطريق، أخذني عجول جانبا، ليحدّثني عن ما يسمى بخيانة شيحاني، وليكشف لي خطته.

وقال لي: "حتى سي مصطفى قبل رحيله، كان قد كشف لنا أنا وعباس، أن شيحاني كان قد فرّ في مستهل الثورة، منذ الأيام الأولى، وبأنه أعاده في آخر لحظة، وأنه لا ينبغي الحديث عن ذلك." كان عجول يقول لي كل ذلك لجلبي إلى صفّه. وأنا الذي كنتُ حاضرا منذ البداية. لم أسمع في حياتي بمثل هذه التُّرهات! وأضاف: "لقد فعل شيحاني شيئا خطيرا في الجرف. وستتم محاكمته." ولزمتُ الصمت لأنه كان محظورا علينا، نحن الجنود البسطاء طرح الأسئلة على المسؤولين؛ لقد كنا تحت طائلة الموت. لم أكن أخشى عجول. بل كنتُ أحترمه، وكنت أشعر أمامه بالخط الأحمر، الذي لا ينبغي تجاوزه. وقد قال: "على أية حال، عليك بطاعتي والبقاء جانبا، هل فهمت؟"

خلال إحدى مراحل التوقف، سمعتُ بعض الجنود يتحادثون بينهم: "هما سيُعدِمان عليًّا أولا." ووقعت السماء على رأسي. فـ "هُما"، لا يمكن أن تعني سوى عجول وعباس. ومُخاطِرا بحياتي، اقتربتُ من علي كربادو، الذي كان يروح ويجيء أمام مخبأ شيحاني. "يا علي – قلتُ له– أأنت يقِض؟ "أجل." "كن حذرا جدا!"

"إذا كانت الضربة ستأتي من الاستعمار، فأنا جاهز." "كلا. راقب محيطك. إنهم يريدون تصفيتك وسي مسعود معك". كان علي كربادو مسلحا ببندقية ماس 49.

فتنحّيتُ، ولكن ليس بعيدا. وبعد فترة، رأيتُ في الليل عجول وعباس، يتوجهان نحو علي كربادو، الكامن الآن أمام المخبأ. فصاحا: "اخرج!" فردّ عليٌّ: "أنا علي. فمَن أنتم؟" فأَصْفرتْ رشّةُ عيارات في اتجاهه. وردَ عليها، ثم سمعتُه يلوذ بالفرار، تاركا شيحاني.[1]

وأقبل بعض الجنود مسرعين. فأمرهم عجول بالتفرق !

لعنتُ نفسي وشتمتُها. عليك اللعنة يا بوسنة،[2] أيها الجبان، عليك اللعنة! بينما هم يُخرِجون شيحاني من المخبأ مذعورا ويقيّدونه كالخروف." "من هم؟" "جنود، لا يهمّ، مُنفِّذون، لا شيء في رأسهم." "أقال شيئا؟" "كلا. رأيتُ فقط دهشة وخوفا. أنا نفسي كنتُ ممزّقا من الداخل. ثم إنهم لو رأوني، لقتلوني بالتأكيد. وفررت، بينما كان مجاهدان يتجهان نحوه، وهو ممدد على الأرض."

نحن في مساء الثاني والعشرين من أكتوبر 1955.

"أسرعتُ نحو أعالي الناس[3] – يواصل بيشة – وهو القطاع الذي يقوده صحراوي بيوش، أحد أقارب عجول. كان على رأس فصيلة من

---

1) سلّم علي كربادو المهدد بالموت نفسه إلى السلطات الفرنسية في حدود 20 ديسمبر 1955.

2) بوسنة هو اسم شهرة بيشة.

3) أعالي الناس منطقة شهيرة بعسلها الأبيض.

35 جنديا. فأبلغته الأمر. فراح يبكي. فقلتُ له: "ليس هذا وقت البكاء، أنا ذاهب لأقتل عجول. ليس علينا تركهم يفعلون. فسي مسعود ليس من الأوراس. وهو لا ينتمي إلى أية قبيلة: ليس ثمة رجل يرتمي من أجله. ولا تنس يا بيوش! فقد وضعه سي مصطفى تحت حراستنا. إنه ضيفنا، وله علينا حق الضيافة والحماية!" كان بيوش خائفا. فقال لي: "أنت تريد موتي يا بوسنة، قل ذلك، قل إنك تريد موتي !من أكون أنا حتى أعترض على سي عجول؟ هه، قل لي!"

كان فجر الثالث عشر من أكتوبر يضيء في خُفوتِ صخور أعالي الناس ورؤوسها، مثل صورة حوّل الزمن لونها إلى الأصفر. كان في استقبال عجول وأسيره المقيّد وحرسه، بيوش الذي كان يتجنب على الدوام النظر باتجاه الأسير. كان الجميع يسيرون بخطى حثيثة عندما وقع حادث مفاجئ: فبيشة في قمة سخطه، قد وقف وسط الطريق، مُفرِّجا ساقيه، مُوجِّها فوهة بندقيته إلى الأمام وصاح فيهم بصوت حزين وأبحّ : "توقفوا! لماذا قيّدتم سي مسعود؟"

لم يكن يتوجه لأحد بالتحديد. وكان شيحاني الشاحب، يشير إليه من بعيد برأسه، إشارات يائسة بأن يبتعد. وتدخل بيوش : "بالله عليك يا بوسنة، لا تطلق النار! ينبغي أن يموت سي مسعود. دعهم يقتلوه." فصاح بيشة "كلا، سأطلق النار." وألحّ بيوش بصوت الشاكي: "ستكون إذن سبب مجزرة جماعية، ولن أغفر لك ذلك. أهذا ما تريد؟" ولاحظ بيشة حركة من جانب عجول. فالتفت نحوه وصرخ: "إلى الوراء!"

تظاهر عجول بتسوية بندقيته الأمريكية "الكرابين". فمنعه بيوش. "سي عجول، لوجه الله!" فتراجع عجول قليلا. وتوسط بيوش عجول وبيشة، مستخدما جسمه كوقاء، وأبعد شيئا فشيئا بيشة، بالتراجع على طول الطريق، ثم تركه على بعد نحو عشرين مترا.

النهار قد طلع الآن تماما. وقد تفرقوا جميعا في صمت، كل واحد في زاويته. حفر بيشة اليائس والناشف الشفتين، خندقا في أعلى الربوة، وبنى حائط حماية بالحجارة، واستلقى بطوله، واضعا الرصاصة في حجرة النار. إنه ينتظر بجميع حواسه. عند الثامنة، جاءه مجاهد بالقهوة والسجائر. لم تكد الشمس الباردة تدفئه. الوقت يمر بطيئا.

عند التاسعة والنصف، تم إعدامُ شيحاني ودفنُه، كما هو، في ثيابه. وقد اختفت كنانته الكتانية. 9×

أسأل عجول سنة 1987: "من أمر بإعدام شيحاني؟" (1) إنها المرة المليون التي أطرح عليه فيها السؤال، كي أجد الثغرة وأتسلل منها بمجامعي كاللعين، ولكن ذلك أشبه بمحاولة تقييد الأرجل الأربعة لقط حيّ في وقت واحد. "إنها المحكمة، فقد حوكم وأدين." "بمن انعقدت؟" "إن ذلك يعود إلى زمن بعيد. لم أعد أذكر. لقد أعدّ عباس كل شيء." وهكذا أجد نفسي كالأبله أمامه! فأنظر إليه وأصمت، لأن ثمة احتراما على أية حال لا يمكنني المساس به. إن نزعته المتكررة، لتحميل عباس كامل تبعة محاكمة شيحاني وإعدامه، ظلت ثابتة حتى الساعات الأخيرة من حياته.

ولنواصل. فبعد الإعدام بساعات، ساد صمت غريب، غير اعتيادي؛ مثل ذلك الذي يعقب الفراغ من أضحية العيد، حيث ينهار التوتر، بتكفير الذنوب. غادر عجول وعباس وفصيل الجنود أعالي الناس، بما فيهم بيشة المدمَّر المستنكر. "كنتُ أريد أن أصرخ، أن أقتل، أن أمزق نفسي، ولكن كَلاّ، لا شيء من هذا كله، فقد وجدتُ نفسي أسيرُ مع الآخرين،

---

1) يُحكى أن أحمد بن عبد الرزاق قد قال: "طوبى لشهداء الثورة، سواء سقطوا على يد إخوانهم أم على يد الاستعمار. فهم عند الله شهداء في جميع الأحوال."

منحنيَ الظهر، مكسور الجناح". وتوجهوا نحو درمون في الجنوب الغربي. وطعموا في برج عجول العائلي، ثم ذهبوا للسباحة الاعتيادية في حمّام شبورة واستمرت الحياة.

ونحن ساهران معا على رأس عجول الذي كان في حالة غيبوبة، قالت لي زوجته، ردّا على سؤالي : "كل الوجبات التي أعددناها في البرج أثناء الحرب، إنما كانت من مال النظام. وعجول الذي طالما اكتفى بالقليل لنفسه، كان يُلِح على الدوام على أن يتغذى المجاهدون جيدا."

عاد عباس ورجاله قبل طلوع النهار إلى القلعة. كان عباس يريد اغتنام الظلام، لأن عليه اجتياز منطقة عارية كراحة اليد. فقد كان على الجنود أثناء النهار، لزومُ الجمود في حال استطلاع جوي للعدو.

وبعد رحيله، قام بيشة وتحدى عجول جهارا؛ [1] أمام الجنود: "يا عجول، إن جيش التحرير الوطني يقاتل من أجل مصالحك الشخصية، لا من أجل الثورة!" فوجئ عجول وأمر: "أوقِفوه!" ساد ما يشبه التردد بين المجاهدين [2]. وواصل بيشة، باتجاههم هذه المرة: "أنتم شهود! أنتم تعرفونني! من أكون؟ أنا راعٍ، حيوان منحته الثورة وجه إنسان. يا عجول، أنا أطلب منك أمرا واحدا: قل الحقيقة بشأن سي مسعود." وتقدم عجول، فاتسعت الحلقة ببطء أمامه. "حسنا، سأقولها لك، وأنتم جميعُكم ستحكمون. لقد حاكمت المحكمة الثورية شيحاني وأدانتْه،

---

1) كانت العلاقات بين عجول وبيشة حتى ذلك الوقت، مطبوعة دوما بالاحترام. وقد رويا لي كيف أن بيشة في قلب الحرب، كان ضحية لحمّى خيل قاتلة، استعصت على كل علاج. فدفنه عجول يائسا بالفعل، تحت أطنان من التراب والحجارة، ولم يترك ظاهرا منه إلا الرأس، فاختفت الحُمّى. فلحُمّى الخيل إذن علاج الخيل!

2) يخشى الجنود عجول أقل مما يخشون عباس، الذي يجلّونه ويهابونه هيبة تكاد تكون شبه مقدسة.

لأنه سرق أموال النظام، نحو خمسة ملايين [1]. ثم إنه اعتدى على ثلاث نساء دون أن تكون أي منهن زوجته الشرعية."

فردّ بيشة، وقد بُحّ صوته من السخط: "إنه يكذب! لا تصدقوه!" فصاح عجول: "اقتلوه!". ولم يقم المقاومون بأية حركة. فانتهز بيشة الفرصة للفرار. [2] في مساء اليوم نفسه، تعشى عجول مع عباس في مقر قيادة القلعة. كانت مأدبة فاخرة! أعلمه اتصال بأن مسؤولي النواحي والمناطق، ينتظرونه في مقر قيادة كيمل. كان شيحاني قد استدعاهم، بينما كان ما يزال في مغارة وادي هلال. فحجزهم عجول لبضعة أيام أخرى في كيمل، حدّ استنفاد صبرهم. ثم أرسل من يقول لهم – انطلاقا من القلعة دائما – بأن يعودوا إلى قواعدهم وينتظروا استدعاء آخر قريبا. غير أنه قام باستثناء، وأذن لعلي بن شايبة وعلي بعزي بالمجيء لمقابلته في القلعة.

جرت محادثاتي مع علي بن شايبة في الغالب داخل محطته للبنزين في باتنة، وسط رائحة المازوت والشحوم. "مع علي بعزي – يقول لي – بلغنا مقر قيادة القلعة ليلا. التاريخ؟ لا يمكنني ذكره بالتحديد، ربما كان آخر أكتوبر 1955. كان شيحاني قد استدعانا لاجتماع في كيمل، وانتظرناه هناك لعدة أيام. كان يقال لنا كل يوم بأن نصبر. لم يأتنا أي عضو من القيادة. حدّثنا بعضُ المجاهدين عن معركة الجرف، دون إعطاء الكثير من التفاصيل. وبعد ذلك، احتججنا، وقلنا لهم: "دعونا نَعُدْ إلى مراكزنا، فلدينا عمل ينتظر، ونحن نُضيع وقتنا هنا." فجاء الأمر للآخرين بالالتحاق بمناطقهم، ولي ولعلي بعزي بالتوجه نحو القلعة.

1) خمسة ملايين سنتيم. معلوم أن السرقة والزنا يعاقبان بالموت.

2) حدث أثناء الثورة أن تمت تصفية رجال دون إعطاء أي تبرير. و"النباش" الذي يريد معرفة الأمر، يعلم آليا.

حُكم عجول

في القلعة، استقبلنا سي عجول وسي عباس، مسروريْن وسط مائة وخمسين مجاهدا تقريبا. كان جوا احتفاليا. بل جو استقلال، بطعام وفير، وسي عباس باسم وبشوش[1]. حتى أني جرأتُ على السؤال عن شيحاني. فأجابني سي عجول بأنه في مهمة في جهة النمامشة. وأضاف: أعود غدا إلى كيمل. سترافقني مع حسين معارفي." وحدثني عن معركة وادي هلال التي لم يكن لدينا عنها أيُّ تفصيل. قال لي أن جيش التحرير الوطني قد واجه لأول مرة، قوات استعمارية بأعداد كبيرة لمدة أربعة أيام، دون أن يفقد توازنه، وقد خرج منها مُشرَّفا. حتى أنه أراني جراحه."

وكما كان قد تقرر، فقد ترك عجول وبن شعيبة ومعارفي وبعزي في اليوم الموالي، عباس في القلعة وعادوا إلى كيمل. وأثناء الطريق، توقفوا في برج عائلة عجول، واستحمّوا في حمّام شبورة، وبعد الاستحمام، عندما كانت الأجساد ما تزال تفور، وتضوع برائحة الكبريت، كشف عجول عن نواياه: "لقد قررتُ بشأن منطقة أريس، أن يكون حسين معارفي قائدها العسكري، وعلي بن شايبة القائد السياسي والطاهر النويشي مسؤول الاستعلامات."

لم يكن لبن شايبة، الذي حصل على كل حال على ترقية، أي رد فعل.ما لم يكن حال حسين معارفي الذي عبس. وما إن ابتعد عجول، حتى قال لبن شايبة، أنه لا ينوي قبول المنصب. "لقد رفضتُه في الماضي، وسأرفضه الآن. على أية حال، سأنتظر عودة سي شيحاني،

---

1) أكد لي عجول أن عباس كان نادرا ما يبتسم. وتعد المرات التي كان يبتسم فيها على أصابعْ اليد الواحدة. وكان يمكن- يا للأعجوبة – رؤية أحد أنيابه العلوية إذا ما ابتسم.

وهو من سيفصل في الأمر." عاد عجول، فحدثه بن شايبة عن تحفظات معارفي. ثم أضاف هذا الأخير من تلقاء نفسه: "لن يقبل بي أبدا أناس أريس!" فكان رد فعل عجول عنيفا. "هذا أمر! نحن في حالة حرب! تعرف ما يجري لمن لا يطيعون! وفعل التهديد فعله. وقبل معارفي وبعد ذلك بفترة، شرح له بن شايبة بأن عجول، بتعيينهما هو ومعارفي في أريس، قد أراد أن يفهمهما، بأن على التوابة العودة إلى مناطقهم الأصلية.

وأعدّ عجول التعيينات، وسلّمهما إياها في وقت واحد، مع تعيين الطاهر النويشي الموجود في بوعريف في جهة باتنة. وسلمهما أيضا حزمة مناشير[1] للتوزيع في منطقة أريس. وقال لهم إن نواورة والحاج لخضر ورعايلي وطورش موافقون على محتوى المناشير، وأن النويشي مهتم أكثر بمنصب مسؤولية: "إذن، أنا أمنحُه واحدا!"

غادرهم علي بعزي للالتحاق بمنطقة مشونش. لم يكن حسين معارفي يشعر بالأمان. وكأنه يريد أن يتجنب التورط في الخلاف الذي نشب بين بن عيسى وعجول. فقال لبن شعيبة: "لن يقبل بن عيسى الاعتراف بي أبدا، لأن تعييني موقّع بيد عجول. أنا موقن بأن منطقتَيّ الشلية وعين التوتة، ستكونان محرّمتين عليّ. في المقابل، لن تكون لي مشاكل ربما، مع مناطق مشونش وأريس وبريكة وسطيف وباتنة وبوعريف."

يظن بن شايبة أن رجال بن عيسى لو فتشوهما واكتشفوا المناشير، فقد يكلفهما ذلك غاليا جدا! وبالاتفاق، قررا إخفاء الكتابات في قعر كيسيهما، متواعدين بألا يُرياها إلا لأناس ثقة.

---

1) تقول المناشير التي حررها شيحاني، أن عمر بن بولعيد ورفاقه الثلاثة، مسعود بن عيسى ومدور عزوي ومسعود بلعقون، خونة، حكمت عليهم القيادة العليا بالإعدام.

منذ نهاية شهر أوت 1955، تسود حالة الطوارئ في الجزائر كلها. وقد أرسلت إليها تعزيزات فرنسية. ويحاول أكثر من مائة ألف رجل من القوات الفرنسية صدّ المدّ الثوري.

أواخر أكتوبر 1955. مرّ عام تقريبا على بداية الثورة. من نهاية فيفري 1955 حتى أكتوبر 1955، يكون بشير شيحاني قد تولى، وبأي تألق، قيادة الإدارة. وقد ترك عند موته ثورة بهياكلها وذات مصداقية، إذ أن "أخطر شيء في معركة، ليس السقوط أرضا، بل البقاء ساقطا." في الوقت الراهن، الثنائي عجول- عباس هو من يتولى القيادة بالنيابة. الواقع أن عجول هو القائد، لأن عباس المهتم بالعمل المسلح أكثر من الإدارة، يشغل كامل وقته في المحاربة، من النمامشة حتى الحدود التونسية، مزعجا القوات الاستعمارية دون توقف.

يعود إذن العمل الإداري لعجول ، انطلاقا من مقر قيادة كيمل. هو نظريا ينسق النشاطات السياسية والعسكرية للنواحي الست. وهو في الواقع لا يملك السلطة الفعلية، إلا فيما يتعلق بناحية بني ملول وجبل أحمر خدّو حتى بسكرة، وأبعد إلى الشرق حتى زريبة الوادي. وهو يحافظ على علاقات منتظمة مع عباس، ولكن الرجلين في الواقع، يميلان إلى عدم الابتعاد كثيرا عن معاقلهما الخاصة.

أما عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى، فيحتلان الجهة الغربية من الأوراس، ابتداء من جبل شلية، والجهة الواقعة بين واد عبدي والواد لبيض، غرب جبل زلاطو. وهما يعيشان في اكتفاء، ولا يعترفان بسلطة كيمل أو القلعة. هما يجهلان أن شيحاني قد مات، تماما مثل قادة النواحي البعيدة بعض الشيء، مثل فم الطوب وباتنة وبريكة وسطيف، الذين لم تصبهم بعدُ انعكاسات نزاعات القمة، والذين يواصلون العمل وفق تعليماتها.

انفصل أحمد بن عبد الرزاق، الواعي بعلاقة القوة الجديدة، والراغب هو أيضا في دخول فناء الكبار، عن عمر بن بولعيد. وبمبادرة خاصة منه، أنشأ ناحية جديدة تسمى ناحية الصحراء، وتحالف مع عاشور زياني، ونجح في جمع قوة من سبعمائة مجاهد. وحيث أنه ماكر وفطن، فقد سعى إلى التقارب مع عجول، بأنْ أرسل إليه مبعوثا في شخص حسين بن عبد الباقي، حاملا لرسالة ودية ومبلغ ثلاثين مليون سنتيم. وقبل عجول لقاءه، شرط إنكار مصالي رسميا. فقال المبعوث أنه سيراجعه، واستعاد المال وغادر كيمل واعدا بالعودة.

القســـم الثاني

النَّفَس الثاني

فرار مصطفى بن بولعيد

13 نوفمبر1955. لقد فرّ مصطفى بن بولعيد! انطلق الخبر مثل ما ينفلت الحبل الفولاذي المشدود جدا. وأشعّ سرور صامت فجأة في أعين المجاهدين. وأمام علي بن شايبة وحسين معارفي، كان لعجول هذا التعليق: "أنا أعرف سجن قسنطينة. فهو ليس إسطبلا ندخل إليه ونخرج منه كما نشاء. أظن أن مصطفى إما أن سجانيه قتلوه[1]، وإما أنه فاوض فرنسا على حريته، ولكنني أجهل الظروف التي تم فيها ذلك.*14 على كل حال، إن مصطفى وطني حقيقي، لا يتنكر أبدا لمبادئه."

عندما حدثني في الأمر بعد خمس عشرة سنة من ذلك، كان لديّ انطباع بأن هروب مصطفى بالنسبة إليه لا يشكّل حدثا. "أكنتَ سعيدا؟" فيجيبني بسؤال آخر: "وماذا يعني أن تكون سعيدا؟ فمنذ رحيله تطورت الأمور، وبرز رجال جدد. ولأنني أعرف غدر الفرنسيين، فقد قررتُ وضعه قيد العزلة. امتحان لأربعة أشهر على الأقل، كما ينص على ذلك التنظيم. ولكن الأحداث اتخذت منحى مختلفا." "لماذا؟" "لأن مصطفى تعرّض لتأثير أعداء الثورة، مثل أخيه عمر ومدور عزوي ومسعود بن

---

1) تتمثل "سخرة الحطب" الشهيرة لدى الفرنسيين، في اغتيال الأسرى الجزائريين ثم إعلان فرارهم.

عيسى." كان يتكلم، ولم يكن في صوته أي أثر للمرارة، كان فقط يقوم بعرض بسيط لوقائع كانت تسري بنفسها.

على كل حال، يشعر بن شايبة ومعارفي بالراحة. ففرار مصطفى سيمنح الثورة نَفَسًا جديدا. غادرهما عجول وحرسه في تاجموت، باتجاه كيمل. أما هما فنزلا نحو مشونش، حيث استقبلهما مسؤول الناحية محمد بن مسعود ونائبه علي بعزي، اللذان راحا يقرآن المناشير ويهزان رأسيهما. "كل هذه الخصومات بين القادة، هذا يتجاوزنا! ليت سي مصطفى يأتي لتطهير الجو قليلا!" الجميع متفقون، فمصطفى هو وحده القادر على تطهير الوضع.

يروي بن شايبة : "قضينا الليل في مشونش، وفي انتظار عبور جبال زلاطو وإشمول، حيث يتردد رجال مسعود بن عيسى، قررنا أنه من الأفضل لنا إخفاء المناشير في قعر محافظنا. وصعدنا نحو الشمال الشرقي، حتى واد عبدي بين أريس وباعلي. أخبرَنا أحدُهم بأن سي مصطفى موجود في الجوار. دون أن يحدد لنا بالضبط أين. فواصلنا مسيرنا نحو الغرب، واجتزنا جبل المحمل وغابة أرز بمنطقة سقاف حتى وستيلي. أراد جنود فوجنا الاحتفال بهروب سي مصطفى. فطلبوا مني أن أشتري لهم بمال التنظيم، زوج عنز ذُبِح وأُكِل في اليوم نفسه."

ووصل مصطفى بن بولعيد قبل ذلك بيومين فعلا إلى "فسديس" [1] شمال شرقي باتنة بعشرة كيلومترات. لقد قطع نحو مائة كيلومتر عبر الحقول والجبال انطلاقا من قسنطينة. وقد طلب – وقدماه داميتان ومنتفختان – بعض الماء والخبز من شيخ فلاح، يسكن في مكان

1) انظر قصة هروب مصطفى في الملاحق.

منعزل قليلا عن فسديس. فامتثل الشيخ. وعن سؤال مصطفى: "أثمة جنود فرنسيون في الجوار؟" أجاب: "أحيانا يوجدون، وأحيانا لا يوجدون."

قطع مصطفى ومرافقه باتجاه الجنوب. ومرا فوق لامبيز، وبلغا وستيلي حيث تعرّف عليهم بنو فاضل وآووهم. في أثناء ذلك، أخطر الشيخ الفلاح الذي حيّره الأمر، مسؤولي جيش التحرير الوطني المحليين. فلم يلبث أن جاء الأمر من مقر قيادة الناحية، بالعثور عليهما وجلبهما إلى فسديس.

وبعد يومين، تلقّى الحاج لخضر، قائد ناحية باتنة [1]، بواسطة اتصال، رسالة من مدور عزوي، يأمره فيها بالتنقل عاجلاً إلى وستيلي. وفي المساء نفسه، قابل مصطفى. وهذا ما يرويه: "حين قابلتُ سي مصطفى، كان من حوله أناس كُثر: أخوه عمر، وابن أخته مصطفى رعايلي وأحمد نواورة ومسعود بن عيسى ومدور عزوي وأحمد بن عبد الرزاق وكثيرون غيرهم. وقد استقبله بنو فاضل بلياقة وأحسنوا معاملته – (فهم مَن أخبر شقيقه عمر وقريبه رعايلي، قائد قطاع سطيف). وقد روى لنا إقامتَه في السجن، حيث بقي تسعة أشهر، "مدّة حمل" كما قال ضاحكا. "هل لاحظتَ تغيُّرا لديه؟" "كلاّ، فقد أقررتُ من الوهلة الأولى بسلطته، ووضعتُ تحت تصرفه قواتي، التي قوامها مائة وستون جنديا."

حدثت الأمور بالنسبة لعلي بن شايبة بصورة مختلفة. فقد وصل رفقة فوجه بالقرب من مخبأ مصطفى. فأوقفه وراء المحيط الأمني حراسٌ مدقِّقون. غير أن مجاهدا أكّد له، أن مصطفى قد مرّ حقا من

---

1) يحدّ ناحية باتنة من الشمال الغربي برج بوعريريج، ومن الجنوب بريكة، ومن الشمال الخروب، ومن الشرق عين البيضاء.

هنا، ولكنه انصرف إلى وجهة مجهولة. ولم يكن بن شايبة مغفلا. فغضب وتحدث بصوت عال: "إنهم يمنعوننا من رؤية سي مصطفى أهو لكم وحدكم! ليس لنا من حق فيه؟ أنتم تمنعوننا من الحديث إليه. لماذا؟ إن كنا خونة، فقولوا لنا ذلك صراحة! فسي مصطفى هو أبونا بقدر ما هو أبوكم." وقفل راجعا مع فوجه. وبعد أن قطع نحو مائة متر، لحق به مدور عزوي وبن عكشة: "عُد يا سي علي! وقالا له : إن سي مصطفى يرغب في لقائك. وقد أرسلَنا للبحث عنك." في الليل وتحت ضوء قمر ساطع، نشرت أشجار الأرز الكبيرة أغصانَها أفقيا مثل أجنحة ثابتة. كان اللقاء، في الظاهر، حارا. لقد ظل مصطفى يعتقد أن بن شايبة حليف وفيّ لعجول، حتى قبل الثورة. وبمجرد انتهاء العناق انعزل الرجلان. وخضع بن شايبة لاستنطاق حقيقي :

– مصطفى : "من نصّب عمر على رأس التنظيم؟"

– علي : "شيحاني. ربما بضغط من مسعود بن عيسى."

– مصطفى : "مع أنك تعرف رأيي في هذه المسألة. والآخرون، كيف كان رد فعلهم؟"

– علي : "بعضهم مثل الطاهر النويشي وعمار معاش ومدور عزوي ومسعود بن عيسى كانوا مؤيدين. والبعض الآخر مثل عجول وعباس ومسعود بلعقون وبوستة وأنا نفسي، كنا معارضين."

– مصطفى : "وشيحاني؟"

– علي : "كان يظن خطأ، أن عمر سيكتفي باحتلال المنصب بصفة شرفية فقط".

– مصطفى : "يا للخسارة! على شيحاني أن يُبرّر ذلك. وعباس. أين هو؟"

– علي: " تقريبا، لم يعد يأتي إلى الأوراس. ولم يعد يغادر النمامشة، ولكنني أعلم أنه حافظ على اتصاله بعجول."

حدّق مصطفى وهو مشدود الوجه، تحت ضياء الأحراش المريب، في وجه مقابله جيدا. كانت ملامحه مشدودة، وقد شاخت وشوّهها عُبوس ماكر عادة، صار الآن حزينا. أراه بن شايبة المناشير التي سلمه إياها عجول؛ فقرأها.

– مصطفى : "المنشور الذي يُدين عمر والآخرين، من الذي حرره؟"

– علي : "شيحاني"

– مصطفى : " هذه وقاحة! رجل زاوية [1] مثل مدور عزوي يُدان؟! هذا رجل غرّرتْ به وجرفته قوى الشّرّ. سأكون محاميَه أمام المحكمة، فقد غلّطوه. مثل الشيخ مسعود بلعقون."

وحلّ صمتٌ متذبذب، يسكنه صدى رنات اللغة الأمازيغية الطويلة والملساء.

– مصطفى :"وأين يوجد شيحاني الآن؟"

– علي : "لا أدري يا سي مصطفى. يقال إنه في مهمة في الشرق."

كان الحرّ في "مدينة" قاتلا هذا الصيف. جال بي بن شايبة في بستانه، وشرح لي نظام الري، وأنواع أشجار التفاح. وواصل: "عندما سألني سي مصطفى عن أخبار شيحاني، أين هو، لماذا لم يأتِ؟ قلتُ له: "لا أدري، يقال إنه يكون في مهمة في الشرق." استغرب سي مصطفى: "ماذا؟ في مهمة؟" في تلك الفترة، كنتُ أخشى النظام. كنتُ أخاف أن أقول أكثر مما يجب، وألاّ أستطيع السكوت، ولكن كيف يمكن البقاء صامتا أمام سي مصطفى؟ فأجبته: "لا أدري، ذلك ما يقال. فلقد استُدعينا جميعا لاجتماع كبير، ولم يأتِ أحد في النهاية. فقد أجّله عجول، ولستُ من الوقاحة بحيث أطرح أسئلة. أنت تعرفني يا سي

---

1) الزاوية: مؤسسة دينية تقليدية تلقن فيها مبادئ الإسلام. و مقر طائفة دينية في الوقت نفسه.

مصطفى، فقد كنتُ خائفا من أن أُقتل مثل خائن أخلّ بدوره. فمسح زاويتيْ فمه بمنديل كبير، ثم طواه بعناية وهو ينظر إليّ شزرا. شعرتُ فجأة برغبة في البكاء والضحك في آن واحد. مقاوم متكتم. لم يكن ينبغي طرح الأسئلة في ذلك الوقت! لقد ترك رجلٌ مثل بن شايبة بيته وزوجته وأبناءه وأملاكه، من أجل مثل أعلى، قوامه البؤس اليومي والأوهام القاتلة، والقمل والجوع والخوف الذي يلوي الأحشاء، ومع ذلك سيدي، يجب السكوت والتكتم، لأن التنظيم، هذا الغول الذي ساهمنا في خلقه بعناء، لساعات طويلة من العمل والمعاناة، هذا التنظيم الذي يتقلب الآن ويريد أن يعضك من الرقبة! وأسألُه: "ما الذي قاله سي مصطفى؟" " لا شيء، فهو لا يقول شيئا أبدا. هو ليس بالشخص الذي يقول أي شيء. لقد اكتفى باستجوابي فقط: "لماذا وُضع أخوه عمر على رأس الإدارة؟ ولماذا يُراد محاكمة مدور عزوي؟"

لا شكّ أن مصطفى تفطّن، إلى أن النزعة الوحدوية لبداية الثورة، لم تستطع مقاومة إرادة الشاوية التي لا تُقهر، في التجمع بصورة مستقلة، داخل طائفتهم الاجتماعية الخاصة. فقد قيل له وقد رأى، نمامشة يتحالفون مع عباس لغرور، وتوابة مع عمر وعزوي، وبوسليمانية مع بن عيسى، وسراحنة وشرفة مع عجول.

ثم نهض، دلالة على نهاية اللقاء. وانصرف بن شايبة. وحلّ محلّه معارفي.

طُرحت عليه الأسئلة نفسُها أو تكاد. ولأنه كان كاتبَ شيحاني، فإن حسين معارفي لا تُعْوِزُه لا الشجاعة ولا الثقة في النفس. فأجاب مصطفى بأن شيحاني وعجول لم يُقصّرا. بل على العكس! فقد تطور جيش التحرير الوطني إلى الأفضل. فالتسليح والتموين في تحسن دائم.

"إن أول نوفمبر 1954 قد صار بعيدا يا سي مصطفى. فقد أنشأ عجول في كيمل ناحية نموذجية، حيث يتنقل الجنود بحرية. حتى أن لدينا مستشفى طوارئ، بإمكانه علاج جرحى جميع النواحي." وعاد مصطفى إلى هاجسه :

– "لأي سبب حوّل شيحاني مقر القيادة إلى النمامشة؟"

– "هو وحده من يمكنه الإجابة يا سي مصطفى. وفيما أعلم، فقد أراد ربما، التخلص من قبضة عمر والتوابة."

– "هذا هراء".

بعد معارفي، جاء دور علي بعزي لإرضاء فضول مصطفى.

وحسب تصميم الأسئلة، يتبين أنه يرفض – وكأن تعويذة منعته عن غير قصد – من تصديق مزاعم أخيه عمر ومسعود بن عيسى، بأن الأوراس قد بيع بثمن بخس للنمامشة، وأنه كان ضحية نبذ من شيحاني وعجول وعباس، وأنه لم يعد يتلقى لا أسلحة ولا تموينا. وقد حدثه عمر عن إرادة شيحاني وعجول في التسلط، وسعيهما إلى محو اسم بن بولعيد حتى. كيف يمكن تفسير أن رجالا، اعتبرتهم القيادة التي أنشأها متمردين، يسعون إلى تحذيره من أعضاء هذه القيادة نفسها؟ طرد مصطفى الجميع، وبقي بمفرده لساعات طويلة، ثم أياما كاملة، في مخبأ منعزل.

أرسل استدعاء كتابيا، إلى محمد بن مسعود قائد قطاع مشونش، ليبلغه بمقدمه. فأخطر بن مسعود على الفور عجول. فأمر هذا الأخير قائد الناحية بالذهاب للقاء مصطفى، محمّلا بتعليمات دقيقة جدا. "يا سي مصطفى، هل كتبت رسالة إلى محمد بن مسعود؟" "أجل، لقد أرسلتُ له اتصالا، لماذا؟" "يحدث أن ذلك غير شرعي. فليس ذلك واردا في التنظيم." فأقر مصطفى بخطئه، وطلب أن يُعامَل كمقاوم بسيط.

وبفضل بن شايبة و معارفي وبعزي، أصبحت لديه صورة أقل تحيزا عن الوضع. وهو ما لم يَرُق عمر، الذي لعب دور الرجل المضطهد، الرجل الشريف الذي يرفض إعطاء السلطة إلى "أجانب"، مُغيظا أخاه الذي لم يكن بالمغفّل، حيث تفطّن سريعا إلى أن الصراع من أجل السلطة قد بدأ فعلا. إنهم يريدون اقتسام جثة الثور حتى قبل قتله!

هل سيكفي نفوذه لفك خيوط الأزمة؟

فوجئ مصطفى بوجود أحمد بن عبد الرزاق في فوج عمر. "أنا من جنّده – أجاب عمر – وقد كان مُفيدا جدا لنا، فقد تدبّر لنا المؤونة والمال، وحررنا من الحصار الذي فرضه شيحاني علينا. "أنا أفهم نيتك – قال مصطفى – ربما كانت حميدة، ولكن إذا كنتُ قد أمرتُ بعزل بن عبد الرزاق فلسبب جِدّي. فالرجل ذكي، وقادر على أكلك نيئا وبدون ملح." وبعد أن وجد مصطفى نفسه مرة أخرى غير مفهوم، انسحب في بيت منعزل، وأمر رجاله بعدم الكشف عن مخبئه.

لم تعد تراود مصطفى سوى الأسئلة: ما الذي يحدث هناك في الأعلى؟ لِمَ لم يتصلوا به؟ ماذا ينتظر شيحاني؟ أين عجول وعباس؟ وقرر كعادته أن يذهب بنفسه بحثا عن الإجابة.

طلب من معارفي أن يرافقه حتى كيمل. وكان أخوه عمر وبن عيسى وبن عبد الرزاق هم أيضا ضمن مرافقيه. واستأذن من بني فاضل، أهل وستيلي، وتوجّه نحو الجنوب إلى عين التوتة [1]، حيث استقبله قائد المنطقة. فجمع المجاهدين وخطب فيهم: "إنني أهنئكم وأبشركم. لقد ترسخت الثورة ولديها الآن جذور. ولا يمكننا الذهاب إلا للنصر. مع ذلك أيها الأولاد، كونوا حذرين! فثمة خطر قاتل يتربص بنا. إنه حب السلطة. عليه اللعنة بالثلاث! فإذا ظهر اختفت الثورة!"

1) ناحية عين التوتة هي جزء من المنطقة الأولى (باتنة) وتمتد من قرية عين التوتة إلى القنطرة.

لم يبدُ على المجاهدين الفهم. فثمة مضمرات كثيرة، ولكن كل ما يعنيهم، هو أنه عاد بينهم لمواصلة الطريق. ويعلم مصطفى أن عجول قد وضعه قيد العزلة.[1]

بلغ مصطفى الجبل لزرق الذي يبلغ علوه أكثر من ألفي متر. كانت الأفواج تفِد من كل صوب. فنظّم تجمعا ثانيا في "تيبحيرين"، حيث لم يتوقف سوى بضع ساعات، ما يكفي مرة أخرى للحديث إلى المجاهدين، ثم واصل معجلا حتى "كاف لعروس"، الذي يطل على شعبة "الواد لبيض" الرهيبة، الكثيفة الأشجار، واجتاز جبل "أحمر خدّو"، الذي يتلون بالأحمر عند الشفق.[2]

بُلِّغ بموت شيحاني. ففهم الآن سببَ صمته. فقد كان شيحاني ليأتي بالتأكيد للقائه لو كان حيا. وأخفى تأثُّره. هو يعلم أن مساعده الشاب هو أول ضحية للصراع على السلطة. وتبيّن أن شيحاني لم يتصرف قطُّ مثل الآخرين، وأنه عرف كيف يزاوج بين البراغماتية والإيديولوجيا. فحتى قبل الفاتح من نوفمبر 1954 بفترة، كان قد كفّ عن الاعتقاد في سياسة «MTLD»، الملغّمة بالخصومات بين القادة. حتى أن مصالي نفسه، لم يعد قادرا على إرضاء رومنسيته المتطلبة، لثوريٍ مريض بحزبه، ولم يتردد في الانضمام إلى «CRUA» أملا في تصحيح أخطاء إخوته الكبار.

---

1) كان عجول قد وجّه من قبل توصية شديدة إلى قادة النواحي لعصيان أوامر مصطفى. ولم يأخذ بها أحد باستثناء مسؤول مشونش. وقبل دخوله منطقة مشونش، أراد مصطفى أن يتصل بقائد قطاع. ويا ويله، فقد تعرض للتوبيخ.

2) أحمر خدّو : اسم الجبل الذي يحمرّ "خدّه" من أثر الشمس عند الغروب.

وأمام بعض المجاهدين، تحدث مصطفى عن التزامه ومعاناته خلال الكفاح السري، ومعاناته في الحياة اليومية.[1] وأضاف في غضب: "مع أنني أوصيتُ عجول وعباس بالفعل بحمايته ! ينبغي أن يخبراني بما حدث!" فهلّل أخوه عمر وبن عيسى: "أترى، لم نكن كاذبين. فقد قتلوا شيحاني. وسيقتلونك أيضا إن لم تأخذ حذرك." وضاعفا من إحساسه بعدم الأمان والاضطراب.

وأرسل في المساء نفسه اتصالا ثانيا نحو عجول، لإبلاغه بقرب وصوله. وفي اليوم الموالي، غادره عمر وبن عيسى، تاركَيْن إياه يواصل سفره بمفرده، "على مسؤوليته" كما قالا. واتجه رفقة حسين معارفي وفَوْجِه إلى "ترقة"، وجاوز "كباش" ثم "تاجموت" ذات القلعة[2] العريقة. وفي اليوم الثالث بلغ جبل "صراع الحمّام"، شرق مشونش بخمسين كيلومترا على خط مستقيم. كان متيقظا. وكان جميع المجاهدين متنبهين.

ومن "صراع الحمّام" على ارتفاع ألف وأربعمائة متر، واصل باتجاه الشرق حتى هضبة "تجّين"، حيث استقبله عجول وبعض المجاهدين.

احتفالات تجّين

كان ذلك في منتصف الصبيحة. تعانق الرجلان. وبقيا واقفيْن لبرهة، ثم أشار عجول إلى وجهة حمّام شبّورة. واقتربا ببطء، وقد توقفا عدة مرات أثناء الطريق، من الحمّام. بلغا وسط ساحة، مغطاة ببقايا كلسية مزرقّة، تقابل مباشرة شلالات الحمّام، التي تتدفق من علوّ عدة أمتار، على الصخور التي بيّضها الكبريت الحارّ.

1) نقل لي أحد زملاء شيحاني، أنه عندما كان يدرس بثانوية قسنطينة، كان يتغدى على الماء ورغيف خبز، يرسله والداه كل أسبوع من الخروب.

2) القلعة (بالقاف المعجمة) مطمورة بربرية محصنة، تقع على ربوة وعرة المنفذ.

لقد أراني عجول بالضبط، المكان الذي وقف فيه مع مصطفى قبل الجلوس [1]، ذلك أن حديثهما امتد من العاشرة صباحا حتى غروب الشمس، في الوقت الذي تطول فيه النخلة المعانقة للحمّام طولا خارقا للعادة. وانسحب مصطفى في بيت منعزل، وأمر رجاله بعدم الكشف عن مخبئه .

"هل شعر بالتضايق لأن شكوكا حامت حول فراره؟"

"أجل. حتى أنني قلتُ له إنني أنا نفسي قد تحفّظت. ثم إنني لم أكن أفعل سوى تنفيذ تعليماته". "كل مقاوم، والمسؤول بصفة خاصة، ينبغي وضعه قيد العزلة، بمجرد خروجه من أحد سجون الاستعمار. "حتى أنه أجابني: "هذا صحيح، وأنا مستعد لتلقي العزلة إن كنتَ تراها ضرورية، اعتبرْني مقاوما بسيطا، مثل جميع الآخرين. ولست أنتَ وحدك فقط: فحتى حسين معارفي ومحمد بن مسعود قد ساورهما الشك بشأني!" فقلتُ له: "يا سي مصطفى، ليس عليك أن تتضايق، بالعكس، فمعارفي ومسعود يستحقان احترامك."

"هل حدثته عن انتخاب أخيه عمر على رأس الإدارة؟"

"بالطبع. فقد شرحتُ له كيف انهار شيحاني، أمام حجج مسعود بن عيسى وعمار ومدور عزوي والطاهر النويشي، لتنصيب عمر على رأس التنظيم. وحين تفطّن شيحاني إلى خطئه، خاف وحوّل مقر القيادة إلى النمامشة. فهو لم يحسن إدارة الأزمة، وترك المجال خاليا لعمر. ولم نتمكن لا أنا ولا عباس، من إعادته إلى الطريق المستقيم. وقلتُ له الأمر الذي يخشاه، هو مصطفى، أكثر من سواه، من أن العشائرية قد عادت بقوة!"

---

1) نصب عجول وسط الساحة خيمة كبيرة بُسِطت فيها زرابي ناعمة من الجنوب.

"ما الذي قاله بشأن موت شيحاني؟"

"أعلنتُ له أنه حوكم وأدين. ونسخة الحكم تحت تصرفه. وسألني عما إذا كنتُ قد حضرتُ تنفيذ الإعدام، فأجبتُ بالنفي. فألحّ: "ألديك شيء تودّ قوله لي؟ " فقلتُ له: "كلا. ليس لديّ ما أضيفه. فأنت تعرف شيحاني يا سي مصطفى، فهو دائم الحديث بالفرنسية مع كُتّابه: واسأل الشيخ علي، فسيؤكد لك ذلك."

يعلم مصطفى أن عجول لا يجيد الفرنسية. أما شيحاني ورفاقه فشبان، متعودون على الضحك مثل الشبان، وعلى تبادل قصص مختلّة، مبتعدين لفترة عن البؤس السائد. وهو ما لا يروق لعجول الذي لا يفهم ذلك. وذكر مصطفى الحكم بالإعدام على أخيه ورفاقه. فقدم له عجول بسطة تاريخية شاملة عن القضية، التي "تُعزَى المسؤولية الكاملةُ فيها إلى شيحاني".

مصطفى : "أتظن أن من المعقول استدعاء شخص إلى مقر القيادة لإعدامه؟"

عجول : "قلت ذلك لشيحاني. فتحدث عن محاكمة."

فعبس مصطفى: "وفوج الكوماندوس المتطوعين؟"

"هي فكرة لبولقواس، أسيءَ تأويلُها."

بدا مصطفى ساخطا: "يجب حلّه فورا!" يواصل عجول حديثه بعد ذلك بخمس عشرة سنة: "لم أنزعج، لأنني أعرف مصطفى جيدا، منذ سنوات طويلة."

أعرف من كل المحادثات التي جمعتنا، أن لديه إزاءه شعورا مركبا من التسامح والاحترام. هو لا يملك ثقة مطلقة في أحكامه، التي يجد أنها تشجع متملّقيه أكثر مما يجب، ولا في كفاءته التنظيمية.

"في كيمل – يواصل عجول – أريتُه مقر القيادة وأمانته، وآلاته الراقنة العديدة وآلات الرونيو، وأريته أيضا سجلات النظارة المالية، وجرد الأسلحة والذخائر، والأموال التي في الصندوق. باختصار، إدارة كاملة [1] في قلب جبهة القتال، إضافة إلى مستشفى طوارئ يمكنه استقبال عشرات الجرحى!"

لا شك أن مصطفى كان مندهشا. وقد اندهش أكثر عندما زار المخابئ، والمطامير المليئة بالمؤن، وورشة الخياطة بآلات خياطتها، وبستان البقول. "نحن لم نتبطّل أثناء غيابك"، قال له عجول في نبرة زائفة التواضع.

في المساء نفسه، أعاد مصطفى غيرَ آبه بالتكرار المملّ، طرح قضية عمر على البساط.

"تذكّر يا عجول أنني قبل رحيلي، كنتُ قد أكّدتُ عليك ترك عمر خارج القيادة، والعناية بشيحاني." فأجابه عجول دون اضطراب: "لقد تغيرت الأمور يا سي مصطفى، فعندما علم شيحاني بتوقيف الاستعمار لك. فإنه هو أيضا تغيّر، وقد أثّر فيه مدور عزوي ومسعود بن عيسى. أنا نفسي لم أكن موافقا على تنصيبه عمر على رأس الإدارة. وهذا لا يعني أنني ضد عمر. والدليل أنني، لعلمك، رفضتُ قتله عندما أمرني شيحاني بذلك. ودليل آخر على أنني لم أكن أجد فيه سوءا، هو أنني سلّمتُ جوازات مرور لعمار معاش ومحمد الغبروري، رجلين أرسلهما لتصفيتنا نحن الثلاثة، شيحاني وعباس وأنا، محدثك!"

وانطلاقا من هذا المزيج الماكر، علم مصطفى بأنه لن يحصل على جميع الإجابات. فقد كان لعمر ومدور وبن عيسى، كامل الوقت

---

1) بطبيعة الحال، تناسى عجول الدور الهام الذي لعبه شيحاني في تنظيم الإدارة.

ليسردوا عليه روايتهم للأحداث. وتَفطّن إلى أن عجول، المُغترّ جدا بسلطته داخل التنظيم، كان سيرفض، لو أن الأمر كان يتوقف عليه وحده، إعادة إدماجه في الإدارة.

وجالت فكرة برأسه: لقد تصرف عجول عن كبرياء. وقابل بيشة جودي ليلا. وما إن رآه حتى وضع له سبابته على فمه: "اسكُتْ يا بوسنة، أعرف كل شيء!"

وبعد ذلك بفترة، قال له: "كلُّ ما أرانيه عجول اليوم، لم يكن له سوى هدف واحد: أن يُثبتَ لي أن منصب القائد من حقه! وبالرغم من ذلك، فإني أؤكد، بكل تواضع وبكل صدق، أنه لم يُقصِّر مرة واحدة في دوره، كواصل بين مقر قيادة القلعة والمناطق الأخرى. فهل توافقني يا بوسنة؟"

لا يصدق بيشة المدعو بوسنة، أن يُطلَب منه رأيُه: "يا سي مصطفى، لقد كانت معركة وادي هلال هي الصدع."

أجل، يذكر مصطفى ما قاله له عجول: "حدثت أمور خطيرة في وادي هلال. لقد أمسكت عباس ما استطعت. أنت تعرفه، فقد هدد بقتلي قبل محاكمة شيحاني."

"لم تكن هنالك لا محاكمة ولا حكم! إن عجول يكذب!" كان صوت بيشة يرتعش: "لقد قتلوه، الملاعين! دمه سيرتدّ عليهم. حسنا، لقد أعدموه، فَلْيَكُفّوا عن تلطيخ ذكراه!"

في اليوم الموالي، رافق مصطفى حتى باب حمّام شبّورة. "اذهب لتستحم في أمان تام يا سي مصطفى. سأتسلق الرابية وأحرق كل ما يتحرك!" ويضحك مصطفى: "أنت دائما مجنون هكذا! أتعلم يا بوسنة، إن ما يريحني، هو أنني إذا ما قُتِلت، فأنت على الأقل ستثأر لي. ولكن العكس للأسف ليس صحيحا."

بعد الاستحمام، توجه مصطفى وعجول وبيشة إلى حوض حاسي مسلّم. شرب مصطفى قليلا من الماء، ونظر إلى عجول: "عجول، أنت ولدي. كن حذرا! لقد مات شيحاني شهيدا، حتى وإن مات على يد رفاق كفاحه." نظر عجول مليا إلى بيشة، فأخذ مصطفى يديهما وقال: "أقسم هنا أمامكما، أنني لم أخن الثورة، ولن أخونها."

مصطفى بن بولعيد قائدا للإدارة ثانيةً

بعد بضعة أيام، نظّم عجول تجمعا مهيبا وسط هضبة "تجين". وقد شارك فيه بعضُ قادة النواحي: سيدي حني وتيجاني وبن شايبة وعثماني وقتال، وهم على التوالي قادة تبسة وخنشلة وأريس وكيمل وسوق أهراس.

وبسبب طبيعة علاقته بعمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى، فقد تفادى عجول دعوة الطاهر النويشي عمدا.

ديسمبر 1955 برد وصقيع، ولكن قلوب المجاهدين كلها حرارة. فقد تزاحموا حول مصطفى؛ مدٌّ بشري من نحو مائتين وخمسين رجلا يحادثونه، ويقدمون له أسلحتهم، ويشرحون له كيف غنموها في ميدان المعركة. كانت الفرحة تعمّ الكلّ. كان الجميع يضحك ومصطفى أيضا. كانت القصص تدعو للضحك أحيانا، لكنهم في الحقيقة كانوا يضحكون في كل حال، وإن لم يكن ثمة سبب.

يثبّت بعضُ الجنود هدفا على بضع عشرات الأمتار إلى الأسفل، ويطلبون من مصطفى أن يصوّب، فيذعن ويخطئ الهدف، فيلحّ الرجال: "حاول مرة أخرى يا سي مصطفى!" فيصوّب مجددا، ويصوّب الحراس فوق الرابية معه، فتطلق بعض النسوة زغاريد طويلة وسعيدة، ينغّمنها بحركة أيديهن الموضوعة كالصمّام أمام أفواههن.

ويواصل مصطفى إطلاق رشات طويلة، ويريد تجريب جميع الأسلحة، فيرفع المسدسات الرشاشة والبنادق والبندقيات الرشاشة- (تثير اهتمامه بندقية "بران" أكثر من سواها)، ويدُسّ يده تحت أشرطة الرصاص، المرنة مثل ثعابين. ثمة عشرات الأعلام الخُضر والبيض، المعلقة في أغصان الأشجار، تتراقص وتصطك في النسيم الشتائي، حتى قمة "راس فورار"، التي تناهز الألف والستين مترا علوّا، على طول الأودية ذات الجنبات الحادة، التي تعلوها قبّةٌ من رواب صخرية ورؤوس مستطيلة. وفي البُعد باتجاه الشمال، يرتسم "راسَ كلثوم" المكسوُّ بالثلوج.

يتأمل عجول، هذا الرجل الموهوب، والمولع بالنظام والتنظيم، بعين سالية، اللقاء غير المنتظر بين مصطفى وجنود جيش التحرير الوطني. وكرجل نبيه وذكي، يستنتج الخلاصة الخاصة بهذا الحدث.

في هذه الأثناء، كان هنالك ضابط فرنسي، الملازم الأول لويس، سجينا في كيمل، كان عباس قد أسره. طلب مضطفى من عجول إخراجه من المخبأ، كي يشارك هو أيضا في الاحتفال. فتمّ جلبُه؛ كان ينظر ضاحكا إلى المجاهدين، وهم يتنافسون على الطعام، خلال "خاطوف"[1] جامح. كان الرهان هذه المرة في "تجَين" يدور حول برتقالة، وكانت جميع الحيل ومختلف السُبل مباحة لنيلها. وحتى لايُمسَك بهم، لم يتردد بعض المجاهدين في التهام الثمرة كاملة.[2]

---

١) الخاطوف: لعبة تتلخص في اختلاس قطعة لحم أو حلوى، بالحيلة أو بالقوة من أحد الجلساء، وأكلها بالتهكم من الضحية.

2) تكشف إحدى الطرائف عن طبع مصطفى. فقد وزع ناظر المالية برتقالة على كل مجاهد، بمن فيهم مصطفى. وبعد حين في نهاية التوزيع، اقترب من مصطفى واقترح عليه برتقالة ثانية. فسأله: "والآخرون؟" "لم يبق معي الكثير. فقط ثلاث أو أربع. لا تكفي الجميع." "إذن، فلا حاجة لي ببرتقالتك."

بعد زمن طويل صرّح لي عجول، أنه لم يقبل بعودة مصطفى إلى القيادة، إلا بعد استشارة قادة نواحي الأوراس والنمامشة الخمسة وقبولهم.

ولنواصل. ففي الوقت الذي كان الحفل في أوجه، اخترقت السماءَ طائرات ومروحيات، مثل سرب نحل طنّان، من الغرب إلى الشرق. فاتخذ مصطفى فجأة هيئة مهمومة، لكن عجول طمأنه: "لا شيء هناك. فنحن متعودون. إن الاستعمار يهاجمنا بكل قواه، بعدة فيالق مجتمعة، ونقاومهم!" يعلم مصطفى أن عجول ليس متبجحا في شيء، ولكنه مع ذلك، يجد صعوبة في تصديقه. فقد تطورت الأشياء بسرعة حقا في غيابه. وواصل عجول: "لا بد أنه اشتباك مع عباس في النمامشة!" [1]

في اليوم الموالي عند الحادية عشرة، وأمام مسؤولي النواحي والمناطق والقطاعات والمقاومين، أقرّ عجول بذنبه: "يا سي مصطفى، أعترف بأنني شككتُ في فرارك وفي حسن نيتك. وأعترف بأنني أمرتُ، لمصلحة الثورة، بوضعك قيد العزلة. أقرّ أمام الجميع بخطئي. وابتداء من الآن، أعيد منح ثقتي الكاملة لسي مصطفى، أبي الثورة."

وانطلقت التصفيقات من كل صوب. وبدا مصطفى متأثرا. وخصوصا عندما أكد له القادة واحدا تلو الآخر، تعلُّقَهم به.

وسلّمه عجول متباهيا الختم المطاطي [2]. وأعاده إليه مصطفى متساهلا، بعد أن طبع به أوراق دفتر.

---

1) تأكد فيما بعد، بأن اشتباكا وقع فعلا، بين جيش التحرير الوطني والفرنسيين في قنطيس، جرح خلاله عباس، وهو سبب عدم حضوره تجمع تجّين.

2) ختم ثمانيّ الأضلع، يتضمن في الوسط نجمة وهلالا، وعلى المحيط: "جيش التحرير الوطني" و "جبهة التحرير الوطني".

واستؤنفت الحياة كما في السابق. وأرسل مصطفى أعوان اتصال إلى المسؤولين الآخرين الغائبين، وهم مسؤولو المناطق 1، 2، 3، و5 وضرب لهم موعدا في "نارة"[1] بـ"الجبل لزرق"، شرق منعة ببضعة كيلومترات. وقد قال لبيشة: "على هذا الاجتماع، سيتوقف مستقبل الثورة".

وحيث أصبح أقلّ توتّرا، فقد استراح لعدة أيام بين برج عائلة عجول وحمامات شبورة. وكان غالبا ما يذهب رفقة عجول إلى حاسي مسلَم، حيث يوجد حوض دائري، مليء بماء عجيبة الصفاء والعذوبة. غير أنه كان يشعر بألم دفين غير محدد. فهو ممّن لا يحب أن تتحكم فيه الأحداث، غير أنه كان يلجأ للتغاضي عن كثير من الأمور، سواء لفك خيوط متشابكة أو لتجنب تفاقم الوضع.

لكنه، رغم ذلك، اشتبك مع عجول، بشأن أحمد بن عبد الرزاق. فقد رفض عجول استقباله، واشترط أن يُجرَّد سلفا من سلاحه وزيّه، مُنفِّذا بذلك تعليمات مصطفى وشيحاني نفسهما: "أنت يا سي مصطفى – قال له مؤاخذا – تصادق على قرار غير شرعي من أخيك عمر!" فأجابه مصطفى بأن كل مشكلة تُحلّ في وقتها، وبأنه ليس رجلا يُصرَف عن أهدافه: "لا تخشى شيئا يا عجول، سأحدد مسؤوليات كل واحد، وسيأخذ كل واحد نصيبه."

في هذا الوقت، كان يتحمل أخطاء أخيه، كما تحمل خطأ بن وانة، الذي أقفل باب بيته في وجه أوائل المجاهدين، وخطأ سائق الشاحنة الذي رفض نقلهم إلى باتنة، وخطأ قائد فوج أريس، الذي نسي أن يستيقظ صباح أول نوفمبر 1954، أو رجال "يبّوس" الذين أخلفوا موعد

---

1) "نارة"، قرية من أطلال، منذ أن أحرقها الفرنسيون أثناء الانتفاضة الشاوية سنة 1850.

"عين سيلان" بخنشلة، أو خطأ مسعود بن عيسى، الذي رفض تولي دوره في الحراسة في مبتدأ الثورة، أو خطأ الدليل الذي تخلى عن المجاهدين في متاهة ثكنات باتنة. كان يتحمّل كل شيء. حتى موت شيحاني، الذي كان سيعيش -إنه واثق من ذلك - لو أنه كان معه.

أخبره عجول بوجود شيوعييْن اثنين في العطّاف، غيرَ بعيد من البرج العائلي في درمون. وأخبره أنهما يعامَلان كضيفين خاصّين لجيش التحرير الوطني. يعرف مصطفى أحدَهما: العيد العمراني، محامٍ بباتنة. فطلب رؤيته وحادثه، وفهم أنه متطوع لفتح جبهة في الجنوب. "ما الذي تفعلونه لتشغلوا أنفسكم في جبهة القتال؟" فأجاب العمراني: "كلفني عجول بإعداد المناشير".

موت شيوعييْن

غادر العيد العمراني ورفيقٌ أوربيٌّ باتنة، عند الأسبوع الأول من نوفمبر 1955. وبفضل شبكة عبور جبهة التحرير الوطني، تم توجيههما نحو مقر قيادة الناحية في وستيلي، حيث توقفا لبضعة أيام. وقد أقاما بها رفقة لعموري وعمر بن بولعيد وشخص يدعى عمرو الدهان. كانوا يتناولون الطعام في بيت صالح إدارة، الذي عاد يوما من باتنة مسرورا، والجريدة في يده: "لقد فرّ مصطفى!" وبدأ الجنود في إطلاق عيارات نارية في الهواء. لقد كانوا سعداء وقلقين في وقت واحد: "أين مصطفى؟"

حينها كان عمر مستاءً. حيث منع رفاقَه من المبيت معه في مخبأ واحد، وطلب من رجل يثق فيه، أن يجد له مخبأ سريا.

ثم قاد علي بن شايبة الشيوعييْن إلى جبل "أحمر خدّو" ثم إلى "صراع الحمّام". ويروي بن شايبة : "لم يكفّ العيد العمراني عن طرح

الأسئلة؛ عن الثورة، عن تعدادنا، عن نطاق عملنا. فأجبتُه بأن جيش التحرير الوطني قد اكتفى في الشمال، ولكن في الجنوب ما يزال الكثير مما يجب فعله. فقال لي أن بإمكانه، إن كانت القيادة موافقة، أن يتطوع لفتح جبهة قتال في الجنوب."

وفي صراع الحمّام، استقبلهما عجول كضيفيْ شرف. وطلب من العمراني تقديم يد العون للأمانة. كان المحامي الشيوعي يتحدث كثيرا. فقد كان يقول أنه مستعد لتنظيم جبهة قتال ضد فرنسا، تحت قيادة الحزب الشيوعي الجزائري.

وبعد أن حظي في البداية ببعض الإنصات، راح جمهور مُستمعيه يذوب مثل الثلج تحت الشمس. وأصبح شيئا فشيئا معزولا، وصار القادة يجتنبونه. وقد روى أحدُهم لعجول، أنه رسم على الأرض بالحجارة منجلا ومطرقة. فاستدعاه عجول ومنعه من تكرار مثل ذاك الرسم: "لو وصلت فرنسا إلى هنا، فستظن أن الثورة من عمل الحزب الشيوعي الجزائري." فابتسم العمراني: "وأيُّ بأس في ذلك؟ فأنا نفسي قاومتُ النظام الاستعماري منذ نعومة أظفاري." ولم يرُق ذلك عجول، فأخبر مصطفى بالأمر.

انزعج هذا الأخير الذي كان يعي الخطر جيدا ويستعجل إنهاء الأمر، فطالب العمراني بنكران الحزب الشيوعي صراحة، والانضمام إلى جبهة التحرير الوطني. "ما دامت الجبهة تضم جميع الأحزاب الجزائرية". فرفض العمراني العرض وقدّم بحرارة بعض التبريرات، وتحدث عن تشابه الكفاح: "يا سي مصطفى، إن جبهة التحرير الوطني «FLN»، والحزب الشيوعي الجزائري «PCA»، ملتزمان بخط واحد جنبا إلى جنب. تحتاج جبهة التحرير الوطني إلى دعم في الجزائر وفي الخارج. بإمكاننا أن نوفره لها وتسهيل مهمتها. أنت تعلم أنني جئت

إلى هنا عارضا خدماتي من تلقاء نفسي. أُقسم لك أنني لم أخبر لجنتي المركزية حتى."

فضحك مصطفى: "إذن فقد تصرفت كمغامر. مثلي أنا، ومثل كل المقاومين، كما أكد ذلك شيوعيو الجزائر العاصمة!"

فاحتج مرافق العمراني وهو أوروبي: " هذا سوء تفاهم فقط. فرفاق العاصمة لا يرون ما يحدث هنا." وواصل العمراني: " لا تقَع في فخ المستفزين يا سي مصطفى، فالكفاح من أجل الاستقلال بحاجة إلى جميع الوطنيين، والحزب الشيوعي الجزائري يجمع منهم بقدر ما تجمع جبهة التحرير الوطني."

وسأل مصطفى: "عن أي «PCA» تتحدث؟ حزب المعمّرين؟" فذكر العمراني أسماء جزائريين أعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري. فسأله مصطفى: "أين هم؟" "لا يتوقف الأمر سوى عليك كي يلتحقوا بجبهة القتال، يا سي مصطفى."

"حسنا، اتفقنا ولكن تحت راية الجبهة."

قال لي عجول أن انزعاج مصطفى كان يتعاظم على مرأى العين. أما العمراني المشحوذ كشفرة حلاقة، فقد كان يقاوم قدما بقدم. ولأنه يعرف أن عجول لا يفهم الفرنسية، فقد كان يتحدث بالعربية: "لا تنس يا سي مصطفى أن الحزب الشيوعي الجزائري هو جزء من أسرة ثورية دولية كبيرة وقوية، لديها خبرة في الكفاح ضد الإمبريالية".

ولا يحب مصطفى هذه النبرة الأبوية.

يروي عجول: "لقد انفجر مصطفى بالمعنى الحرفي للكلمة! "الجبهة تضم جميع الأحزاب. فحتى «MTLD» و«CRUA» ذابا فيها، فلِمَ لا يفعل «PCA» الشيء نفسه؟" وردّ العمراني: "الأمر مختلف. فالحزب الشيوعي الجزائري هو حزب العمال، ضحايا الاستغلال الاستعماري.

وهو ضد التمييز العرقي أو الديني. وهو نصير المساواة. ولديه بوجه خاص، يا سي مصطفى، نواب في الجمعية بباريس. فلديه كلمة يقولها إذن، في صياغة نصوص الحكومة الفرنسية وقراراتها. فهو بهذه الواسطة، يستطيع تقديم خدمات لقضية الشعب الجزائري، لا بالخروج عن القانون أو بالذوبان في جبهة التحرير الوطني."

عندها قام مصطفى، يتبعه عجول. ونظر إلى العمراني. كان يبدو أنحف من ذي قبل، منتصبا كديك صراع، عنيد حدّ العبثية.

وأسأل: "وما الذي حدث بعد ذلك يا سي عجول؟" "لا شيء يستحق الذكر. كان مصطفى غاضبا": "لم يعد ثمة شيء يمكن فعله مع هؤلاء الناس". ومع ذلك فقد حاول لمرة أخيرة، أن يجعل العمراني يغير رأيه، بأن أرسل إليه أخاه عبد الحميد. "اذهب لرؤيته. فهو أخوك على كل حال. حاول إقناعه. ثم سنفكر بعد ذلك في الأمر."

وفشل عبد الحميد. فقد قال له العمراني أنهما، برغم المسارات المختلفة، على الجهة نفسها من الحاجز. "لقد اخترتَ يا عبد الحميد "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" و جبهة التحرير الوطني. وأنا الذي أكبرُك سِنًّا، لم أشأ تغيير أفكارك. فأنا شيوعي، وشيوعيا سأبقى حتى موتي."

أخبر عبد الحميد مصطفى بما حدث، فأمر هذا الأخير عجول بأن يعمد إلى الإعدام. ويروي بيشة الذي حضر الإعدام: "قُتِل الشيوعيان بقصر اولاد عيسى في الصباح الباكر. رفض أولُ من مات، وهو الفرنسي الملتحي، التّنكُّر لحزبه. وأمره المجاهد بأن يصيح: "تحيا الثورة" فصاح: "تحيا الثورة، يحيا الحزب الشيوعي!" فأطلق النار عليه. وقابل المجاهد الآخر العمراني وقال له: "أنت، لديك دم عربي في عروقك، فبِم ستصيح؟" فأجابه العمراني: "هذا صحيح، ففي عروقي

دم عربي. وأنا أصيح مثل رفيقي: لن تموت الشيوعية أبدا! تحيا الشيوعية! فلقي المصير نفسه". [1] بعد فترة وجيزة، عندما علت الشمس في كبد السماء، تعثّر مجاهد في كلمات مرسومة بالحجارة: "يحيا «PCA»"! فبعثرها بضربات من قدميه.

بعد يومين أو ثلاثة، أبدى مصطفى اهتماما بحالة الملازم الأول لويس. فطلب من عجول أن يصوره ويرسل صورته إلى زوجته، مع رسالة يقترح فيها مبادلته بعمرو المستيري، الذي أوقفه الفرنسيون في بوشبكة في جوان 1955. [2]

يتناول مصطفى حاليا مشكلة أحمد بن عبد الرزاق؛ فبعد الأوامر المتكررة لعجول، جرّده من سلاحه وأعاده إلى الحياة المدنية. وطاف بن عبد الرزاق العاطل، مثل روح متألمة، غيرَ واثق من مصيره. فقال له مصطفى: "لطالما كنتَ مصاليا. وقد دخلت إلى جيش التحرير الوطني من الباب الصغير، بطريقة لا تعجبني كثيرا. سأفكّر في أمرك. تعلم أني حكمتُ عليك بالإعدام، ولكن القَدَر شاء غير ذلك." [3]

---

1) أكّد لي عجول أن الشيوعي الفرنسي، كان مستعدا للانضمام إلى جيش التحرير الوطني، والقتال تحت شعار جبهة التحرير الوطني. وقد منعه العمراني من ذلك.

2) أسر عباس الملازم الأول لويس في النمامشة، في وقت واحد مع مساعد مات متأثرا بجراحه. وقد أرسله عباس إلى كيمل ليظل هنالك أسيرا. وقد كتب لويس رسالة إلى زوجته. فأجابته بأن اقتراح مبادلته بالمستيري، قد رفضته السلطات العسكرية الفرنسية.

3) طلب مصطفى من بيشة في عباسة في بلاد السراحنة، على بُعد بضعة كيلومترات من سيدي علي، أن يقتل بن عبد الرزاق. فدافع بيشة عن هذا الأخير: "منذ أن عرفتُه، لم يأتِ يوما فارغ اليدين. فقد ساعد الثورة بهباته: أموال، أزياء، وحتى منظار. إنه مفيد للثورة. فلِمَ لا نستغله؟"

فردّ مصطفى بغضب: "وها أنت تناقش يا بوسنة! من علّمك المناقشة؟ بن عبد الرزاق من رفاق مصالي، وقد يكون خطيرا."

بعد أقل من شهرين بعد ذلك، منح مصطفى ثقته لابن عبد الرزاق، وعهد إليه بتنظيم ناحية الجنوب بمساعدة زياني.

فردّ عليه بن عبد الرزاق: " يا سي مصطفى، لقد أتيتُ إلى جيش التحرير الوطني بكل براءة، في سذاجة تامة." فنزع مصطفى غطاء رأسه، وحكّ رأسه ثم قال ضاحكا: "الله سيقرر!" فأخذ بن عبد الرزاق يديه الاثنتين وشدّهما ثم قبّلهما وقال: "أقسم بهذا اليمين أنني صادق!"

بعد ذلك بفترة جلس بيشة إلى مصطفى يحدّثه: "أهي خيانة أن تكون نصيرا لمصالي ؟ فلطالما ناضلتُ باسمه". فيقول له مصطفى: "وها أنت تتحدث كسياسي يا بوسنة، ولكن لا تنخدع، فمصالي هو أبونا جميعا. ونُكِنُّ له الاحترام حتى وإن انحرف."[1]

وذات مساء، قال مناضل مدني لمصطفى أمام عجول: "لقد أعلنت الإذاعة أن فرارك من سجن قسنطينة، يعادل تجهيز أربعمائة محارب، مشحونين إلى الآخر!" فاستغرب مصطفى: "فقط؟" وضحك.

قضى مصطفى ديسمبر 1955 في إعادة اكتشاف عالم جبهة القتال. كان البرد قارسا، وماء الوديان مُجمّدة، ممّا جعَلَ وضوء الصبح شيئا عسيرا.

نال مصطفى تزكية أغلبية إطارات جيش التحرير الوطني، ولكنه يعرف أن عجول وعباس ليسا مناصريْن له – وخاصة أولهما، الذي لم يُسلّمه السلطة إلا مُكرَها. وأثناء حديثهما على انفراد، اتخذ عجول موقفا مطلبيا، مُلمّحا إلى أن الثورة، إن لم تكن بخير، فذلك لأنه هو، مصطفى، لم يكن مُوفّقا في اختيار الرجال، وأنه لم يقم بمعالجة الأمور بعد ارتكابه خطأ سوء الاختيار. ثم، وهذه هي الحجة الدامغة، أنه يؤاخذه على محاباة التوابة وأتباعهم، وليس بن عبد الرزاق أقلّهم. فمسعود بن عيسى ومدور عزوي، لم يحيدا عن الصواب الثوري،

---

1) في 14 نوفمبر 1955، افتتح بلقاسم ڤرين وهو رئيس فوج، جلسة عمل مع مقاومي باتنة، ذاكرا اسم مصالي. كان مقاومو القاعدة يجهلون أنه قد أطيح به، ولم ير القادة من المناسب إبلاغهم بذلك.

فردّ عليه بن عبد الرزاق: " يا سي مصطفى، لقد أتيتُ إلى جيش التحرير الوطني بكل براءة، في سذاجة تامة." فنزع مصطفى غطاء رأسه، وحكّ رأسه ثم قال ضاحكا: "الله سيقرر!" فأخذ بن عبد الرزاق يديه الاثنتين وشدّهما ثم قبّلهما وقال: "أقسم بهذا اليمين أنني صادق!"

بعد ذلك بفترة جلس بيشة إلى مصطفى يحدّثه: "أهي خيانة أن تكون نصيرا لمصالي ؟ فلطالما ناضلتُ باسمه". فيقول له مصطفى: "وها أنت تتحدث كسياسي يا بوسنة، ولكن لا تنخدع، فمصالي هو أبونا جميعا. ونُكِنُّ له الاحترام حتى وإن انحرف."[1]

وذات مساء، قال مناضل مدني لمصطفى أمام عجول: "لقد أعلنت الإذاعة أن فرارك من سجن قسنطينة، يعادل تجهيز أربعمائة محارب، مشحونين إلى الآخر!" فاستغرب مصطفى: "فقط؟" وضحك.

قضى مصطفى ديسمبر 1955 في إعادة اكتشاف عالم جبهة القتال. كان البرد قارسا، وماء الوديان مُجمّدة، ممّا جعَلَ وضوء الصبح شيئا عسيرا.

نال مصطفى تزكية أغلبية إطارات جيش التحرير الوطني، ولكنه يعرف أن عجول وعباس ليسا مناصريْن له – وخاصة أولهما، الذي لم يُسلّمه السلطة إلا مُكرَها. وأثناء حديثهما على انفراد، اتخذ عجول موقفا مطلبيا، مُلمّحا إلى أن الثورة، إن لم تكن بخير، فذلك لأنه هو، مصطفى، لم يكن مُوفّقا في اختيار الرجال، وأنه لم يقم بمعالجة الأمور بعد ارتكابه خطأ سوء الاختيار. ثم، وهذه هي الحجة الدامغة، أنه يؤاخذه على محاباة التوابة وأتباعهم، وليس بن عبد الرزاق أقلّهم فمسعود بن عيسى ومدور عزوي، لم يحيدا عن الصواب الثوري،

---

1) في 14 نوفمبر 1955، افتتح بلقاسم قرين وهو رئيس فوج، جلسة عمل مع مقاومي باتنة، ذاكرا اسم مصالي. كان مقاومو القاعدة يجهلون أنه قد أطيح به، ولم ير القادة من المناسب إبلاغهم بذلك.

إلا لعلمهما بإمكان الاعتماد على دعمه غير المحدود. وذكّره كيف أنهما تعاليا على خدمات جبهة القتال الإجبارية. وأعلمه أن عباس قد أقسم بألا يعود ثانية إلى الأوراس، منذ أن هدّده أخوه عمر بالموت. حتى أن شيحاني نفسه، قد فضّل إبعاد مقر القيادة إلى داخل النمامشة للأسباب نفسها.

معركة إيفري لبلح

نحن الآن في منتصف جانفي 1956. يستعد مصطفى لمغادرة منطقة كيمل. لقد طلب من عجول انتظاره هناك. وزار الجرحى الذين يتلقون العلاج في مستشفى الطوارئ الصغير التابع للناحية، ثم سأل عجول بين الجدّ والمزح: " هل تأذن يا عجول لبوسنة في المجيء معي؟" "يا له من سؤال يا سي مصطفى! إن كانت تلك رغبتك، فبإمكانك أن تأخذ معك جيش التحرير الوطني كله، لا بوسنة فقط."

كان بإمكان بيشة، لشدّة فرحه، أن يطير بمجرد بسط ذراعيه. فقال له مصطفى: "ابق هنا، فلستُ بحاجة إليك. وأنت أعند من أن أطيقك." ثم انتزع منه سلاحه وقدّر وزنه لبرهة، وأعاده إليه مع بعض المال: "انتبه لنفسك. إذا عدتُ، فلن نفترق بعدها أبدا. وإلا... فلا تنس أن تقول ما تعلم!"

فقال بيشة مُحرَجا: "اذهبْ إلى ذويك يا سي مصطفى، فهُم بانتظارك." "صبرا يا بوسنة، أتعرف الفرق بيننا؟" "كلاّ." فكرّر عليه عندئذ ما قاله له في حمّام شبّورة: "إذا أنا متُّ قبلك، فأنا واثق من أنك ستثأر لي. ولكن العكس ليس صحيحا، لأنني لا أملك شجاعتك."

أما عجول، فأهدى سي مصطفى بندقية "برّان" لأمنه الشخصي.

وهو في طريقه نحو الجنوب الغربي ومشونش، لحِقَت بمصطفى دوريةٌ قد تبعته بالخطو الحثيث حتى "إيفري لبلح"، وهي منطقة كلها شعاب مدوِّخة، يقطعها وادي "غسيرة" وتقع بين "الغوفي" و"بنيان". إذ كانت هذه الدورية قد توجهت إلى كيمل، ولم تجده. وكانت قد جاءت من الشرق، وقد أرسلها عباس بهدايا كالعادة: زوج بغال مثقلين بالذخائر، وفراش مطاطي قابل للنفخ. ترفقها رسالة ، يشرح فيها عباس أنه جريح في الوقت الراهن، وأنه سيلحق به قريبا.

شعر مصطفى بالاطمئنان. فبسط ضاحكا الفراش، الذي سمّاه المجاهدون على الفور وللمرة الثانية، "بساط الريح الخاص بسي مصطفى". [1] وحلّ طُرودَ الذخيرة؛ رصاص من مختلف العيارات، وبالمئات. فطلب إخفاءها. فأجابه الرجال: " غدا يا سي مصطفى!" فنظر إليهم باستغراب.

قال لي مصطفى بوستة: "لم يعد التيار يمرّ بينه وبين الجنود. أو إن شئت، فقل أنهم لم يعودوا على طول الموجة نفسه."

في المساء تعشّوا بالفطير والسردين المصبّر. كان الليل مقمرا، واتخذ الثلج لونا أزرق شاحب. وأشعل بعض الرجال نارا تحت الأشجار، عند أطراف صخرية شديدة الانحدار.

في اليوم الموالي، حلقت مروحيات ضُخمة آتية من الغرب، فوق "إيفري لبلح". فاحتلّت السماء، وطافت فيها لبعض الوقت، ثم اختفت في الشمال الشرقي باتجاه الغوفي. ثم حلّت محلّها طائرة استطلاع خاصة بالأدغال تحوم ببطء أكثر.

---

1) نذكر أن أول فراش قد ضاع في بوغرزال يوم 23 ديسمبر 1954، أثناء الهجوم الفرنسي على مخبأ مصطفى

كان مصطفى متوترا. وقد تبيّن بوضوح، في ضوء هذا الصباح الشتائي، أنّ مجموعةً من الدبابات تتحرك انطلاقا من "تيفلفال" إلى الشرق. فأمر سي مصطفى: "سيروا متخفّين! راقبوا الطائرة!"

وطلب من علي بن شايبة أن يمرّر الأمر إلى محمد بن مسعود، مسؤول ناحية مشونش، حتى يملأ كلُّ مجاهد كيسه، بأكبر كمية ممكنة من الرصاص.

وهو ما فعلوه، ولكن كان ثمة حجما زائدا. فقال إذن : " ادفنوا ما بقي. سنعود لأخذه هذا المساء." ولم يفارق الطائرة بعينيه.

ما يزال مصطفى بوستة يروي: "كان يبدو مُغتمّا. فقد كان يصيح في الرجال الذين يتنقلون غير متخفّين، متجاهلين بكبرياء أوامره والطائرة معا. وفي هذه اللحظة وصل الراصدون. فأخبروه بأن الوادي مقطوع، من بنيان إلى أولاد منصور، وأن المنطقة تعج بجنود العدوّ. لم يكترث المجاهدون لذلك. وشكّلوا كتلة من حول مصطفى. واعترف قائد فوج بأن وضعهم الحالي مكشوف أكثر مما ينبغي، وأنه ينبغي تغييره بتسلق المرتفعات."

ولم يلبثوا أن فعلوا. فشرعوا في صعود "أحمر خدّو" باتجاه قمة "تكتيوت"، التي تتربع على علوّ ألفيْ متر. وبعد بضع دقائق، ظهرت طائرات خرجت من العدم، تلقي بقنابل دخانية.

كان صراخ مصطفى مسموعا: " إلى الأرض جميعا!" فقال له أحد المجاهدين: " كلا يا سي مصطفى، ينبغي بالعكس الذهاب فورا. فقد كشفَنا الطيارون. انظُر!" وحمل سلاحه على الكتف وأطلق على الطائرات. "نحن متعوّدون". ثم واصل الصعود، تاركا مصطفى مُمدّدا على الأرض.

أغرق الدخان المنظر. واختفى المجاهدون. وشرع الفرنسيون يَرُشّون الغابة بالمدفعية والهاون. إضافة إلى الطائرات التي راحت تعربد الآن، بعد أن كانت تتلمّس الميدان. قام مصطفى يركض وسط السحب الاصطناعية وشظايا القنابل، واختبأ تحت صخرة هائلة، يتبعه أحد الجنود. استمرت طلقات الحاجز الفرنسي في هياج. كانت القذائف تتساقط بقوة، وتمتزج بالدخان القطني. وكانت الطائرات النفاثة تقوم بنزلات تصمّ الآذان. أصيب تسعة مجاهدين بجروح متفاوتة الخطورة. خبّأهم رفاقهم في قعر مغارة، وكان كل واحد منهم مسلحا بمسدس. فعوّل كل واحد على نفسه. وافترقت الأفواج. واستمرت في التسلق دون توقف. كان الفرنسيون في كل مكان. تُنزلهم مروحيات أو جاءوا بالشاحنات. ودخلوا إلى "أحمر خدّو" انطلاقا من "مشونش"، في مسعى لوقف تقدم جيش التحرير الوطني.

نجحت مجموعة من المجاهدين في كسر الحاجز دون إطلاق رصاصة واحدة. ووقعت مجموعة أخرى أقل سرعة في الشباك، فأطلق الرجال الممددون، بضع رشات من البنادق الرشاشة عشوائيا، وإذا بشبح جندي فرنسي أشيب الشعر ينفصل، ظاهر جيدا على منحدر مقابل، كما لو أن حواشي غيمة قد دفعته، يرافقه كلب. كان يتنقل دون اكتراث، متكئا على عصا، ومرّ على نحو عشرة أمتار من صف المجاهدين الأول. صوّب بن شايبة فوهة سلاحه إليه، فمنعه رفيقه من إطلاق النار. ففتح مجاهد آخر النار عليه. كان ذلك حسين معارفي الذي انكشف، فأُردي قتيلا على الفور. حينها شوهد أحد أفراد اللفيف. بدين وملتحٍ، يزحف باتجاهه، فيبلغه ويأخذ سلاحه ويعود سالما إلى موقعه، رغم نيران المجاهدين الكثيفة. ثم يحدّد بن شايبة رامي البندقية الرشاشة العدوّ، ويفلح في إصابته.

وواصل الفرنسيون رميهم لعدة دقائق، ثم بدأوا في التراجع.

وهاهم يقعون بين نارين : نار فوج بن شايبة من الأمام، ونار مصطفى من الخلف. بعد فترة، قال مصطفى أنه أصاب ثمانية إلى تسعة جنود أعداء.

دام الاشتباكُ النهارَ كلَّه. وعند الغروب، تلوّن الجبل بالوردي وكان المجاهدون مغتمّين: فقد اختفى مصطفى. لقد بحثوا عنه في كل مكان في صمت. نزع مدور عزوي الذي كان يرتدي حذاء ذا مسامير حديدية ضاجّة حذاءه، وذهب حافيا يبحث عنه عبر مسالك ثانوية.

كان المجاهدون يعلمون أن الفرنسيين كامنون، فكانوا يتجنبون إحداث أي صوت. في أثناء ذلك، وفي الليل الحائر، كان مصطفى ينسحب رفقة ثلاثة رفاق نحو الجنوب الغربي، وقد استخدم المسلك الرئيس للأكمة التي تؤدي إلى بنيان. هناك، وقع على فرنسيين جرحوا اثنين من رفاقه، أحدهما في قدمه. فعاد أدراجه، وزحف مع رفاقه لمسافة غير محدودة، ثم سار حتى الوسطية، نحو الشمال، حيث قضى بقية ليله.

في اليوم الموالي، التقت أغلب القوات في ساقية الشرفة، شرق الوسطية تماما ، وهي إحدى نقاط التجمع التي سبق تحديدها.

وأجريت الحصيلة على الفور: فثمة اثنا عشر مجاهدا ينقصون [1]. واختفت البغال التي أرسلها عباس. غير أن بغلا واحدا، ظهر خلال النهار، وبلغ بمفرده مخبأ ساقية الشرفة وسط فرحة المجاهدين العارمة.

---

1) وجد الفرنسيون المجاهدين التسعة الذين كانوا مختبئين في المغارة، فقتلوهم في المكان نفسه.

بعد ذلك بفترة، بدأ الفرنسيون، كما لو كانوا يتنبؤون بوجود طريدة سمينة، تمشيطا واسعا انطلاقا من واد عبدي وأريس. وحلقت "مؤزاتٌ" طائرة، يبلغ عددُها الإجمالي سبع طائرات، فوق ساقية الشرفة، وقامت بعدة دورات في تعاقب جهنمي حتى منتصف النهار، ثم أخلت المكان بعد أن فرّغت أجوافها، إلى "المُخبِر الأصفر" الدائم، الذي يهتز بكامل أجنحته، وهو يرسم دوائر عريضة بطيئة في السماء.

أطفأ مصطفى الغاضب نارا أُوقِدت لطهي الرغيف. وأُفرغت السماء ثم امتلأت من جديد. كانت هذه المرة طائرات نفاثة، وطائرات "T6" في غضب جنوني، ترش، وتقنبل وتحوم بطائرات أكبر تقصف.

وطلع مجاهد من الأحراش، مصوّبا بندقيته الرشاشة نحو السماء، وأطلق رشات قصيرة على الطائرات التي علت على الفور. وخرج رجال آخرون بلا تَخفٍّ، وفتحوا النار ببنادقهم. فأصيبت طائرة مقنبلة. وبدت فجأة واهنة، ثم بدأت تهبط ببطء باتجاه الغرب وهي تبصق دخانا.

لم يكد مصطفى يُصدّق ذلك: "هذا رائع يا أولاد، ولكن ابقوا متخفّين! لا تستهينوا بالعدوّ!" كان كمّن يخطب في البيداء. صعدت الطائرات عاليا جدا في السماء، وصارت ضرباتها أقل دقة.

أخبر اتصالٌ مصطفى بأن الفرنسيين قطعوا تمشيطا هاما بخنقة سيدي ناجي، وأنهم يسحبون قواتهم نحو ساقية الشرفة. وفي انتظار ذلك، استمر الرش والقصف دون توقف، حتى مغيب الشمس.

عند هبوط الليل، أمر مصطفى بكسر طوق العدوّ، وحدّد نقطة التجمع في بنيان، إلى الغرب بخمسين كيلومترا. ونادى مرشدين مدنيين. كان الفرنسيون قد نصبوا بالفعل حواجز على طول المسالك وكمنوا في صمت جنائزي.

تبع المجاهدون المنقسمون إلى أنصاف أفواج، المرشدين في صفّ متتابع، وأفلحوا في العبور عبر الحواجز. ولم يفقدوا سوى رجل واحد. كان يلزمُهم الليل كلّه، لقطع الثلاثين كيلومترا التي تفصلهم عن "كاف لعروس"، الذي يبعد هو نفسه عن بنيان بعشرين كيلومترا.

وصل المجاهدون إذن إلى كاف لعروس، واحدا بعد الآخر. فتهاووا على الأرض منهكين ومقطوعي الأنفاس. ما زال الليل يخيّم. جمّدت ريحٌ جليدية العَرَق على وجوههم. وقال مصطفى: "هيا يا أولاد، مزيدا من بعض الجهد! ينبغي عبور الوادي قبل طلوع النهار!" فأجابوا: "نحن هنا في أمان. فلنسترح قليلا. والله يدبّرها!"

فاعترى مصطفى غضب شديد. وقال: "هكذا إذن! حسنا، ابقوا هنا. وأنا أيضا لن أتحرك. ولن أذهب إلى أي مكان!" وتوجه نحو شجرة، وأنزل قلنسوته حتى أسفل جبهته وتمدّد على الحزان، متكئا برأسه على جذع الشجرة، على بضع سنتيمترات من الأرض.

فأقبل قادة النواحي والقطاعات بالدور، يشرحون له حالة المجاهدين المعنوية لإطفاء غضبه. "إنهم لا يعرفونك بعدُ يا سي مصطفى! اترُكْ لهم بعض الوقت. عليهم أن يتعودوا عليك." لكنه أبى أن يسمع شيئا. ولم يكُفّ عن إظهار استيائه إلى أن حلّ الفجر. ثم عبر مع المجاهدين الآخرين "وادي غسيرة" حتى "الديسة"، وبلغ "الجبل لزرق" خلال النهار.

إن مقاومة طوفان حديد الجيش الفرنسي وناره، دليل إضافي على قدرات جيش التحرير الوطني القتالية. ما جعل المعنويات ترتفع إلى حدّ بعيد.

قضى مصطفى كامل شهر فيفري، والأسبوع الأول من مارس 1956، في إعداد اجتماع "نارة". ودون شعور بالتعب، واعيا بالتأخر الذي

تراكم طيلة غيابه، جمع وخزّن المعلومات بجميع الوسائل المتاحة، وحلّ المشكلات الأعجل، تاركا الباقي لوقت آخر. وكان كاتبه عبد الحميد العمراني يساعده قدر استطاعته.

اجتماع الجبل لزرق

في 11 مارس 1956، عقد مصطفى اجتماعا أوليا، اشتُهرَ باسم اجتماع الجبل لزرق. حضر الاجتماع: عبد الحفيظ طورش والطاهر النويشي والحاج لخضر وعلي بعزي ومحمد بن مسعود ومصطفى بوستة ومصطفى رعايلي ومسعود بن عيسى وعمر بن بولعيد وأحمد نواورة ومحمد الشريف بن عكشة وعبد الحميد العمراني.

ولم يؤذن بالحضور لأحمد بن عبد الرزاق، لأنه كان ما يزال تحت المراقبة.

"هو خطير، ولكنني واثق وموقن، من أنه لن يخون العهد الذي قطعه لي." يؤكد مصطفى. "إني أنوي تعيينه في الصحراء. إنه رجل أثبت نفعه للثورة."

وواصل هذا المونولوج في إطار غير رسمي أمام قادة النواحي: "إن فرنسا تعترف الآن بأن جيش التحرير الوطني، قادر على خوض عمليات على مستوى الفيلق. أشهد بأن ذلك صحيح. فقد رأيتُ بعينيَ طائرة مقنبلة تتحطم إثر طلقات جنودنا. فما الذي نريده أكثر من ذلك؟"

بعد ذلك بسنين، أكّد لي مصطفى بوستة أن التأثر كان كبيرا، وكنا اليقين بالنصر النهائي. "عودةُ مصطفى، اعتبرناها معجزة. فقد توقفت

المشاحنات وتركت المكان لغبطةٍ مُهدّئة. فقد أعلن لنا: "انتبِهوا جيدا يا أولاد، فمسؤولو الثورة الحاليون لم يصبحوا كذلك، إلا بفضل مصادفة ظروف – سعيدة كانت أو مؤلمة – وحده المستقبل يمكنه تأكيد ذلك. وقد شاءت هذه المصادفة أن يكون من بين تسعة عشر قائدا، أحد عشر من التوابة. ينبغي أن يتغير هذا. فالثورة ليست ملكا لا لرجل ولا لعشيرة. فعلى كل ناحية وكل منطقة وكل قطاع أن تختار قادتها، فقط حسب استحقاقهم."

كان مصطفى الوحيد الذي طرح مشكل العشائرية، صراحة وبدون نفاق. وبعد ذلك مباشرة، قدّم لنا رقيبيْن جزائرييْن فارّيْن من الجيش الفرنسي. "اقبلوهما كأخويْن وأحسنوا إليهما. فهما بطلان." وأضاف أن الاجتماع لا يتضمن جدول أعمال، لأن الأمر يتعلق قبل كل شيء، باستعادة الاتصال بينه وبين مسؤولي الجهات الآخرين."

واستقبل في الظهيرة باحترام كبير، شخصا يدعى زيان، وهو مقاوم مصاليّ من أولاد جلاّل، يرافقه فصيل هام من المجاهدين المسلحين: "أعلنها لكم جهارا، إن أخانا سي زيان قد التحق بالجبهة. واعتبارا من هذا اليوم، فإن الثورة تقبله في صفوفها، وتعهد له بمنطقتيْ بوسعادة والجلفة."

وبدأ الاجتماع الحقيقي في آخر الليل. أول نقطة في جدول الأعمال: إحصاء عائلات المجاهدين وحساب المنح العائلية. استعلم كاتب الجلسة عن الوضع العائلي لكل مسؤول حاضر:

– "سي مصطفى، هل أنت متزوج؟"

– "أجل".

– "كم طفلا لديك تحت كفالتك؟"

– "انتظر حتى أعدّ..." فقاطعه أخوه عمر ضاحكا: "لا تفكر –على الخصوص –في حساب عبد الوهاب [1] فهو ابني أنا!"

بعد إحصاء الأسَر، كانت ثاني نقطة في جدول الأعمال هي حلّ سلك الكوماندوس المتطوعين. وشرح مصطفى الأمر: "يتكون جيش التحرير الوطني من متطوعين، متساوين في الحقوق والواجبات، وليس واردا أن يُفضَّل مجاهدون على آخرين، لأنهم ينتمون لفصيل خاص. فنحن نواجه جميعا المخاطر نفسها."

ثالث نقطة في جدول الأعمال: إعادة تنظيم المناطق. وقد اعترف بكل صدق، بأنه بحاجة إلى المزيد من الوقت، لاستدراك جهله الحالي بالوضع. ثم ذكر على غير اتساق، مشكل توزيع المهمات – وهو مشكل دائم – أي مَن يفعل ماذا. ثم أضاف أنه ينبغي تقسيم ناحية أريس إلى اثنتين، لأنها كما هي حاليا شاسعة جدا، وهي بذلك غير قابلة للتسيير. [2]

ولإحباط العدوّ، أوصى بإرسال رسائل شخصية، إلى الجنود الألمان والمغاربة لتسريع فرارهم.

1) عبد الوهاب، ابن مصطفى، قُتل في مارس 1995، وهو على الطريق الفاصل بين الجزائر وباتنة من قبل رجال مسلحين. كان مصطفى، مباشرة بعد هروبه من السجن قد رفض أن يؤتى به لكي يراه. لقد زعم أنه لايريد رؤيتة لأسباب امنية. لكن الحقيقة هو أنه لم يكن يحبذ أن يعامل بطريقة افضل من الآخرين.

2) في تلك الاثناء كانت ناحية أريس تحتوي على ثماني مناطق : بريكة، سطيف، باتنة، عين القصر، الشلية، أريس، مشونش وبوسعادة.

اجتماع كيمل

واستأنف في 13 مارس 1955 جولته، فعاد إلى كيمل حيث ينتظره قادةُ المناطق الخمس: الوردي قتّال من سوق أهراس، وسيدي حنّي من تبسة، والتيجانيَ من خنشلة، وبوستة من كيمل، وبن شايبة وبن عكشة من أريس.

لم يرافقه أخوه عمر ومسعود بن عيسى ومدور عزوي.

وبدأ الاجتماع في المساء نفسه. وكان مصطفى مستعجلا. فقد قال بشأن الأسلحة المرسلة من تونس: "ينبغي أن يكون توزيع الأسلحة عادلا." فرُدّ عليه بالموافقة في صخب وجلبة. وطلب عبد الله نواورية، نائب قائد ناحية سوق أهراس، الكلمة: "نأمل أن تأتي كل ناحية، لأخذ نصيبها من السلاح والذخيرة على الحدود. فلا يمكننا ضمان إيصالها إلى كل واحد!"

وافق مصطفى: "فَلْيَأْتِ كل واحد لأخذ نصيبه!" وقدّم قادةُ النواحي، الذين سُئلوا عن تعدادهم، أرقاما كانت بالضرورة تقريبية.[1]

انتابت مصطفى شكوك ! فالأرقام التي قدمها قائد ناحية سوق أهراس، بدت له مبالغا فيها.

وسأله: "أجبني يا سي الوردي قتّال: أكُلّ مجاهديك مسلّحون؟" "كلا يا سي مصطفى. فنحن لا نتوفر في الواقع إلا على أربعمائة سلاح،

---

1) سوق أهراس: 1400 مجاهد
أريس: 1200
كيمل: 450
خنشلة: 350
تبسة: 350
القاعدة الشرقية: 150

اجتماع كيمل

واستأنف في 13 مارس 1955 جولته، فعاد إلى كيمل حيث ينتظره قادةُ المناطق الخمس: الوردي قتّال من سوق أهراس، وسيدي حنّي من تبسة، والتيجاني من خنشلة، وبوستة من كيمل، وبن شايبة وبن عكشة من أريس.

لم يرافقه أخوه عمر ومسعود بن عيسى ومدور عزوي.

وبدأ الاجتماع في المساء نفسه. وكان مصطفى مستعجلا. فقد قال بشأن الأسلحة المرسلة من تونس: "ينبغي أن يكون توزيع الأسلحة عادلا." فرُدّ عليه بالموافقة في صخب وجلبة. وطلب عبد الله نواورية، نائب قائد ناحية سوق أهراس، الكلمة: "نأمل أن تأتي كل ناحية، لأخذ نصيبها من السلاح والذخيرة على الحدود. فلا يمكننا ضمان إيصالها إلى كل واحد!"

وافق مصطفى: "فَلْيَأْتِ كل واحد لأخذ نصيبه!" وقدّم قادةُ النواحي، الذين سُئلوا عن تعدادهم، أرقاما كانت بالضرورة تقريبية.[1]

انتابت مصطفى شكوك ! فالأرقام التي قدمها قائد ناحية سوق أهراس، بدت له مبالغا فيها.

وسأله: "أجبني يا سي الوردي قتّال: أكُلّ مجاهديك مسلّحون؟" "كلا يا سي مصطفى. فنحن لا نتوفر في الواقع إلا على أربعمائة سلاح،

---

1) سوق أهراس: 1400 مجاهد
أريس: 1200
كيمل: 450
خنشلة: 350
تبسة: 350
القاعدة الشرقية: 150

من بينها عديد بنادق الصيد." "فلِمَ إذن هذا التجنيد المتكرر، الذي لا يمكن إلا أن يسهِّل تسلُّل الخونة والمصاليين إلى جيش التحرير الوطني؟" "هم في الغالب مقاومون يتعقبهم البوليس الاستعماري."

"في هذه الحالة، ينبغي مطالبتهم بجلب سلاحهم الخاص. وبالمناسبة، أما يزال تعاطي التبغ محظورا في سوق أهراس؟" "أجل يا سي مصطفى." "والمدخنون، هل يُعاقَبون؟" "أجل، فنحن نجدع أنوفهم، وإن عادوا كان العقاب أشد." "وأنت؟ علمتُ أنك تدخِّن على الملأ، أمام هؤلاء الذين تعاقبهم تحديدا. ينبغي أن يكون القائد قدوة!"

وعُزِل الوردي قتّال مؤقتا، وعُوِّض بنائبيْه، عبد الله نواورة وعمرو جبار. وعيّن مصطفى لجنة لتقصي حقيقة خطأ قتّال.

وبالمناسبة نفسها، طلب من نواورية دراسة إمكانية عقد مؤتمر لما بين النواحي في سوق أهراس. وما يزال مصطفى بوستة يتذكّر أقواله: "حان الوقت لإجراء حصيلة الوضع. فقد ولّى زمن الارتجال وعمل الهواة! ثمة فتنة بين النواحي. ويجب أن تزول. لأن مهمتنا عظيمة. وتكاد تفوق طاقاتنا!"

استُنفد جدول الأعمال قبيل الفجر. فأكلوا قليلا قبل افتراقهم. انتقد قائد إحدى النواحي تحويل كيمل إلى ناحية، ما يُعتبر بمثابة هجوم غادر على عجول. فكان ردّ فعل مصطفى جافا:

"الحقيقة، أن ناحية كيمل منظمة كما ينبغي. إنها مثال ينبغي على الجميع الاحتذاء به. سأقول لك شيئا: أنا أنوي حقا تحويلها إلى مستودع مركزي لتموين جميع النواحي، وأنوي أن أقيم بها مستشفى طوارئ، بل ومركز راحة لجنودنا كذلك!"

يوم 14 مارس 1956، غادر مصطفى ناحية كيمل وتوجه غربا، عابرا الدواوير التي أحرقها الطيران الفرنسي، والتي أخلاها سكانها وبقيت

الكلاب الضالة تجوبها. لقد دُمِّر كل شيء. حدائق الأوراس المعلقة، ثمرة عدة قرون من العمل المضني، وبساتين النخيل والأشجار المثمرة، والمطامير المبقورة، وبيوت الحجر المقلوعة الأسقف والمحطمة، كاشفة عن باطنها الرث. حتى المقابر نالت نصيبها من النابالم!

كان يرافقه مصطفى بوستة وأحمد بن عبد الرزاق وعبد الحميد العمراني، إضافة إلى حرس يبلغ عددهم نحو أربعين مجاهدا. وقال لبوستة: "أنا منزعج من كون عباس لغرور لم يرغب في أن يستجيب لندائي. فقد طلبتُ منه المجيء مرتين." فأكد له عمر وبن عيسى، أنه لا يجرؤ على الحضور أمامه، حتى لا يضطر إلى مصارحته بحقيقة مقتل شيحاني.

كمناصر للبراغماتية، لا يقبل مصطفى أن يُصرف عن أهدافه، وهي:

- إطفاء أسباب الفتنة بين قادة النواحي.
- إطفاء المعارك في مناطق الوطن الأخرى.

بالنسبة للهدف الأول، يبقى حجر الزاوية هو الخصومة بين عجول وبن عيسى وبين عمر وعباس. وكان مصطفى يدفع ثمن تردده السابق. هذه المرة، لن يكون لديه الوقت لفك العقدة المستعصية، إذ أن لديه موعدا مع الموت بعد بضعة أيام. أما الهدف الثاني، فقد قال لعجول وكرر: "لا بد من أن أذهب إلى الشمال القسنطيني وبلاد القبائل. أعلم أن لديهم مشاكل. وعلينا تنسيق عملنا." وقد روى لي عجول جوابه: "لقد نصحتُه بقوة بألا يذهب. لقد قلت له: عالج قبلا المشاكل القائمة هنا، ويمكنك الذهاب بعد ذلك! ولكن مصطفى كان دائما يتطلّع إلى ما هو أكبر."

يسير مصطفى وحرسه في الوقت الراهن باتجاه نارة في الجبل لزرق. بقي علي بن شايبة في الخلف، للإشراف على فرار اثني عشر جنديا مغربيا، من مركز الحجاج الفرنسي، غرب أريس ببضعة كيلومترات.

في "تافرنت" إلى الأعلى من "بلول"، وهي نفسها مركز مقاومة سابق ضد المحتل الفرنسي، كان في استقبال مصطفى، بن عيسى وبن ناجي وعمار معاش. قدم له بن عيسى أربعة فارين: رقيبان جزائريان، ومغربيان : مساعد أول وجندي.

لقد انضموا إلى جيش التحرير الوطني ببندقية رشاشة وأربع بنادق. كان وجه مصطفى يشع فرحا. فتحادث مع القادمين الجدد، وكلّمهم عن الوحدة المغاربية.

في المساء، وصل علي بعزي إلى تافرنت، وكان مسرورا جدا: "أخبار جيدة يا سي مصطفى، لقد أهدانا الفرنسيون جهاز إرسال واستقبال جديدا. وبالمجان!" "اشرح لي قليلا".

"ألقت طائرتهم طردا بريديا فوق مركز "ورقة". ولكنهم أخطأوا هدفهم، فسقط الكيس أبعد قليلا. فالتقطه أحد المجاهدين وأتاني به. ففتحتُه ووجدت فيه رسائل وجهازا رائعا جديدا."

فابتسم مصطفى: "خبّئه! ولا تحدث عنه أحدا! سنجرّبه في "نارة". لا شك في أن الضباب قد ضلّلهم."

واستمر في تخصيص كامل وقته وطاقته لإعداد اجتماع نارة. ونذكر أنه كان قد وصفه أمام بيشة، بالجوهري بالنسبة للثورة ومستقبلها. "إن مصير الثورة كلّه على المحكّ!"

ولم يتوقف عن إرسال الرسائل الواحدة تلو الأخرى، من تافرنت إلى نارة، فارضا على فريقه كله مشاركة مضنية.

استشهاد مصطفى بن بولعيد

كان يوم 21 مارس 1956 في نارة. المخابئ جاهزة. حتى أن أغلبها قد احتلته الوفود. وقد تم تزويدها بحطب التدفئة والماء وعُدّة النوم ومصابيح الفحم. وتمّ تعزيز الأمن داخل مكان التجمع وخارجه. كانت الأمانة وآلات الكتابة جاهزة لتسجيل كل شيء، في انضباط بيروقراطي تام، كما أورثهم إياها شيحاني.

كان مصطفى مطلوبا بإلحاح وباستمرار. وكان يتنقل مرتديا معطفا ثقيلا كاكيّ اللون، يغطي رأسه بقلنسوة صوفية، رُشقت فيها شارة، تحمل عبارة "القيادة العسكرية"، تحيط بنجمة وهلال؛ كان يتوقف عند كل بيت للترحيب بالأفواج، يتبعه العمراني، ويلاحقه في كل لحظة أعوان الاتصال، الذين يزودونه دون توقف بآخر الأخبار، وهم كالأعصاب التي لا تتعب ولا تكلّ.

كان غالبا ما يطلب من عبد الحميد العمراني تسجيل معلومة، أو أن يذكّره بهذا التفصيل أو ذاك. وفي هذه الأثناء، كان المجاهدون بعد التعارف وتبادل التحية، يتفرقون في الأحراش. كانت قواعد التمويه الصارمة محترمة؛ فلا نار توقد، ولا صياح يسمع.

عند الغروب، أمر مصطفى بحظر التجوال. فكان على كل فوج أن يلتزم البيت الذي مُنِح إياه. ووُزِّعت الوجبات.

بعد زمن قليل لم يعد يقطع هدوءَ الليل سوى الحشرات الخاشبة وهي تبحث عن طعامها.

كان مخبأ مصطفى يتمثل في حجرة من ستة أمتار مربعة تقريبا، تحمل سقفَها أربعُ ركائز من خشب الرمان. كانت النار موقدة مابين الركائز، وكان هنالك مِنسَجٌ عارٍ، عند الباب الكبير، وكأنه يرقب شيئا ما.

تجمع داخل المخبأ مع مصطفى، نحو اثني عشر مسؤولا، من بينهم مصطفى بوستة وعلي بن شايبة وعلي بعزي وعبد الحميد العمراني ومحمد الشريف بن عكشة. بالإضافة إلى الرقيب محفوظ الفارّ لتوّه.

كان مصطفى ممدّدا على الأرض، متكئا على مرفقه الأيسر. وكانت بعض الأخشاب الكبيرة وسط الركائز تواصل اشتعالها. أنهى رجل جالس على ركبتيه، عركَ كرة عجين داكنة هائلة، ثم راح يشتّت الجمر بواسطة عود. وسأل مصطفى: "أين الجهاز؟" فأخرجه مجاهدان من كيس مليء بالرسائل ورفعاه برفق، ووضعاه على كومة مناشير قبالة مصطفى.

قال علي بعزي في نبرة إعجاب: "إنه يزن أربعة كيلوغرامات على الأقل!" وفكّكه مثل خبير متفجرات أمام المجموعة كلها. كان مفرغا لا يتكون إلا من لوحتين صفراوين موصولتين بخيوط: "هذا كل ما فيه من بُنية! ليس ثمة أبسط من هذا!" يتوفر الجهاز على هوائي طويل وسماعة متحركة، تشبه سماعة جهاز تلفون عادي. وعلى واجهته الأمامية، عدّ بعزي ما لا يقل عن أربعة عشر زرّا.

طلب مصطفى من الرقيب محفوظ أن يفحصه. فأجاب: "يملك الجيش الفرنسي الكثير من الأجهزة المماثلة. رأيت منها أيضا في الهند الصينية." "كيف يعمل؟" "ببطارية كبيرة أو بطاريات صغيرة." فقال مصطفى: "ضعوا الهوائي في زاوية، ليس في الخارج." فقال بعزي: "لا بد أنه جهاز ألماني يا سي مصطفى!" وسُمِع هُتاف استحسان بين الحضور. جهاز ألماني، من الميكانيكا الجيدة، آتٍ من بلد طالما سدّد ضربات موجعة لفرنسا!

في الخارج، في الجو اللزج من الرطوبة، يركُد مطر رقيق غيرُ متحرك بين الأشجار. كان الليل مثقلا برائحة التراب والأحراش. فتح مصطفى

الكيس، وأخذ رسالةً وفكّ ختمها، وقرأها على بصيص مصباح الفحم. وابتسم: "إنها رسالة امرأة كتبتها إلى زوجها. حتى أنها قبّلته. انظروا!" ورفع الورقة كي يروا عليها بصمة شفتين كبيرتين مصبوغتين بالأحمر. فقال للزوجة كما لو كانت إلى جانبه: "تعالَيْ لتَريْه هنا. سترين أنه يسبح في قلب الحرب."

أخرج علي بعزي مصباحا كهربائيا يدويا من جيبه، فانتزعه منه بوستة، وحاول استخراج البطاريات منه، فلم يفلح. وتمكّن مصطفى من استخراجها، فوضع بعزي واحدة منها في الجهاز.

ودخل عون اتصال، فوشوش في أذن مصطفى الذي قام متبوعا بالعمراني، وخرج للقاء مجاهدي باتنة. وبما أن الوقت متأخر ولم تبق ثمة وجبات، فقد وزع مسعود بن عكشة على الوافدين الجدد خبزا وعلب سردين.

سألتُ بعد سنين طويلة من ذلك سي الحاج لخضر: "لِمَ تأخرتم؟" "لأننا لم نُنْهِ جمع كل الاشتراكات. فلم أكن أريد الوصول إلى الاجتماع فارغ اليدين." "وهل حدّثكم مصطفى عن الجهاز؟" "أجل، فقد قال لي أن الاستعمار ألقاه خطأ. بل إنه أضاف أنه سيستخدمه كنواة لإنشاء مصلحة الاتصالات مستقبلا. فتذكرتُ ما كان يقوله لنا قبل الثورة بشهور: "إذا وجدتُم شيئا ملقى على الأرض، حتى قلما، فلا تأخذوه، فقد يخفي قنبلة." ولم أتردد لحظة واحدة فقلتُ له: إنها مكيدة يا سي مصطفى! فنظر إلي هو والعمراني كما لو كنتُ مريضا، وأكدا لي: لا عليك يا الحاج، فكل شيء على ما يرام! فانصرفا والتحقتُ برجالي داخل مخبئنا للاستراحة. فقد كانت الرحلة مضنية."

تمدّد مصطفى الذي عاد إلى مخبئه مجددا على جنبه الأيسر، ونظر لفترة إلى الخباز الهاوي، يُقلِّب الرغيف على الجمر بغير إتقان، بينما

تضوع رائحة الخبز الساخن في المحيط: "فلنَأكُلْ قبلا يا أولاد!" "كلا يا سي مصطفى، فلنُجرِّبْهُ حالا!" كان بعزي هو من يُلِحُّ على الخصوص.

واقترب الجميع، كانوا يريدون لمس الجهاز. وجلس بعزي والمصباح في يده، تماما بين مصطفى وبوستة، الذي كان عليه، وهو غاضب بعض الشيء، أن ينخفض قليلا [1] ليرى أوضح. شدّ مصطفى على الخيوط للتّحقُّق من توثيق الرباط، ثم أدار الأزرار بيده اليمنى، والسماعة في يده الشمال، كليك، كليك، والانبهار الشامل ! [2]

سبّب الانفجار بداية فزع شديد. سارع المجاهدون إلى خارج المنازل، المتباعدة بعضها عن بعض، ببضع عشرات الأمتار فقط. وبعد لحظات الذعر الأولى، توافدوا جميعُهم إلى مخبأ مصطفى.

لقد اختفى! وفي مكانه ثقب أسود هائل، ورائحة قوية من غبار وتراب نديّ. كان الرجال يختنقون، كان سعالهم وصياحهم مسموعا بوضوح، يخترق الليل والرذاذ المتساقط. تمّ التعرف على جثث تمّ إعادتها إلى التراب، وكانت بينها جثة مصطفى، مكشوف الجمجمة حتى القفا. كما قاموا بإبعاد الجرحى المصدومين – عُميا، بدون جلد ولا شعر– [3] وتمّ إسعافهم.

صاح الحاج لخضر من بعيد: "لا تلمسوا شيئا! فكل شيء ملغّم!" وقد عُثِر على مناشير وعلب سردين على أبعد من مائة متر من الفوهة. وهذا ما يرويه الحاج لخضر: "لأني أعرف مكر الأعداء وخبثهم

1) أنقذ هذا التصرف بوستة من الموت، لا من التشوّه.

2) تحدث بن شايبة عن عصف مرجل.

3) الموتى: مصطفى بن بولعيد، علي بعزي، عبد الحميد العمراني، مسعود بن عكشة، الرقيب محفوظ. الجرحى في حالة خطيرة: علي بن شايبة ومصطفى بوستة.

– والاعتداء بالجهاز المفخخ مثال واضح على ذلك – فقد كنتُ مُوقِنًا على الفور أنهم سيهاجموننا في أقرب الآجال. فوضعتُ فوجي في حالة تأهب داخل الغابة، في صمت مطبق. حتى الفجر. ليلٌ طويل في انتظار عدوٍّ لم يأت في النهاية. وأخبرتني دوريات في الصباح، أن أي تحرك مشبوه لم يقع. فلم أصدّقهم. ثم إنني لم أعد أصدّق أحدا. كنت أتحقق وأتأكد بنفسي.[1] وتماسك المسؤولون الآخرون. فأمروا الجنود بعدم إفشاء موت سي مصطفى، تحت طائلة الإعدام.[2]

آسف، سأسأل مع ذلك: "سي الحاج، هل أثر فيك موت سي مصطفى؟"

نظر إليّ، وكشر بابتسامة حزينة: "من الطبيعي أن يؤثّر فيَّ موتُه. ولكنني لم ألتحق بجبهة القتال لأفكر في الموت، موتي أو موت الآخرين. كنتُ أعرف أن ثمة ثمنا يجب دفعه، وحسب." ولننتقل إلى أمر آخر! أما علي بن شايبة، فقد أعلن لي على الخصوص أنه عانى من العمى ونزيف قوي: "كنتُ أنزف من كل مكان، من الأنف ومن الأذنين. وفي اليوم الموالي استعدتُ بصري، واستطعت أن أرى جمجمتي المهشمة من الجهة اليمنى، وعيني المفقوعة، وشعري وجلدي المحروقين. كنا ننتظر أنا ومصطفى بوستة زيارة سي مصطفى. فقيل لنا: "يرحمه الله!" وفي الليلة الموالية، نقلونا تحت حراسة مشددة على ظهور البغال، حتى جبل بني فرح حيث بقينا 27 يوما."

---

1) الحاج لخضر معروف بحذره الأسطوري، الذي مكّنه من الصمود في وجه الموجة الضاغطة، التي كانتها الحرب الثورية. والقاعدة التي طالما راعاها هي: عدم قضاء الليل مطلقا في منزل أو مخبأ. كما كان شاعرا في المناسبات، فلطالما أنشد:

"عمري ما نرقد في كازمه .....ولا لعدو ياخذني كي فاطمه"

وأينما كان، ومهما يكن الطقس، فإن الحاج ينتظر الفجر دائما، شاخصا على ذروة.

2) أمر مطاع ، إذ أن السلطات الفرنسية، لم تعلم بموت مصطفى بن بولعيد، إلا بعد عدة شهور.

اجتماع تاغدّة

15 أفريل 1956. غادرت الوفود نارة والتحقت بتاغدّة، جبل يبلغ علوّه ألفًا وتسعمائة متر، يقع على بعد عشرة كيلومترات شرقا. كان القادة الحاضرون هم: عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى والطاهر النويشي وأحمد عزوي وحسين بن عبد السلام والحاج لخضر ومصطفى رعايلي ومحمد الشريف بن عكشة وعبد الحفيظ طورش وأحمد نواورة.

هم جميعا هنا ينظرون إلى بعضهم البعض، متوترين مترددين، مع إحساس غامض بالذنب، بالنسبة للبعض على الأقل، أن يظلوا أحياء وأن يفقدوا قائدا لا يعوّض. بِمَ ينبغي البدءُ، ما الذي ينبغي قوله، ما الذي ينبغي فعله؟ إنهم لم يعودوا سوى فأس بدون مقبض.

كان الجو الربيعي باردا. كانوا قد تسلقوا ببطء السفوح المغطاة بالأرز، والبلوط الأخضر ذي الثمار الناضجة، والرمان الفينيقي، والصفصاف الأبيض، والطقسوس الداكن بلون الحداد. لم يعد لأي شيء المذاقُ نفسه. انتظر الحاج لخضر أن يلتحق الجميع بأماكنهم، في البيت المستند مباشرة بجداره الخارجي إلى صخرة عظيمة. انتظر أن يتكلم أحدُهم، وبما أن أحدا لم يجرؤ، فقد أخذ على نفسه أن يفتتح الجلسة. وبعد "باسم الله الرحمن الرحيم!" أعلن: "الآن وقد غادرنا سي مصطفى – رحم الله الشهداء!– فإن علينا أن نثبت وفاءنا له. الأمر الأول: يلزمنا قائد في أقرب الآجال."

وعن سؤالي يجيب الحاج لخضر: "أجل، كان لديّ اسم. لم يكن لأحد من الحاضرين من البسطة، بحيث يواصل عمل سي مصطفى." نهض عمر بن بولعيد وغادر الجلسة. فناداه الحاج: "إلى أين تذهب يا سي عمر؟" ابق معنا." "سأعود، واصل يا سي الحاج بدوني."

كان ثمة شيء يطفو. فتوجه الحاج إلى بن عيسى، وفي حركة مسرحية لكن مليئة بالتواضع، انحنى أمامه ووضع يده على قدمه وقال: "أنا مستعد يا سي مسعود لتقبيل قدمك، إن كان هذا يسهل مصالحتك مع سي عجول." نهض بن عيسى الذي احمرّ وجهه فجأة: "أبدا! أتسمعني؟ أبدا!" كان صوته أجش من الغضب، وكانت عيناه تلمعان بسوء. فتدخّل مدور عزوي بدوره: "حُبًّا في الله يا سي مسعود! عاود الاتصال بسي عجول. سنضمن أن يتم كل شيء في كرامة!" ودون أن يجيب، غادر بن عيسى الاجتماع. لم يهتز الحاج لخضر. فاقترح أن يُنصَّبَ المجلسُ عجول على رأس الإدارة، ولو لزم الأمر أن يُصادَق على هذا التعيين لاحقا بانتخابات.

تلقى اقتراحَه صمتٌ جليدي. شعر بالحرج، وفقد أعصابه لأول مرة. قال لي: "كما لو كنتُ فجأة أمام أجانب، على شفا العداوة. فقلتُ لهم: ما دام اقتراحي لا يعجبكم، فأنا ذاهب للالتحاق بمنطقتي، وليفعل كل واحد ما بدا له. عندئذ دعا مدور عزوي مجددا بن عيسى، وطلب منه التصالح مع عجول. فكان الرفض من جديد. فانتحيتُ بمدور عزوي جانبا، وقلتُ له إن عناد بن عيسى سيء، لأنه لا يرى الثورة إلا من خلال حقده على عجول. وهذا، لا يحق له. فأجابني مدور بأن الخلاف بين عجول وبن عيسى، كان قد بدأ قبل الثورة بفترة، وأن سي مصطفى بن بولعيد نفسه قد فشل في حلّه. وطلب مني محاولة إقناع المسؤولين الآخرين، بينما يتكفل هو ببن عيسى."

تحادث الحاج لخضر مع الطاهر النويشي وأحمد عزوي وأحمد نواورة وعبد الحفيظ طورش. وطلب منهم التصرف كرجال مسؤولين وعاقلين، وقبول عجول كقائد للإدارة. "على الأقل فكّروا واعطوا رأيكم."

فتشاوروا لمدة طويلة، ثم أعلنوا اعتراضهم على تسمية عجول. وفي هذه اللحظة دخل عمر بن بولعيد ومصطفى رعايلي، ابن أخته. كان مدور عزوي هو من ناداهما. اقترح الحاج لخضر على عمر دفن الخلاف ومقابلة عجول، دون شروط مسبقة. فرفض. "أُفضّل تسليم نفسي للاستعمار!" فأعلن الحاج المصاب بالقرف: "إيميرا أسوسمغ! أوذ ارنيغ أكذ واوال!"[1] ثم تجاهلهم جميعا، مُلتفّا في مزاج سيء يعلوه بعض من الغرور، كما لو أنه غير معني في شيء. ومثلَ الأبكم، سمعهم يختصمون كالمساكين، على منصب القائد الأعلى، وخاصة عمر، الذي بعد أن زجر مناصريه، انتحى جانبا، وعَيْنُه عليهم. وفي الآخر، هدأت الأجواء، واتفقوا على تشكيل لجنة مديرة بدون رأس.

تضم هذه اللجنة اثني عشر عضوا بمن فيهم الحاج لخضر، عمر بن بولعيد ومدور وأحمد عزوي والطاهر النويشي ومصطفى رعايلي وأحمد نواورة وعمار بلعقون ومحمد الشريف بن عكشة وعبد الحفيظ طورش وحسين بن عبد السلام ومسعود بن عيسى.[2]

في المساء قررت اللجنة تحويل مركز قيادة الإدارة إلى وستيلي، جنوب شرقي باتنة. وباقتراح من الحاج لخضر، عُيِّن مدور عزوي أمينا عاما للإدارة. ويقتصر دوره حاليا، على إبلاغ القادة الآخرين لمناطق أريس وباتنة ، بتغيير عنوان الإدارة، واستدعائهم لاجتماع للاتصال والشرح.

---

1) "أنا الآن أسكُت. ولن أقول بعد هذا كلمة واحدة." مترجمة عن الأمازيغية.

2) يثير اختيار القائد دائما رد فعل مضاد للأجسام والجينات، داخل جيش التحرير الوطني في الأوراس، بقدر ما للشاوي من حساسية تجاه كل رغبة في الهيمنة عليه. وقد كان مصطفى بن بولعيد وعباس لغرور، من بين القادة الأوائل، الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. فقد قبل بهما المجاهدون وأحبوهما واحترموهما. وكان عجول مثار خشيتهم أكثر من حبهم. أما شيحاني الأجنبي عن الجهة، فقد اعتُبر على الأرجح أرفع من ذلك، أي كضيف شرف. وإذ أنه لا ينتمي إلى أي جناح، فقد كان رأسُ ماله من التعاطف ضعيفا، وحين انقلب عجول ضده، لم يهتم لشأنه أي مجاهد باستثناء بيشة.

لم يبق عمر بن بولعيد مكتوف اليدين. فالمجال الآن حُرّ أمامه، ليلعب على تحفظ التوابة والبوسليمانية، وضرب نسيج عنكبوت حقيقي حول عجول. فاستصرخ عباس كما ينبغي: "إذا لم تعد الأسلحة تأتي من النمامشة ومن الحدود التونسية، فإنما ذلك بخطئهم! فلطالما كانوا مناوئين للأوراس." وظل يكرر دون ملل، بأن عجول المتعطش للسلطة، قد قتل مصطفى كما قتل شيحاني. [1]

من جهته، لم يبق مسعود بن عيسى جامدا. فقد باشر عمل زعزعة مكثَّفا ومدمِّرا، إلى أن اقتنع المجاهدون بعد ذلك بفترة وجيزة، بأن عجول يُجسِّدُ مصدر جميع مصائبهم.

عمر بن بولعيد قائدا للإدارة

ما نزال في سنة 1956، في أواخر شهر ماي. انتقل علي بن شايبة الذي عالجه بنو فرح كما ينبغي طيلة شهر، إلى كيمل عند عجول رفقة الشيخ مسعود بلعقون. وقد قال لي: " بقيتُ عند سي عجول حتى منتصف ماي 56 تقريبا. وقد واصلتُ علاجي في مستشفى جيش التحرير الوطني بكيمل. لم أعد أرى أو أسمع كذي قبل، ولكنني نجوتُ. لم يتوقف سي عجول وسي عباس عن المطالبة بمنصبيهما، كمساعد أول وثان لقائد الإدارة. وقد حرر كلاهما توكيلا موثقا، سلماه إلى سي مسعود بلعقون، ليتحدث باسمهما في أي اجتماع مقبل." [2]

---

1) بعد سنوات عديدة من استقلال الجزائر، حدث لي أن التقيتُ مقاومين قدامى، أكدوا لي بإصرار بأن عجول نفسه، هو من جمّع الجهاز المفخخ بمساعدة فارّين ألمان !

2) تولى قيادة إدارة أوراس– النمامشة مصطفى بن بولعيد من أول نوفمبر 1954 إلى 23 جانفي 1955، ثم من 13 نوفمبر 1955 إلى 23 مارس 1956 أي إجمالي سبعة أشهر. وخلفه شيحاني في آخر جانفي 1955، محتفظا بعجول وعباس كنائبين حتى أكتوبر 1955 (ينبغي اعتبار تعيين عمر في منصب القيادة العامة مهزلة) ثم لفترة شهر تقريبا، خلف عجول شيحاني حتى عودة مصطفى. وعند موت هذا الأخير، اعتبر عجول وعباس نفسيهما وريثيْه الحقيقيين. ولكن ربما وجب النزول إلى الحلبة لإثبات الحق. غير أنهما لم يفعلا شيئا !

في الفترة نفسها، كان عمر بن بولعيد الموجود دائما في وستيلي، في القطاع الذي يقوده حميدة بن معاش، يعالج حفنة من المسؤولين، من بينهم علي مشيش والحاج لخضر والطاهر النويشي وعمار معاش ومحمد الشريف بن عكشة ومحمد بن مسعود ومسعود بن عيسى. وأبلغهم بوضوح، عزمَه الأكيد على الحلول محل أخيه مصطفى. فوعدوه بالولاء دون عناء. باستثناء الحاج لخضر الذي رفض الانصياع لتسلطه، وانسحب إلى سقاف، في غابة الأرز الفواح، بعد أن ندد علنا بالمتعطشين للسلطة – حبّ الرياسة – وهو ما لم يزعج عمر كثيرا.

التقى علي بن شايبة ومسعود بلعقون في غابة "سقاف"، الحاج لخضر الذي كان مستاءً جدا؛ فقال لهما: "إنهم جميعا متفقون على أن يكون عمر قائدَهم. لن ينال صوتي أبدا!" وبعد بضع ساعات، وبدافع المصالحة غيّر موقفه، وقال نعم لعمر.

فطمأنه هذا الأخير: " لا تقلق يا حاج، فسأحترم تعليمات أخي حتى النهاية." وبعد ذلك بقليل، أثناء الاجتماع نفسه، رفض إعطاء الكلمة لمسعود بلعقون، الذي كان يريد الحديث باسم عجول وعباس: "لا أعترف بأية وكالة. إن كان أحدهم يريد قول شيء، فليأتِ إلى هنا شخصيا وليتكلم !" احتج الشيخ بلعقون، ولكن دون نتيجة. وبدا كأن كلامه يوقظ إحساسا دفينا بالعداء. وهو ما أكده الحاج لخضر لعلي بن شايبة، حينما لقيه في مخبأ سقاف : "إنهم مؤلّبون ضدك. إنهم يريدون سماعك في اجتماعهم. إنهم يريدون معرفة موقفك منهم". (1)

---

1) بعد رحيل مصطفى بن بولعيد، يلاحظ تفكك عصابة الأربعة: عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى ومدور عزوي ومسعود بلعقون. نتذكّر أن مدور عزوي كان قد ساند مبادرة الحاج لخضر، لتعيين عجول على رأس الإدارة. (ما يبيّن بالمناسبة قلة ثقته في قدرة تسيير عمر، الذي ساند بعد ذلك توليته لانعدام البديل) أما مسعود بلعقون، فقد أصبح الناطق المعتمد باسم عباس وعجول. وتمادى عمر وبن عيسى وحيدين في حقدهما المدمّر.

وأذعن علي بن شايبة. فذهب إلى الاجتماع. فطلبوا منه شرح صِلته بعجول: "لطالما ظنوا أنني وفيٌّ لعجول – يقول لي – حتى سي مصطفى نفسه". وأعلن لي علي مشيش، أن عجول وعباس قد قتلا شيحاني، وأن عمر هو قائد الإدارة الآن، وأن عليه التوجه إلى بلاد القبائل، كقائد يعترف به الجميع بصفته تلك، وهو كفيل شرعا بتمثيل الأوراس والنمامشة، ومناقشة مشكلات الثورة مع رفاقه".

لعل عودة أخرى إلى الوراء تكون مفيدة. نتذكّر أن مصطفى بن بولعيد كان، بعد تجمع تجّين، قد أبلغ عجول عن رغبته في التوجه إلى الشمال القسنطيني وبلاد القبائل، لنشر العمل الثوري في هاتين الجهتين وتنسيقه. وكان عجول قد ثناه عن ذلك. وقد فوّض مصطفى الذي فاتته الاستحقاقات، محمد لعموري، وهو مسؤول محنّك من منطقة سطيف.

وقد دامت رحلة العموري أكثر مما كان متوقعا، ولم يعد إلى الأوراس إلا بعد موت مصطفى بشهرين، يرافقه أربعة أعوان اتصال قبائل، حاملا لرسالة دعوة موجهة إلى مصطفى.

ولنعد إلى رواية بن شايبة : "أكد لي مشيش، أنه كان على عمر أن يَرُدَّ بالإيجاب، على الدعوة الموجهة إلى أخيه. فأجبتُه: "ليس لنا أن نقرر. فإن كان ثمة مؤتمر، فهو وحده المحكّم في تعيين عمر." فوصفني مشيش عندئذ بالمريض، مضيفا أن عمر سيتوجه بمفرده إلى بلاد القبائل، وأنه لدى عودته، سينظم الإدارة كما يحلو له. كما قال لي أيضا: "أنت ومسعود بلعقون، لا تتحركا من هنا. سنحبسكما في مستشفى جيش التحرير الوطني بعين التوتة."

وكذلك كان الأمر. فقد وضعونا قيد الإقامة الجبرية داخل المستشفى، حيث كانت إقامتنا طيبة. ولم يكن ينقصنا شيء، سوى

الحرية! وقد طلبتُ من مسعود بلعقون، منذ الليلة الأولى أن يُتلِف الوثائق المورِّطة الموجودة في كيسيْنا. منها على وجه الخصوص، رسالة من عجول موجهة إلى الطاهر النويشي، يشتُم فيها عمر ويصف بن عيسى بالكلب، إضافة إلى الوكالتين اللتين وقّعهما عجول وعباس. وقد أنقذنا حدسي: ففي منتصف اليوم الثاني من إقامتنا القسرية في المستشفى، أعطى بن عيسى أمرا لسعيد عوفي باسترجاع كيسَيْنا. وقد فتشوهما وأعادوهما إلينا في الصباح الموالي!"

شهر جوان 1956. للمرة الثانية إذن، يُنصّب عمر قائدا للإدارة. فوعد بتنظيم نواحي الأوراس حسب الأصول الثورية، كما رسمها أخوه مصطفى. "ليس ثمة أي تغيير – يقول مُلِحًّا – سيتم احترام البرنامج الذي رسمه مصطفى. وقبل ذلك، ينبغي أن أتوجه إلى بلاد القبائل."

وهو ما فعله في شهر جوان هذا. وقد أهدى المسؤولين هناك ميداليات "من طرف أخيه مصطفى الذي تعذر عليه الحضور". وأعلن لهم أنه قائد الأوراس والنمامشة، وأن نائبيه هما عجول وعباس لغرور. وكان القبائل يجهلون ما يحدث في الأوراس، فلم يبدوا أي تعليق.

عند عودته إلى وستيلي في جويلية من السنة نفسها، تلقى عمر دعوة ثانية إلى زيارة بلاد القبائل. وكذلك عجول (وعلى الأرجح عباس لغرور أيضا، دون أن يتم التأكد يقينا من ذلك).

وتوجه عمر للمرة الثانية، نحو بلاد القبائل، برفقة بعض المسؤولين والحرس. وبصورة مُتعمَّدة تماما، حسب شهادة إبراهيم كابويا، تدبّر أموره، بحيث لا يحضر مؤتمر الصومام، بعد أن أخّره دون سبب.

عميروش في الأوراس

نحن في منتصف سبتمبر 1956، بعد مؤتمر الصومام ببضعة أيام. باشر عميروش تفتيش الأوراس. كان يرافقه فصيل مسلح صغير. استقبله عند جبل المعاضيد، جنوب برج بوعريريج، الطاهر النويشي والحاج لخضر وعمر بن بولعيد وعلي مشيش ومحمد العموري وإبراهيم كابويا.

قال إنه مفوض من لجنة التنسيق والتنفيذ، لشرح توصيات المؤتمر وتطبيقها. وطرح في الطريق نحو كيمل، العديد من الأسئلة؛ عن موت مصطفى بن بولعيد، وتنظيم النواحي، واستخدام الرتب، والعلاقات مع السكان.

وتحدث هو نفسه عن لجنة التنسيق والتنفيذ: "هي الهيئة المسيرة للثورة. ويتوفر على الكثير من المال. وما عليكم إلا طلبه وأنا كفيل بالحصول عليه لكم."

واجتازوا جبال الحضنة من الغرب إلى الشرق، وتوقفوا ليلة بأولاد تبان، وقطعوا عبر جبل بوطالب، ودخلوا بلّزمة في أمان تام. فقد كان الحاج لخضر ساهرا على الأمن.

كانت المناقشات تجري عادة في الصباح بين العاشرة والحادية عشرة، عند استبعاد كل خطر. وقد لاحظ الحاج لخضر أثناء فترات الاستراحة، حيث يكون التفرق إجباريا، أن عميروش يحادث في الغالب الطاهر النويشي على انفراد. ولم تعجبه هذه الاجتماعات المضيّقة، ولكنه لم يقل شيئا.

وخلال أحد الاجتماعات، الرابع والخامس، سأل عميروش إن كانت مناطق الأوراس مستقلة ذاتيا. وقال: " لقد أذنت لي لجنة التنسيق

والتنفيذ بإنشاء مناطق، حيث تكون ضرورية. وقد طُلِب مني أيضا تطبيق نظام الرتب المصادق عليه في المؤتمر. أقترح عليكم الآتي: أوّلا إنشاء منطقة في أريس وأخرى في باتنة [1]، ثم إن سي الطاهر النويشي قد عُيِّن نقيبا قائدا للمنطقة الثانية (أريس)، وسي الحاج لخضر هو الآخر عُيِّن نقيبا قائدا وسيتولى قيادة المنطقة الأولى (باتنة)."

كان رد فعل الحاج لخضر سريعا وعنيفا: "أرفُضُ رتبتَك وتعييناك! بأي حق جئتَ تفرض علينا قراراتك؟" فأجاب عميروش بأنه يطبق تعليمات لجنة التنسيق والتنفيذ فقط. وهدّأ العموري ومشيش من روع الحاج لخضر. إنهما يخشيان طبعه الحاد والصريح. ففاجأهما بقبول شروحيهما بشأن لجنة التنسيق والتنفيذ، ولكنه أصرّ على رفض الرتبة والتعيين.

ولم يصرّ عميروش. وعيّن أحمد نواورة نقيبا، وعلي مشيش وإبراهيم كابويا ملازمين أولين.

وأمام تعنُّت الحاج لخضر، عيّن العموري بدلا منه كقائد للمنطقة الأولى. وهو ما لا يزعج في شيء الحاج لخضر، الذي يجسد نموذج المقاوم الصلب الحقيقي.

وتواصلت الرحلة دون أي حادث. وقد روى لي الحاج لخضر بعد ذلك بزمن: " لقد تفطن عميروش، الذي لا يضع عينيه ولا أذنيه في جيبه، سريعا إلى التنافس القائم بين مضيفيه. فقد رسم له النويشي لوحة سوداء عن الوضع في الأوراس. وقد حذره صراحة من عجول

---

1) نتذكّر أن مصطفى كان قبل موته قد قسّم ناحية أريس إلى قسمين: منطقة أولى في باتنة ومنطقة ثانية في أريس.

الذي "لو أتيحت له الفرصة ، لن يتردد في قتله". وعلى النقيض من ذلك، فقد سعى جاهدا لتقريب عميروش من عمر بن بولعيد، ولكن دون نتيجة. "لماذا؟" "لأن عمر قد ظل مُصِرًا على موقفه الرافض للمصادقة على قرارات المؤتمر– ربما بسبب رفض لجنة التنسيق والتنفيذ، لمزاعمه بأنه قائد الأوراس؟ من يدري؟"

منتصف أكتوبر 1956. يستريح عجول في البرج العائلي بدرمون جنوب شرق الأوراس. يحاذي البرج المشيّد على مقربة من وادي درمون، بستان نخيل صغير. وهو وعر المنفذ ومحميّ بسلسلة منحدرات مدوّخة، داخل موقع أجرد ومقفر، يجتاز معقل السراحنة، حتى قرية زريبة الوادي في أقصى الجنوب. خلال العامين المنصرمين، وهي الفترة البطولية التي تفرّغ فيها كليا لتعزيز الثورة، لم تسنح لعجول إلا نادرا فرصة زيارة أهله. إن لديه الآن في هذا الظرف المضطرب، كامل الوقت لإغراق همومه في مرفأ الأسرة، يحيط به والده ووالدته وزوجته وابنه الذي بلغ 14 سنة وهو من زواج أول، وبناته وبنات عمه.

لم يتنقل عجول كثيرا منذ موت شيحاني في 23 أكتوبر 1955. ففي ديسمبر 1955، ذهب فقط إلى أعالي الناس لمقابلة مجموعة محاربين يوسفيين [1] دعاهم عباس لغرور، فسلمهم أربعين مليون سنتيم وستين سلاحا آليا، لتنشيط الجبهة المضادة لبورقيبة. [2] وقابل في حدود شهر أفريل 1956 عباس، للمرة ثانية، في العامرة جنوب شرقي تافاسور.

---

1) تفسر المساعدة المقدمة لصالح بن يوسف، الحفيظة ورغبة الانتقام لدى بورقيبة بعد ذلك، إزاء العديد من ضباط جيش التحرير الوطني.

2) كان صالح بن يوسف، المعارض التونسي، ضد الاتفاقات الموقعة بين بورقيبة والحكومة الفرنسية التي منحت الحكم الذاتي لتونس.

خلال النصف الثاني من شهر جوان 1956، انتقل عباس إلى كيمل؛ وكريمًا كعادته، فقد سلم إلى عجول بغلا يرزأ تحت أثقال ذخائر متنوعة. واغتنم فرصة إقامته، لزيارة الملازم الأول لويس. فذُهِل للوسخ الذي كان عليه الأسير، فأمر بمرافقته إلى حمّام شبّورة، حتى يتمكن من انتزاع قمله والاستحمام.

واختار الفرنسيون هذا التوقيت لتنفيذ عملية. وكشفت طائرة – مثلما هو الشأن دائما – مقاومين. وراح مظليون يقفزون من المروحيات على الروابي. وفتح عباس المسلح ببندقية رشاشة 30، وبيشة ببندقية رشاشة "بران" النار عليهم. فتعالت المروحيات. وأمر عباس، الذي لم يكن يريد المخاطرة، الممرضَ بالنزول إلى قعر الوادي، فأطاع هذا الأخير، تاركا جريحا مشلولا داخل المخبأ.

ثم أعطي الأمر للمقاومين بتسلق الروابي، وهم يطلقون النار لجلب العدو. وما إن بلغوا القمم، حتى أسرعوا بالنزول على الجانب الآخر، باتجاه بودر شمال درمون، وهو مكان يعج بالمغارات والصخور. وأثناء هذا التحرك، لقي الملازم الأول لويس حتفه.

مضى الليل دون حادث يذكر في مخابئ بودر. وفي الصباح، أخبر أحد الاتصالات عجول، أن الفرنسيين اكتشفوا الجريح المشلول واغتالوه.

في اليوم الموالي، اشتباك ثان. هذه المرة في رسكيل، شمال شرق تجين. أطلق الفرنسيون قذائف هاون، دون نتيجة، لأن المقاومين كانوا يختبؤون في المغارات.

ويعود جيش التحرير الوطني إلى بودر. طلب عباس الغاضب أن تُعدّ له وجبة ساخنة. فرفض عجول، بسبب الدخان، فاكتفى عباس بقطعة فطير. عجول الذي كان يؤمن كثيرا بالجبرية والقدَر، يحدث نفسه: "سيقصفوننا مرة أخرى!" كان يريد أن يطلب من عباس، أن يتحركوا،

لكنه خشي من ردة فعله، وقد أخطأ؛ لأن هذا الأخير الذي كان يكابر في البداية، قد قبل بالتحرك نحو عيدل جنوب تجين.

أثناء التنقل حامت طائرة فوقهم. ولوّح لهم قائد الطائرة بإشارات كبيرة من يده. ففتح المقاومون النار دون أن يصيبوه. وأفلح اتصال في عبور خطوط العدو، وأتاهم برسالة من "ڤايد" ولجة: الفرنسيون على وشك الهجوم بالفعل، من أعلى قمة تل آخر". ولاحظ عجول تركيزا كبيرا للقوات العدوة جنوب خنقة سيدي ناجي.

فاختار الانسحاب، وقسم الرجال المائتين والخمسين، إلى أفواج من اثني عشر رجلا، وأرسلهم نحو أعالي الناس حيث وصلوا سالمين. ولم يبق طيران العدو عاطلا، فقد أصيب مجاهد بقذيفة في ركبته. كان بيشة بقربه، فنزع قميصه، ولفّ به الركبة الجريحة، ولكن الدم كان ينزف بغزارة. ففزع بيشة. وبكلتا يديه شدّ على تجويف الركبة، فقال له الجريح: توقف يا بوسنة، ستتسخ بدون داع، لقد كنتُ سعيدا بالتعرف إليك." وأخذه بيشة بين ذراعيه، ومدّده باتّجاه الشرق وبقي عنده حتى موته.

دق تاريخ 23 مارس 1956 المشؤوم أجراس حزن الأوراس والنمامشة. لم يعد عجول وعباس يلتقيان إلا نادرا. لقد تلقى كلاهما استدعاء لحضور مؤتمر الصومام، فلم يحضراه؛ وهما من مقاومي الساعات الأولى. هذان اللذان نجحا في عماد النار، وقادا الخطوات الأولى للثورة في ظروف غير إنسانية، كانا سيقترحان عديد الأفكار.

يشعر عجول بخيبة عميقة. وقد سعى جهده لأخذ السلطة، فانفجرت السلطة بين يديه، مثل فقاعة صابون. كل شيء يذوب من حوله. هو يَسمع ويُؤتى بالأخبار الأكثر جنونا بشأنه، ينشرها عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى. لقد أوقف رجالٌ من أولاد يعقوب، رجالاً من ذويه

السراحنة، ثم أطلقوا سراحهم بعد أن قالوا لهم : "لا تثقوا بعد الآن في عجول! إنه طموح، سفاح."

يعتقد التوابة، وبنو وجانة، والبوسليمانية، والبراجة، والغواسير، وبني ملول، وأولاد عبد الرحمن، وجميع الآخرين أنه صاحب مشاكل. والآن ينبغي أن يضاف إليهم قسم من السراحنة، عشيرته نفسها، والشُّرفة، حلفائها التقليديين.

إن أغلبية العشائر ضده. ألا يقال إن يد الله مع الجماعة؟

أيام فقط تفصلنا عن الذكرى الثانية للثورة؛ والتشاؤم هو السائد. لكن بصيصا من الأمل يتراءى أخيرا لعجول: لقد أخبره اتصال، بأن الحاج لخضر والطاهر النويشي وشخصا يُدعى عميروش، يطلبون منه الالتحاق به في كيمل. فسارع إلى إرسال دورية إليهم لسبر نواياهم. "في الليلة الموالية، وصلني جوابهم". يقول لي، في يوم ماطر جدا، في مطعم شعبي بوسط باتنة، بينما يصيح النادل عاليا بقائمة الطعام. "أرسل لي الحاج لخضر يقول، إنه يضمن أمني، وأن الاجتماع لا يهدف إلا إلى إعادة تنظيم النواحي، وتوزيع جديد للمهام. وبفضل اتصالاتي، علمتُ بأن عمر وبن عيسى قد نزلا من الشلية بنحو مائة رجل، وبأنهم أقاموا مقرهم بالمسارة، شمال سيدي علي بخمس كيلومترات. فنصبتُ تحسبا، عشرة رجال في جنيّن، وتنقلت إلى "بوشة النجم"، أسفل سيدي علي، بمجموعة حرس تتألف من ثلاثة مجاهدين.

وهناك في وسط الغابة، التقيت الحاج لخضر والنويشي وعميروش ومشيش والعموري. [1]

1) لم يذكر عجول أنه عيّن مجموعة أخرى، شرق سيدي علي، تحت قيادة سيدي حني المعروف ببشير الورتاني وهو من الشرفة، الحلفاء التقليديين للسراحنة.

خص عجول ضيوفه، كرجل يحترم التقاليد، باستقبال حار (انتحى به الحاج لخضر والنويشي جانبا قبل الاجتماع، وأوصياه أن يكون لبقًا إزاء عميروش)، وقُدِّمت القهوة والبسكويت الجاف، ورقائق الفطير والتمر بوفرة.

وتناول عجول الكلمة: "أرحب بزوارنا الكرام. أما عني، فإن قبلتُ المجيء، فلأنّ بينكم الحاج لخضر، الذي يحظى بثقتي التامة."

استنطاق عجول

قدم عميروش نفسه: "أنا مفوّض من لجنة التنسيق والتنفيذ". وشرح أنها الهيئة المسيرة للثورة، ناشئة عن مؤتمر الصومام. "هي ذي نسخ لوائح المؤتمر." أخذ عجول الأوراق، وألقى عليها نظرة. "إنها مكتوبة بالفرنسية. هذه ليست لغتي. ألا توجد نسخ بالعربية؟" "لا مشكلة! سنترجمها لك. كما أن عليّ إبلاغك من جهة أخرى، أن بلقاسم كريم، عضو لجنة التنسيق والتنفيذ، يرغب في لقائك."

"أنا أقبل ذلك، شرط أن أسلّم جواز مرور." (1)

"سنجلبه لك".

عُقِد الاجتماع في مخبأ الحاج لخضر. وقد حضره فضلا عن هذا الأخير، النويشي وعميروش ومشيش وعجول، الذي انقاد بلطف للعبة الأسئلة والأجوبة. وبدأ عميروش:

"في البداية، نودّ أن توضح لنا ظروف استشهاد سي مصطفى بن بولعيد."

---

1) بعد موت أخيه بثلاثة أشهر، توجه عمر بن بولعيد إلى بلاد القبائل، حيث التقى بكريم بلقاسم ومسؤولين محليين اخرين، واهداهم أوسمة زاعما بأن مصطفى بعث بها إليهم.

– عجول : "لم أعلم بموته إلا بعد شهرين، أي في نهاية شهر ماي 1956. وهو التاريخ الذي اتصل بي فيه، علي بن شايبة ومصطفى بوستة. هذان الرجلان أصيبا بجراح بليغة، إثر القنبلة التي قتلت سي مصطفى. وقد حُبسا في السرية التامة دون علاج (3). ولم أبدأ التحقيق إلا بعد أن حادثتُهما. وقد لقيتُ وسمعتُ المقاوم الذي التقط الطرد المفخخ، الذي كان عالقا بمظلة (حتى أن زوجته سارعت إلى خياطة فستان من قماش هذه المظلة نفسها)، وقد أخبرني هذا المقاوم، أنه سلم الطرد إلى علي بعزي مسؤول الناحية.

– وسأل عميروش : "أمِن الطبيعي أن يبقى المرء دون خبر عن مسؤوله المباشر طيلة شهرين؟"

– عجول : "هذا يتوقف على وجهة النظر. فقبل مغادرة كيمل، كان قد طلب مني انتظاره. وتحدث عن رحلة كان يعتزم القيام بها إلى بلاد القبائل (وقد أفلحتُ في ثنيه عنها، مؤكدا له أن الوضع في الأوراس يستحق اهتمامه الكامل). لقد أطعتُ أمره ولم أتحرك من منطقة كيمل.

كان عجول دائم الافتخار بأنه نتاج التنظيم الخالص؛ فطاعةُ الأوامر لديه، لازمةٌ تتكرر غالبا في خطابه.

– "سي عجول، ما هي أسباب تغيُّبِك عن مؤتمر الصومام؟"

– "لقد تلقيتُ دعوة فعلا. وقد أرسلتُ على الأقل اتصالين، طالبا تحديد المكان والتاريخ. وما زلتُ أنتظر الجواب."

– "لقد حضر سي عمر بن بولعيد بالفعل."

– ليس لي أي صلة مع سي عمر."

– "لماذا؟"

---

1) بالعكس، لقد عولج بن شايبة وبن عيسى من طرف آل بن فرح بصفة جديدة.

– "قضية نظام. ليس ثمة شيء شخصي: فقد اختار التمرد على السلطة الشرعية. وهو حر في تحمل هذه المسؤولية."

– "أية سلطة شرعية؟"

– "نحن الاثنان نمثلها، سي عباس لغرور وأنا."

– "ألم تُعِدْ تسليم السلطة إلى سي مصطفى، بعد فراره من سجن قسنطينة؟"

– "بلى"

– "أكان سي عباس لغرور حاضرا؟"

– "كلا. فقد كان في النمامشة، جريحا، ولكنه كان متفقا معي."

يحمل عميروش محمل الجد دوره كمحقق. ويعود، فيسأل: "أين هو الآن؟ أيمكننا رؤيته؟" فيجيب عجول: "أجل، يمكنني أن أقودكم إليه."

منطقة النمامشة غير آمنة في هذه الفترة المضطربة. وعباس المحارب المتنقل، لا يملك مركزا ثابتا. وهو لا يرضى بالاستراحة في مقر قيادته في أعالي الناس، إلا حين يكون جريحا.

في المساء نفسه وجهة الجنوب الشرقي، سلك عجول بفوجه من جانب، والحاج لخضر والنويشي وعميروش ومشيش، بنحو خمسين مجاهدا من الجانب الآخر.

واجتازوا غابة بني ملول الكثيفة جدا، حيث يمكن لكتائب كاملة من الجنود، التنقل نهارا دون خشية كشفها. ومروا على وادي العرب ودخلوا النمامشة. وقد دامت الرحلة يومين وليلتين. وتوقف عجول رافضا الذهاب حتى القلعة، بينما واصل الآخرون والتقوا لخضر وصيفي، قائد منطقة أعالي الناس، الذي أعلن لهم أن عباس قد ذهب إلى اتجاه مجهول، لفترة غير محدودة.

فعادوا أدراجهم. وعلى بعد بضعة كيلومترات من هنشير علي بن عثمان، في منطقة جرداء عارية، حلقت فوقهم نحوُ ستّ مروحيات. فأمر الحاج لخضر بالتفرق في قاع وادي فروج: "اختبئوا في المغارات!" وراقب بعين قلقة المروحيات، التي عجلت نحو جلاّل باتجاه الغرب. اختبأ النويشي وعميروش في إحدى المغارات مع رجالهم، ثم لسبب غير معلوم، "رأيتُ عميروش يخرج من المغارة بخطى سريعة، متبوعا بنحو خمسة عشر مجاهدا، فصحتُ: – انبطحوا جميعا! فتوقف عميروش وانبطح أرضا. كنت أخشى، يواصل الحاج لخضر، أن ينزل مظلّيون أمامنا، فأرسلتُ دورية من ثمانية رجال لفتح الطريق، وطلبت منهم الاشتباك مع العدو. في النهاية، لم يحدث شيء حتى الليل، فعدنا إلى سيدي علي، حيث استضافنا عجول مرة أخرى.

لم يكن الحاج لخضر والآخرون، يعلمون أن أحد أوفياء عجول الآخرين وهو عثمان كعابشي، كان قد جمّع على بعد ثلاثة كيلومترات من هناك، كتيبة من سبعين جنديا في ذراع شكريد، للدفاع عن عجول عند اقتضاء الحاجة. فخطب في رجاله: "إن سي عجول يجتاز مرحلة صعبة. وعلينا مساعدته. ينبغي ألا يضحك منا أعداؤنا!"

عندما دعا اتصال عميروش، وهو الحاج لخضر، إلى الحضور أمام ما يمكن تسميته بقضاته، أخذه كعابشي جانبا وقال له: "لا تذهب يا سي عجول ! إنه فخ. إنهم يريدون قتلك."

فكر عجول برهة، ثم أجابه: "كلا، سأذهب إلى هناك وأحاول التفاهم معهم. فإن كانوا يريدون السلطة، تركتها لهم. وسأعود بعد ذلك إلى هنا وسنشكل اتحادا بدونهم."

كمش بيشة جودي فمه في تكشيرة ارتياب. لقد كان خائفا. وكان عجول قد أكد له أن لديه خطة للخروج من الأزمة، ولكنه لم يصدقه. إنه

لم يعد يصدق شيئا. فلم يعد يهمه سوى أمنه الخاص. ثمّ ذهب ليختبئ في غابة تاداغت.

في اليوم الموالي، وقبل استئناف سماع عجول، أدلى عميروش بتصريح أولي: "إن تطاعن المجاهدين لأمر بغيض؛ أمر غير مقبول. يجب أن تُحَل جميع النزاعات الراهنة، حتى ولو كان علينا مواجهة عجول ببن عيسى".

كنا في فصل الخريف وكان الليل باردا. فأوقِدت نار كبيرة في المنزل المخصص للحاج لخضر. كان جميع المجاهدين على أهبة الاستعداد رغم الهدوء البادي عليهم بالخارج. نصب الحاج لخضر، الذي قد أصيب بعدوى رعب النويشي، حرسا مقربا من حول عميروش في سرية تامة.

يمكن أن يبدأ الاستنطاق الآن. فيبدأ الحاج لخضر بخشونته المعهودة:

– "لأي سبب لم تعترف بسي مصطفى لدى خروجه من السجن؟"

– فأجابه عجول الهادئ جدا: "هذا صحيح. فأنا لم أؤمن ببراءة سي مصطفى غداة فراره. وفي ذلك، لم أعدُ تطبيق تعليمات التنظيم نفسه: فكل مقاوم خارج من سجون العدو، يوضع قيد العزلة لفترة لا تقل عن أربعة أشهر. ولم أقِم لذلك اعتبارا، إذ أنني تصرفتُ، بحيث استعاد سي مصطفى قيادته، في آجال أقصر بكثير."

– "ألاحظتَ تغيُّرا في سلوكه؟"

– "كلا. أيكون قد تغير؟ إن كل شيء ممكن في زمن الحرب."

– "فلنتحدث عن "القياد". أتعرف بعضا منهم؟"

– "أجل"

– "أثمة "قايد"على صلة مباشرة بك؟"

– "كلا. ثم ليس على صلة بي، بل بالتنظيم."

يجهل عجول أن الحاج لخضر والآخرين، يرتابون في أن يكون هو قاتل مصطفى، وأن يكون قد تلقى الجهاز المفخخ بواسطة "القايد" المذكور.

– "فيم تمثّلتْ مساعدة هؤلاء "القيّاد" للثورة؟"

– "أوه، لقد أعطونا أسلحة وذخائر وأزياء عسكرية، ومعلومات عن العدو."

– "أية أسلحة؟"

– "بنادق صيد، بندقية موسكتون."

وساد صمت، ثم: "أُعلِمُك وفق أوامر التنظيم، بأنك منقول." أمعن النويشي ومشيش وعميروش النظر في وجه عجول الذي أجاب: "أنا أطيع أوامر النظام. بشرط واحد: ألا أكون مُجبَرا على العمل بجانب عمر بن بولعيد أو مسعود بن عيسى."

كان مقررا، حسب الخطة التي رسمها النويشي ومشيش وعميروش، تعويض عجول بشخص يدعى محمد بوعزة، أحد الوزانية من يبّوس.[1]

قبل آخر الليل، غادر عجول سيدي علي، وذهب للالتحاق بفوجه المتمركز على رابية في جنيّن، على بعد نحو ثلاثة كيلومترات إلى الغرب.

ونظم في اليوم الموالي، "ضيفة"[2] عملاقة على شرف قضاته – الضيوف، حيث استمتع المدنيون والمجاهدون.

دامت جلسة الاستماع إلى عجول ثلاثة أيام. كان واثقا. وكان يؤمن بسعود نجمه. هو يعرف أن بإمكانه، الوثوق في إخلاص رجال عشيرته

1) أعلن لي مصطفى بوستة أن محمد بوعزة قد اعترف بأن عميروش قد غلّطه.

2 الضيفة: حفل استقبال، مأدبة.

السراحنة، وحلفائهم التقليديين الشُّرفة. ثم إنه فوق إقليمه، ويا له من إقليم! معبر حتمي حقيقي بين تامزة في الشمال، وأريس ومشونش في الغرب، وزريبة الوادي والصحراء إلى الجنوب، وأعالي الناس والنمامشة إلى الشرق. ثم إنه متعود على المناورات السياسية؛ فهو يمارسها منذ سنوات طويلة. وهو واثق من أنه سينجح، ببلاغته وقوة حجته، في إقناع مفوض لجنة التنسيق والتنفيذ بحسن نيته. وإلا، فهو مستعد للتخلي عن كل شيء، والبقاء بمنطقة كيمل مع رجاله.

قال لي عجول بعد سنوات عديدة من ذلك: "بِمَ كانوا يتهمونني؟ بأقاويل بعض الرجال؟ من أشاع بأنني قتلت شيحاني ومصطفى؟ فالأول، قد حوكم وأُدين وأُعدِم وفق قانون التنظيم، ومات الثاني، وهو يحاول استعمال جهاز مفخخ، فكان ضحية قلة حذره."

كان لديّ انطباع خفيف كرفّة جناح فراشة، بأنه كان يُكِنّ بعض الضغينة تجاه شيحاني وبالأخص تجاه مصطفى، المسؤولَيْن، حسب نظره، في إخفاق الأوراس.

"أُبعِد عباس عن الأوراس، وكان عمر وبن عيسى يدوران كذئبيْن حول أريس، ويسدّان طرق الاتصال ويدعوان إلى الشقاق، وأنا معزول في كيمل، يوشك أن ينفيني أجنبي، وقع تحت تأثير أعدائي وأعداء المنطقة."

وأسأله: " سي عجول، لماذا لم تردّ، أقصد عسكريا؟" "لأنني لم أكن أريد أن أتسبب في حرب بين الإخوة. فقد كان لديّ ما يكفي من المجاهدين والسلاح، لمحوهم من على وجه الأرض."[1]

---

1) هذا ليس برأي الحاج لخضر الذي راح يعد أمامي : كان لمسعود بن عيسى 120 رجلا ولعمر 40، وللحاج لخضر 30، ولنويشي 30، ولنواورة 15. أي مجموع 235 مقاتلا مقابل نحو 100 مقابل من السراحنة والشرفة في معسكر عجول.

خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها جلسة الاستماع، لم يبتعد عجول قطّ عن الاستقامة المثالية. فقد عامل موفد لجنة التنسيق والتنفيذ كضيف شرف، وأقام على شرفه مأدبة، كما رأينا ذلك. ولكنه كان حَذِرا رغم كل شيء، خاصة من الطاهر النويشي الذي يعرفه منذ 1950. ولم يكن يقضي الليل قطّ، توخيا للحذر، خارج فوجه المتمركز على بضعة كيلومترات إلى الغرب.

في مساء اليوم الرابع، وتحديدا في 19 أكتوبر 1956، يُلِحّ عميروش شخصيا: "ستقضي هذه الليلة معنا يا سي عجول! وسنوضح الأمور." [1]

فأجابه عجول: "أنا موافق، ولِم لا أفعل؟ فالحاج لخضر هو تأميني على الحياة."

محاولة اغتيال عجول

هدأ الجو بصورة جلية. فالمناقشات، والوجبات المشتركة، والرحلة حتى أعالي الناس، واستقامة السلوك والحديث، كل ذلك ساهم في تلطيف الطباع.

وقت الأصيل. في مخبأ الحاج لخضر، تتقد نار كبيرة تَحلّق حولها الحاج لخضر ويوسف لعلاوي وحيحي المكي وعجول وإبراهيم كابويا. كان حيحي يروي قصة هروبه من محتشد الجرف. وكان مستمعوه الفضوليون يطرحون عليه سؤالا تلو الآخر، وهو يجيب. انفجر أحدهم ضاحكا. وابتسم الحاج لخضر، وقد جعل الدخانُ عينيه تنكمشان.

ا) لقد زعم أعضاء المحاكمة للحاج لخضر أنهم سيقومون باستنطاق عمر وبن عيسى بعد عجول، وأنهم سيقومون بمقابلة أقوالهم. إلا أنه ليس بالمستبعد، أن يكون النويشي قد وصل بين عميروش وبن عيسى، وبهذه الطريقة، يكون قد قُرِّر القضاء على عجول باستخدام الحاج لخضر، رغم إرادته كطعم.

كان هو الآخر حذرا، حيث لم يعهد لأربعين مجاهدا، مقتطَعين من فصيله وفصيل النويشي، بتأمين حراسة يقظة حول مخبئه فحسب، بل إنه أرسل دوريات حراسة أيضا إلى ضواحي سيدي علي.

كانت القهوة تغلي على الجمر. وكان الحديث شيقا. كان عجول يستمع باهتمام لوصف عالَم المحتشد الفرنسي في الجرف. كان حراسه الشخصيون الثلاثة يقفون وراءه، بعيدا عن موقد الجمر. كان النويشي، وقد أخذه على جانب، يحادث بجدّ عميروش، الذي كان يُميل برأسه نحو محدثه وكأنهما يتآمران على شيء ما. وفي الظل البعيد، معلقة على سفح الجبل، كانت أكواخ سيدي علي القليلة تغمز باهتة، كما لو كانت ترسل إشارة استنجاد.

نادى عميروش الحاج لخضر. وطلب منه دعوة عجول إلى تناول القهوة، ثم اختفى. فالتفت الحاج نحو عجول: "كيف تريد قهوتك يا سي عجول؟" حلوة تماما؟" وصبّ القهوة الكثيفة.

كان يحاول بحركات الحياة اليومية محو تكدّره. واصل رفاقُه ثرثرتهم وضحكاتهم. كان من الأجدر أن يعود عميروش والنويشي، وأن يبقيا معهم جميعا.

يخشى الحاج على الخصوص ردّة فعل عجول. لقد أخطأ؛ فهذا الأخير أفرغ فنجانه سريعا، واعتذر متحججا بالتعب، ثم ذهب ليتمدد إلى جانب الحائط المواجه للشمال الشرقي، وسط حراسه الشخصيين.

وما أن رآه الحاج يستغرق في النوم، حتى غادر المنزل، وتوجه بخطوات مسرعة نحو المخبأ المخصص للنويشي. فقال له أحد المجاهدين أن القادة في اجتماع، وأنه لا ينبغي إزعاجهم، وحاول منعه من الدخول. فدفعه الحاج دفعة كادت تشج رأسه، [1] إذ وقع أرضا

---

1) الحاج لخضر قوي البنية، طويل القامة، يبلغ نحو المترين طولا، ويتمتع بقوة خارقة.

وارتطم رأسه بالحائط. ودخل الحاج الحجرة المضاءة بالفحم، فتبين في الضوء الخافت، النويشي وعميروش ومشيش وبن عيسى وعمار معاش وآخرين، في اجتماع مصغر.

فسكتوا عند اقتحامه المكان. "ما الذي تفعلونه جميعكم هنا؟ سأل بجفاء. "لا شيء يا حاج، لا شيء." أجاب عميروش في نبرة متوددة. "هل القهوة جاهزة؟ اسبقنا وسنلحق بك."

عاد الحاج متحيّرا بخطى متثاقلة إلى مخبئه. كان عجول ما يزال نائما. وحيحي المكي يروي الحلقة الألف من فراره، ومستمعوه يرتوون من القهوة لمقاومة البرد.

التفّ الحاج من حول نار الحطب المفرقعة، واقترب من الحائط الذي ينام إلى جانبه عجول وحراسه. فلفت نظره فجأة مشهد غريب؛ فقد لمح عند عتبة الباب إلى اليسار، علي مشيش يرسم حركة بذراعه الأيمن، ثم يعمّر مسدسه. وفي اللحظة نفسها تقريبا، سمع طقطقة مغلاق بندقية "غاراند"، وفرقعة بندقية رشاشة آتية من المستوى الأعلى، وأخيرا رشة مسدس رشاش "تومسون". باختصار، كان هذا كالجحيم! فارتمى على الأرض فورا، وصاح ملء رئتيه: "انبطحوا! إلى الأرض، إلى الأرض!" حطّم الرصاصُ سقف المخبأ الرفيع. رمى الحاج حفنات من التراب الممزوج بالحصى على النار، ولاحظ حيحي يزحف مرفوع العجز، فصاح فيه: "انخفض، ستصاب!" وتعرّف على أحمد أزروال مسلحا ببندقية "غاراند"، ورآه يهوي كدمية نخالة، ثم اندفع نصف زاحف ونصف راكض، خارج الحجرة.

في الخارج، ظلام دامس وفوضى عارمة. مجاهدون يركضون في جميع الاتجاهات، عيارات تنطلق من كل الجهات. ظن الحاج أن سراحنة عجول هم من يهاجمون. لم يعد لأي شيء أي معنى. ثم حلّ فجأة صمت مطبق.

في أثناء ذلك، يستيقظ عجول، ويتظاهر بالموت. لقد تعرّف على الفور على الطلقات المميزة للغاراند والتومسون. انبطح أرضا؛ لقد تبين له عبر النور المعاكس، وجود ثلاثة أشباح مسلحين، واقفين عند عتبة الباب، ينظرون باتجاهه ثم ينصرفون. أحس بشيء حار ولزج في يده اليسرى، وسمع رفاقه يحتضرون في هدوء. حاول تعمير مسدسه، فلم يفلح. ثم نهض، مقامرا بكل شيء، واندفع بقفزة إلى الخارج، حيث اختلط دون عناء بجمع المجاهدين النازلين نحو الوادي. وعلى بعد نحو مائة متر، انحرف يمينا والتحق بفوجه المتمركز بجنيّن باتجاه الجنوب الغربي.

عاد الحاج بمجرد توقف الطلقات النارية إلى المخبأ. فوجد ثمة جثث حراس عجول الشخصيين [1]، ولكن لا أثر لهذا الأخير. فجمّع رجاله في الليل، وجعلهم يصعدون إلى وسط إحدى الأكمات، حيث بقوا متيقظين حتى الفجر.

في الصباح، تفطن إلى أن النويشي وعميروش قد استقرا غير بعيد عنه. فقال لهما: "لقد هاجمنا السراحنة!" وفي لمح البصر، فهم من نظرتهما أنه مخطئ. فلم يُطِق وصاح منددا: "ما أنتم إلا يهود! هي ذي حقيقتكم! لقد اتفقتم على قتل عجول. لماذا؟ لماذا؟" حاول عميروش تهدئته، وأقسم له ألا دخل له في محاولة اغتيال عجول: "نعم، صحيح، لقد طلبتُ أن أوتى بعجول، مقيّدا ومنزوع السلاح لمحاكمته. لا أكثر." فانقبض الحاج متقززا كما في الأيام الشديدة. "لا تنس يا حاج. فقد

---

1) مات حراس عجول الشخصيين الثلاثة على الفور. وهم الصادق باتسي وعبد الرحيم الثنية وعبد الرحيم هلايلي. أما أحمد أزروال، القاتل، صاحب الغاراند، المعيّن رفقة علي ولحاج المسلح بتومسون، لاغتيال عجول، فقد قتله هو الآخر أحدُ المحرّضين على الجريمة، أمام باب المخبأ نفسه. وكان أحمد أزروال وهو بوسليماني، قد انتمى تارة إلى فوج بن عيسى، وطورا إلى فوج عجول، حتى أجبره الأول، مقابل العفو عنه، على الاعتداء على حياة عجول.

أرسلتني لجنةُ التنسيق والتنفيذ إلى هنا، لإعادة النظام إلى الأوراس." فانفجر الحاج: "أية لجنة تنسيق وتنفيذ؟ أنا لا أعترف بأية لجنة تنسيق وتنفيذ. لو كنتَ قتلتَ عجول لكنتُ قتلتُك." فقال عميروش: "إن كان عليّ الموت على يديك يا حاج، فليكن."

كان يأس الحاج لخضر عظيما، أولا لأنه تعرض للاستغلال والخداع كما لو كان مبتدئا، ثم لأن أيًّا من المشاكل لم يحلّ.

وبقي سخطُه بالقدر نفسه من الحدة، حتى في سنة 1972، أي بعد ست عشرة سنة. وعاد يتذكّر: "كانت الريبة شاملة. فقد ظن عميروش بكل حسن نية، وهو نفسُه ضحية تضليل وقح، أن حلّ مشاكل الولاية الأولى، يمرّ عبر تصفية عجول. وكانت المفاجأة في النهاية، أنه علم بأن عمر بن بولعيد ومسعود بن عيسى، قد استغلاه لتصفية عدوهما الدائم عجول، وأنهما كانا سيصفّيانه هو نفسه، ويلغيان تعيين العموري والنويشي."

"وما الذي حدث بعد ذلك؟"

"قلتُ لعميروش أنني لم أعد أعترف بسلطته، وأن عليه مغادرة الولاية الأولى، لأنه أصبح معرضا لخطر الموت فيها. وأضفتُ أنه، بالنسبة لي، لم يأتِ كرجل سلم. وقد هاجمني المسؤولون الآخرون، مثل عمار معاش والطاهر النويشي، قائلين لي أنني أخطأت، بمخاطبة مفوض من لجنة التنسيق والتنفيذ بهذه الطريقة. فقلت لهما: "إن لم تكونا متفقيْن معي، فارحلا معه! وأضفتُ لعميروش هذه المرة، أنني سأضمن حمايته حتى جبل بوطالب."

استسلام عجول

كان ساكتا، ثم أخذ، بيده العريضة، قلم رصاص كان ملقى على المكتب، ثم قال: "أحسستُ منذ البداية بأن لا شيء طيّب سيحصل، أويخرج من هذه الأحاديث المنفردة مع النويشي. ثم قلتُ لنفسي: "أنت لا ترى سوى الشر. فلعله سيسوّي مشاكل الولاية. "وقد كنتُ مخطئا".

وسألتُه: "ما الذي قاله عميروش؟" "لا شيء تقريبا! ما عدا أنه سيرفع تقريره إلى لجنة التنسيق والتنفيذ."

بلغت إشاعاتٌ سمعَ الحاج، تتحدثُ عن تجمّع لقوات عجول، وعن تنقل رجال بن عيسى انطلاقا من المسارة.

"حذّرتُ عميروش: إن لم نرحل حالا، فلن أتحمّل مسؤولية أمنك! فذهبنا في يوم 21 أكتوبر 1956. وقد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة. وعندما بلغنا جبل بوعريف، شرق باتنة، أعلن لي عميروش أن الاستعمار أسر بن بلة. لقد سمع بالخبر من خلال الإذاعة. ربما كان ذلك يوم 22 أو 23 أكتوبر، فأمرتُ على الفور بأن نؤتى بالجريدة من باتنة. وقد كان الخبر فعلا منشورا بالبند العريض. وكانت هذه، طعنة أخرى للثورة!"

كان الوقت ما يزال ليلا؛ وصل عجول وفوجُه إلى جنيّن، واندمجوا مع كتيبة عثمان كعابشي ومكي بيوش. لما رأوا جراحه، وبعد ما روى لهم ما حدث، استعدوا للقتال.

لكن عجول منعهم من القيام بذلك. "إن أشد ما آلمني هو خيانة الحاج لخضر. فقد أساء استغلال ثقتي، وإلا لكنتُ أخذتُ حذري." في الوقت الذي يقول لي فيه ذلك، كان جميع أبطال الرواية قد توفوا،

باستثنائه هو والحاج لخضر.[1] "طلب مني كعابشي بعض المال لشراء المؤونة. فسلّمتُه مبلغ ثلاثة ملايين سنتيم، ووعدتُه بالمزيد بعد بضعة أيام."

كل شيء بالنسبة إليه يندرج ضمن حالة سوية حتمية؛ فقد أصبح الرجلَ الذي تسبب في الفضيحة، وأصبح خلصاؤه يتبرّمون من اتباعه. أصبح الجميع يحذره. كما أصبح (هو) يحذر الجميع، باستثناء أبيه أو أبناء عمه. وفي ظرف قصير، صار الجو خانقا. كما في هذه الغرفة من مستشفى باتنة، حيث وجدتُ عناءً في جعل وتيرة تنفسي تتلاءم مع أفكاري.

تتحدث زوجة عجول، أمام السرير الذي يرقد عليه، غارقا في غيبوبة عميقة، بصوت وحيد الوتر: "بعد أن جُرح، أتوني بقشابيته؛ كانت مليئة بالثقوب والدماء. فقلتُ في نفسي: "لا يمكن أن يكون حيّا!" ثم جاء إلى البرج، وعالجناه. كانت أصابعه تتدلى منحرفة تماما. وبدأ رجاله يتخلون عنه. وبقي في النهاية وحيدا مع ابنه وأبناء عمه ووالده. ولا شيء آخر. لقد قال لي: "سأذهب إلى تونس" ولكن الطريق كان مسدودا.

---

1) لقد أخطأ عجول. فقد صدّق بعض المظاهر الخادعة في هذه الحالة تحديدا. فلم يكن الحاج لخضر على علم بالمؤامرة التي دبرها مسعود بن عيسى وحلفاؤه، لأنه يأنف ببساطة، بحسب طبعه وبحكم مزاجه، التعاطي مع مثل هذه المناورات. وقد أكد لي عجول: "أنت تقول أن الحاج لخضر قد استنطقني، وحاسبني بشأن "قايد" مشونش، وبشأن تمردي المزعوم على النظام. وأنا أقول لك بكل بساطة أن هذا ليس صحيحا. كيف يمكنك أن تتصور جنديا مرؤوسا يستنطق مسؤول الإدارة؟ هذا غير معقول. فأنا لم أكن أي واحد. فقد كان ثمة الاحترام أولا، ثم الخشية. وقد تغيرت الأمور طبعا بعد محاولة الاعتداء على شخصي، حين أضحى عميروش يوزع رتب النقباء والملازمين الأولين بطريقة عشوائية. لقد كنتُ حَسَن النية، ولو لم أضلل، لكنتُ محوتُهم جميعا. وحتى بعد ذلك، عندما التحقتُ بذويَّ؛ لو لم تتم خيانتي، لكنتُ قلبتُ الوضع لصالحي في ظرف شهر واحد. وهو الأجل الذي كنتُ قد طلبتُه من جنودي. ولكنهم لم يتبعوني. وعندما بلغتني الإشاعة بأنني سأُسلَّم إلى بن عيسى وعمر، فضلتُ الالتحاق بالمعسكر الفرنسي. ولم آخذ معي شيئا، ولم أبُح بشيء، باستثناء ما كان العدو يعرفه من قبل."

فطلب عندئذ من أبيه أن يذهب لإخبار الاستعمار بأنه سينزل إلى معسكر زريبة الواد [1]. الفرنسيون هم من بتروا أصابعه. وقد قالوا ذلك في مناشيرهم: نحن نعالج قائد الفلاقة، وهو في صحة جيدة!" [2]

لا يخفي مصطفى بوستة بغضه لعميروش والحاج لخضر. كنا قد نزلنا من تكوت، وحَبَسَنا "الشناورة" الهائج على طريق أريس. كانت الأمطار قد هطلت بغزارة في اليوم السابق، وكان الوادي الغادر، الذي بالغ في تضخمه، وتحول إلى وحش متعدد الظهور، يجرف جذوع الأشجار وبراميل البلاستيك، ينحدر مع الشعاب مزمجرا، مكوّنا فقاعات ضخمة موحِلة.

طوى مصطفى بوستة الواقف عند الجسر المغمور، قلنسوة قشابيته الترابية اللون، وشدّ العمامة على رأسه المنحرف، ثم قال: "اقترح عليّ عميروش الذهاب إلى جنوب الأوراس مع علي مشيش، فرفضتُ." "ولِمَ؟" "لأن كل شيء كان قد اختلط. ولم تبق لدينا معالمنا المعتادة. وقد اختفى جميع القادة الذين كنتُ أعرفهم. فقد مات مصطفى، وعجول كان معزولا في كيمل، وعباس حبيس النمامشة، رافضا لمرتين الاستجابة لاستدعاءات مصطفى قبل موته. وكان عميروش تحت تأثير عمر بن بولعيد وبن عيسى والنويشي ومشيش والحاج لخضر.

"وأنت؟" "لم يعد يحق لي إبداء رأيي. فبقيت في ركني، أنتظر الأحداث." "ألم تكن حاضرا عندما كان عميروش يستنطق عجول؟" "كلا. فقد كنتُ يوم أرادوا قتله، مع فوجي داخل مخبئنا. وعند تبادل النيران، ظننتُ على الفور أنه هجوم من الاستعمار، فهربت. بعد ذلك بفترة، أثناء الليل، أرسلنا اتصالا لجلب الأخبار. فأخبرنا أن الهجوم كان

---

1) أبدى عباس، حين علم باستسلام عجول، استنكارا كبيرا، وقال: "كان على عجول أن يقاتل حتى الموت!".
2) الفلاقة: قطاع الطرق؛ وهو لفظ احتقار سمّت به فرنسا مجاهدي جيش التحرير الوطني.

موجها ضد عجول. وجاءنا عميروش بعد ذلك مسرعا، ليطلب منا جمع الجنود كلهم، وانتظار الأوامر في عين المكان".

وقام بوستة بحركة بيده، كما لو كان يَصرف أحدا أو يبلّغ بعدم القبول. "لم أكن أرغب في أن تكون لي علاقة بعميروش أو الآخرين. فقد كانوا يثيرون اشمئزازي. وبعد استسلام عجول، التحقتُ بفوج المتطوعين حيث بقيتُ ستة أشهر." "لماذا فوج المتطوعين؟" "لأنني كنتُ أخشى أن أقتَل. فقد تفاقم الوضع."

لوحظ عياء متعاظم لدى المجاهدين، وإذا كان لا بد من التضحية بعجول، لحصول السكينة، إذن فليكن!

كان الهباء والتفكك يسودان هذه الفترة. لم يعد ثمة من قيادة ولا تنظيم. وقد انشقت مجموعات مقاومين بأسرها، وخاصة من بين السراحنة والشُّرفة، المهددين بالإبادة. وبعد استسلام عجول، التحق العديد من حلفائه السابقين بمعسكر العدو، مستسلمين لهلع الإشاعات المتشائمة والمغرضة، وقد استبدّ بهم خوف وراثي، يكون أسلافُهم قد عرفوه أمام المحتل الأجنبي: الخوف من انقراض الجنس.

كانت العشائر تتقارب من بعضها وتتجمع لفترة، ثم تنقسم إلى كيانات صغيرة منغلقة على نفسها، بحثا عن أمان لا وجود له. يستحوذ على اهتمامها، الرغبة في الحفاظ على اسم العائلة، أكثر من الحفاظ على الأراضي التي كانت تمتلكها.

القســـم الثالث

يطلب منا جمع

ا أو يبلّغ بعدم
و الآخرين. فقد
التحقتُ بفوج
وعين؟" "لأنني

د من التضحية

ة من قيادة ولا
خاصة من بين
عجول، التحق
لهلع الإشاعات
ون أسلافُهم قد
نس.
ثم تنقسم إلى
ن لا وجود له.
عائلة، أكثر من

نهاية البداية

لجنة التنسيق والتنفيذ في الأوراس

أواخر ديسمبر 1956. مرت الآن ستون يوما على مغادرة عجول الساحة، والتحاق عميروش ببلاد القبائل، لتقديم تقريره إلى لجنة التنسيق والتنفيذ.

اجتمع في وستيلي بعضُ القادة، الذين يسعون برغم كل شيء، لتجنب فشل الولاية الأولى [1]، مهد الثورة؛ وهم العموري والحاج لخضر وحيحي المكي ومدور عزوي والطاهر النويشي.

استحوذ الحاج لخضر على الكلمة دون مقدمات: "فلنُطبّق تعليمات سي مصطفى. إنها طريق خلاصنا الوحيد. أقترح أن يتولى سي العموري مسؤولية المنطقة الأولى." وتمت الموافقة على الفور، ولكن العموري يرفض المنصب: "أعتقد أن الحاج لخضر أكْفأ مني." ولكن الضغط ضلّ يشتد عليه، حتى وافق. وكان يساعده الحاج كنائب عسكري، وحيحي المكي كنائب سياسي، ويوسف لعلاوي كنائب مكلف بالاستعلامات.

---

1) قُسّمت الجزائر إلى خمس ولايات بعد مؤتمر الصومام. وقد أصبحت الناحية الثالثة من الولاية الأولى، هي الولاية رقم 6 – مع أحمد بن عبد الرزاق.

ونُقِل مركز القيادة إلى رفاعة، غرب باتنة في جبال بلّزمة.

لقي الطاهر النويشي الذي كان مرشحا لقيادة المنطقة الثانية، اعتراض التوابة، العشيرة ذات الأغلبية في أريس. وعُيِّن أحمد عزوي مكانه، فرفض المنصب. [1]

واستؤنف العمل وفق الرزنامة التي حددها مصطفى بن بولعيد. فتمّ رسم حدود القطاعات والمناطق رسميا، وتزويدها بالقيادة ذات الرؤوس الثلاثة الاعتيادية: عسكرية وسياسية واستعلامات. وتدفقت الاشتراكات والمؤن من جديد، بفضل سكان مهيكلين ومقتنعين، وأقل شغبا من سكان المنطقة الثانية.

في شهر مارس 1957، تلقى العموري دعوة للتوجه إلى بلاد القبائل. فاستقدم إلى وستيلي المسؤولين الآخرين، مثل بن عيسى وعمار معاش ونواورة ورعايلي ومحمد الشريف بن عكشة ومدور أحمد وعزوي. ورأس الاجتماع بنفسه، يساعده الحاج لخضر وحيحي المكي.

هو ذا ما يرويه الحاج لخضر: "لم يكن أحد متحمسا للذهاب إلى بلاد القبائل. فلم تكن الذكرى التي خلفها عميروش طيبة، بصراحة. وقد دعا بن عيسى على الخصوص، إلى القطيعة المحضة. وقد كان موقف الآخرين، المختلف عادة، مشابها لموقفه. أما العموري، فقد دعا إلى عدم قطع العلاقات. دام النقاش يومين، وكان محتدما في أغلب الأحيان. وفي الأخير، تم قبول الدعوة، فأُرسِل اتصال إلى الولاية الثالثة عن طريق القطار، لتحديد مكان الاجتماع وتاريخه. وجاء الردّ بعد أربعة أيام."

---

1) ظلت المنطقة الثانية (أريس) بدون قائد، حتى تعيين أحمد نواورة.

رفض عمر بن بولعيد الذي تم الاتصال به أن يذهب. وسأل العموري في أثناء ذلك، الحاج لخضر وفي عينيه بريق ماكر: "الحاج، ماذا بينك وبين الطاهر النويشي؟" "لا شيء سوى الخير!" "ليس هذا ما قاله لي. يبدو أنك هدّدتَه." "ولماذا أهدّدُه؟" "هو، على كل حال، قد طالب بحماية خاصة، وذكر على سبيل الحجة، نوعا من العداوة من جانبك تجاهه." "يا للعجب! هذا أفضل ما سمعت!" "نعم، ولقد طمأنتُه، وأكدتُ له أنه سيكون تحت حمايتي الشخصية. لقد ضمنتُ ذلك."

لقد ذهبوا تسعتُهم، تحرسهم كتيبة من سبعين رجلا: العموري والحاج لخضر والنويشي وكابويا وحيحي المكي وطورش ومدور عزوي ورعايلي وبن عكشة.

دامت الرحلة حتى جرجرة عدة أسابيع. اجتازوا بني واسيف وتوقفوا في تاسلنت، غير بعيد عن آقبو، وسط تضاريس وعرة جدا. واستقبلهم أوعمران ومحمدي سعيد، قائد الولاية الثالثة آنذاك، وعميروش. كان جو الاجتماع يتحسن شيئا فشيئا مع الوقت. ومرة أخرى، يتم استذكار مصطفى بن بولعيد وموته، ومحاولة فهم فرار عجول. كان عميروش يستفسر بدقة عن الظروف والأماكن وردود أفعال السراحنة.

في اليوم الثاني، أعلن محمدي سعيد، أن لجنة التنسيق والتنفيذ، قد قررت تسيير الولاية الأولى بنفسها. لم يكن العموري موافقا: "نحتاج فقط لبعض الوقت. سنعيد وضع الولاية على السكة. فقد سبق أن بدأنا مع المنطقة الأولى. وسينتشر نموذجنا."

فقال محمدي سعيد: "بالمناسبة يا العموري، فقد عيّنتك لجنة التنسيق والتنفيذ لتمثيل الولاية الأولى في تونس." ذُهِل العموري. وواصل محمدي سعيد: "إن لجنة التنسيق والتنفيذ هي الهيئة المسيّرة للثورة، وهي التي تقود جيش التحرير الوطني. وإذا كانت موجودة في الخارج، فذلك لأسباب أمنية. وبما أنها بحاجة إلى معلومات عن

الوضع في الداخل، فإن على كل ولاية أن توفد إليها ممثلا مؤهلا. وقد وقع الاختيار عليك."

ساد صمتٌ ثقيل. قال الحاج لخضر: "وأضاف محمدي سعيد: "استعدّ للذهاب إلى تونس ".كان هذا بمثابة صفعة لي. ففي حين كنا نرقّع أحوال الولاية واحدا بواحد، وفي حين بدأ الحذر السائد بين إطاراتنا ومناضلينا يزول، هاهم ينتزعون منا العموري، أفضلنا جميعا! لقد كان ذلك مُنافيا للمنطق. لم يكن أيٌّ منّا مقتنعا، ولكن ما العمل؟ لقد كدنا نندم على قبول المجيء. وعندها التفت محمدي سعيد نحوي:"أما أنت يا الحاج لخضر، فستعود إلى المنطقة الأولى وتواصل تنظيمها تحت أوامر حيحي المكي، الذي يحل مكان العموري." فقام حيحي المكي وقال: "أنا آسف، لا يمكن أن يشغل منصب سي العموري إلا الحاج لخضر." فتغيرت نبرة محمدي سعيد: "حسنا! حسنا !ابذلوا جهدكم. اعملوا سويا ونظموا أنفسكم كما تشاؤون."

انتهى الاجتماع في اليوم الثالث. توجّه العموري وعميروش والنويشي نحو تونس عبر الشمال القسنطيني، أما الحاج لخضر وحيحي المكي، فقد عادا مثقلي الفؤاد إلى المنطقة الأولى. وواصل الآخرون حتى الشلية لإخبار عمر وبن عيسى، اللذين كثفا من دعايتهما ضد لجنة التنسيق والتنفيذ.[1]

قطع أحمد بن عبد الرزاق كل صلة بالمنطقة الثانية (أريس)، وأنشأ بمساعدة عميروش الولاية السادسة، التي تشمل عموم المنطقة الثالثة السابقة من الولاية الأولى[2]. وكان نائبه عمر إدريس.

---

1) اكتشف بن عيسى شعارا جديدا: لن تمر جبهة التحرير الوطني! لن يخضع جيش التحرير الوطني لنير سلطة مدنية، ولو كانت سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ المستقرة بالخارج، والتي يدافع عنها عميروش، عدو الأوراس اللدود.

2) عاصمة المنطقة الثالثة للولاية الأولى هي مدينة بسكرة. وهي تشمل كامل الإقليم الواقع بين مشونش وغسيرة ومنعة والقنطرة وبوسعادة وأولاد جلال.

لم تعد الولاية الأولى موجودة، بعد أن بُتِرت منها منطقة، إلاّ بالاسم، إذ أنها أصبحت تحت السلطة المباشرة للجنة التنسيق والتنفيذ. وفي انتظار ذلك، سعت النواحي الخمس الباقية، جهدها لمواصلة الكفاح، في بيئة تشبه بغرابة جو البدايات الأولى للثورة. وكأن شيئا لم يُنجز! فالقوات الفرنسية حاضرة بقوة، وجبهات القتال محاصرة، وخلايا المدن مفككة، والمناضلون أسرى، وغالبا ما يُعدَمون. باختصار، كان انعدام الأمن في كل مكان، وكان الموت يتربص بالرجال في كل ساعة.

لم يبلغ قطّ من قبلُ، عددُ المنشقين الذين انخرطوا في جيش العدوّ هذا المبلغ. فقد ورد عدد سبعمائة منشق، في مدينة أريس وحدها. وارتفعت المجازر بين الأشقاء، التي كان يُمهّد لها ويحرّض عليها الفرنسيون، إلى وتيرة مذهلة. وأذنت السلطات الاستعمارية للمنشقين، الذين يُسمّون أيضا القومية أو الحركى، بالاستيلاء على بيوت ونساء المجاهدين. وكان هؤلاء، أي المجاهدون، لا يترددون في مغادرة جيش التحرير الوطني من أجل الاخذ بالثأر، "فيلبسون" [1] لدى الفرنسيين، ويقومون بذبح الغاصبين، ثم يعودون إلى جبهة القتال ثانية، عند أول فرصة، برفقة نسائهم وأطفالهم هذه المرة!

بلغ عدد المنشقين مداه؛ على الأخص، في الناحيتين الثانية (أريس) والسادسة (تبسة)، دون أن يعرف المجاهدون في الواقع حقيقة الأمر. ولم يلبثوا أن رفضوا جملةً، كل محاولة توحيد بين العشائر، لأن ذلك، حسب رأيهم، كان منافيا لطبيعة الأشياء. إلا أن هذا الاختيار، كان، في الوقت نفسه، تهديدا مُميتا للسلم والاستقرار، هذين العنصرين، اللذين طالما غلبا إرادة الاحتلال في عملية التفريق.

---

1) يقال أن شخصا "لبس عند فرنسا" عندما يرتدي الزي العسكري للجيش الفرنسي ويصبح "قوميا".

وهكذا تعود كل عشيرة إلى جدّها الأول، وتدافع عسكريا عن نسله. ويتبخر حلم مصطفى وشيحاني، بخوض عمل مشترك ضد الاضطهاد الأجنبي من أجل صنع أمة واحدة.

تعيين الحاج لخضر على رأس الولاية الأولى

مارس الحاج لخضر وحيحي المكي بين شهريْ ماي 1957 [1] وأفريل 1958، على رأس المنطقة الأولى (باتنة)، قيادة مشتركة. يُكِنُّ الحاج احتراما كبيرا لحيحي المكي، الأستاذ في الحياة المدنية، والذي يتقن العربية والفرنسية على حد سواء. وقد أرسل إليهما العموري ما إن وصل إلى تونس، جهاز إرسال واستقبال، كانا يُغيّران موقعه بعد كل إرسال، وتحرسه كتيبة بأسرها. وقد أبلغهما أيضا أن لجنة التنسيق والتنفيذ، قد عيّنت الحاج لخضر وعلي النمر على رأس الولاية الأولى. فردّ الحاج أنه لا يمكنه القبول، وأن حيحي بحاجة إليه لتسيير المنطقة الأولى.

فأجاب العموري: "إنه أمر! يجب الطاعة وتَولّي شأن الولاية." فأذعن الحاج مُكرَهًا.

ويروي الحاج: " ثمة شيء، لم يكن يسير على ما يُرام! فما إن يتبيّن لنا آخر النفق، حتى يَجُزّ أحدهم العشب تحت أقدامنا. فقد كنتُ أستعد للالتحاق بعلي النمر، عندما جاء اتصال يخبرني بأن حيحي المكي قد قُتِل في اشتباك مع العدوّ. وقد قلتُ ذلك للعموري. فردّ عليَّ: "سأرسل إليكم بإطارات جديدة. فباشروا بالعمل بمقر قيادة الولاية." لم يأتِ أي

---

1) غادرت القوات الفرنسية تونس في جويلية 1957. وفي أوت من السنة نفسها، أعلن بورقيبة: "أريد تذكير إخواننا الجزائريين، بأن عليهم احترام السيادة التونسية".

إطار طبعا. وقد انتظرتُ لعدة شهور. وبعد أن تعبت من الانتظار (حين أتذكّر، فقد قضيت نصف عمري كله أنتظر، أنتظر دائما) تركت قيادة المنطقة الأولى لنائبي، واتجهت نحو كيمل بحرس خفيف من اثني عشر رجلا. التففنا دون عناء على غابة "تينوريست"، شمال "معافة". وإلى الغرب من باتنة تقريبا بنحو خمسة عشر كيلومترا، التقيتُ علي بن شايبة، وأخبرته بتعييني على رأس الولاية، وحدثتُه في أمر المنشقين والفوضى التي تسود كل مكان. فردّ عليّ: "نحن لم نعد نُمثّل أي شيء، لم تعد لنا أية شرعية." فواصلتُ رحلتي، واجتزتُ غابة سقاف، وبلغتُ جبل المحمل شرقا، في آخر المساء. وهنا، كَشَفَنا سربٌ من المروحيات، تشبه دبابير كبيرة غاضبة."

عاد الحاج فورا على خطاه، بحثا عن مكان مغطى. وانسحب مع رجاله إلى أكمة كثيفة؛ هنا، تبيّن في الضوء الخافت للغروب، عدد كبير من جنود العدوّ، يقفزون من المروحيات، يتقدمون في الأحراش، منحنيي الظهر.

فأمر بالتفرق والثبات والصمت المطبق. وقضوا الليل على ذلك النحو دون حراك، متولّين الحراسة بالدور. وما إن بزغ الفجر، حتى أمر رفاقه بالهجوم على الأعداء، مع إطلاق النار دون توقف.

وانطلق هو الأول، يتبعه أربعة رجال، مطلقين النار كما لو كانوا في عرس، وأفلحوا في المرور. أما المجاهدون الثمانية الآخرون، الذين كانوا أقل شجاعة، فقد تخلفوا إلى الوراء وقُتِلوا.

تجاوز الحاج لخضر جبل إشمول مواصلا مسيرته، والتف على منطقة الشلية، حيث شن الفرنسيون عملية تمشيط واسعة. وبلغ أريس مطلع شهر جوان 1958. وبعد بضعة أيام، لحق به اتصال، أبلغه بموت رئيسه علي النمر في المعركة، فشعر بوحدة رهيبة، كما شعر إثر موت مصطفى.

هو ذا ما قاله لي: "لم أعد أشعر بالأمان. وعندئذ – وتَحوّل انقباضه المعتاد إلى ابتسامة حارة جدا، تكاد تكون طفولية – أرسلتُ واحدا من الجنود الأربعة الذين بقوا عندي، إلى قائد المنطقة الأولى، كي يرسل إليّ عاجلا بكتيبة. وفي انتظار ذلك، قمتُ بزيارة مجاملة إلى حسين بن عبد السلام، قائد منطقة أريس. فأخبرته بتعيين لجنة التنسيق والتنفيذ إياي، على رأس الولاية. فلم يبدُ عليه الاندهاش أكثر من المتوقع. فتظاهرت بعدم ملاحظة أي شيء، وسألته، في سياق الحديث، عن حال علاقاته بالنواحي والمناطق المجاورة. فأجابني: "لا صلة لي بأحد. فهنا، لا يهتم أي أحد إلا بنفسه." "وسيدي حني، أتقابله؟"[1] "كلا."

بعد نحو عشرين يوما، في حدود الـ 30 جوان، وصلت الكتيبة المرسلة من المنطقة الأولى، في وقت واحد مع جهاز الإرسال والاستقبال [2]، فأحسستُ إثرها بثقة أكبر في نفسي، وبقوة أكبر. وتوجهتُ إلى إينوغيسن، معقل البوسليمانية، حيث استقبلني زعيمُهم أحمد وصيفي. أبلغته الأخبار المتوفرة وطلبتُ مساعدته، لإعادة تنشيط مقر قيادة الولاية في كيمل. وافق في البداية ثم غير موقفه. فدعوته عندئذ إلى التوجه مع رجاله إلى كيمل. فأجابني: "كلا. ليس قبل اجتماع توضيحي." فقلتُ له: "هذه مساومة !وأنا لا أقبل بهذا. سأذهب إلى كيمل بوسائلي الخاصة."

1) بشير حني، واسمه الحقيقي بشير ورتاني، زعيم الشرفة وحليف سابق لعجول.

2) بمجرد أن علمت لجنة التنسيق والتنفيذ بموت علي النمر، (واسمه الحقيقي علي ملاّح، وأصله من حيدوسة، غرب باتنة)، بواسطة الحاج لخضر، أبقت على هذا الأخير على رأس الولاية الأولى.

أما مغزى الحكاية، فإن حسين بن عبد السلام هو من سيخبرني به. "يريد البوسليمانية أن تأذن لهم في إنشاء ناحية جديدة [1] في إينوغيسن، ويريدون أحمد وصيفي كملازم."

وأسأله: " كم يوجد من مجاهد بوسليماني؟" "مائتان وستون تقريبا." فصحتُ: " محال! إنهم مجانين !ناحية في إينوغيسن، هذا ليس له معنى. إنها جزء من منطقة أريس وستظل كذلك."

وألحّ حسين بعناد: "ستشمل "مدينة" وضواحيها." فكنتُ أكثر عنادا: "قلتُ لا، يعني لا، إنها لن تكون مرئية حتى!"

اضطررتُ لتولي الأمور. والتحقتُ بمقر قيادة كيمل. فوجدتُ فيه بؤسا وشقاء. كيمل التي كانت مضرب المثل في السابق ومثار غيرة، كما لو أن عين سوء أصابتها منذ رحيل عجول، غرقت في الخوف والفوضى. بِمَ ينبغي البدء؟ لم يكن حسين بن عبد السلام يفيدني في شيء. بل على النقيض! لم يكن ثمة لا أفكار ولا خطة، لإعادة وضع الولاية على السكة.ولم يكن يتصرف إلا على هواه. وقد كان يعيّن ويعزل رجال منطقته، دون مراجعة أيّ كان.

والأخطر من ذلك، أنه كان يحابي أبناء عشيرته في توزيع المنح العائلية والمؤن والأسلحة. فاستدعيتُ جميع مسؤولي نواحي المنطقة الثانية (أريس) وقطاعاتها، وكذلك قائدها حسين بن عبد السلام. كان ثمة رجال من كل عشيرة: توابة وبوسليمانية وشرفة وسراحنة وبراجة. كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضا كالأعداء. ولكنني تفطنتُ سريعا إلى أنني أكبر أعدائهم! فكان كل ما أقوله، لا يفيد في شيء. كانوا دائما يقترحون العكس. وبصورة مكشوفة أكثر فأكثر. وأحسست بأن الكيل

---

1) الناحية، قسم من المنطقة.

يوشك أن يطفح. فنقلتُ عندئذ حسين بن عبد السلام وسيدي حني إلى المنطقة الأولى (باتنة)، وعيّنتُ مكان الأول يوسف لعلاوي، وأنشأتُ جوازات مرور جديدة، موقعة مني أنا فقط، لتنظيم تنقلات المجاهدين الفوضوية.

وكاتبتُ مناضلي المدن والأرياف طالبا مساهمتهم، فلم تلبث البغال أن توافدت نحو كيمل، مُحمّلة بالأطعمة والأغطية. وبدأ المستودع المركزي يمتلئ.

ثم فتّشتُ مستشفى الطوارئ بالولاية، فوجدتُ فيه جرحى يموتون جوعا، بينما أُخبِرتُ أن نحو أربعة قناطير من المؤن، توجد داخل مخبأ أحد الضباط. فأخذتُ منه نحو ثلاثة قناطير والنصف وسلّمتُها إلى المستشفى."

انجلى الوضع قليلا. وباشر الحاج جولة عبر المناطق الخمس، على الأخص لرسم حدودها الجغرافية، ومحاولة ربطها بنظام الاتصالات. فلم يفلح لنقص تقنيي الراديو [1].

"لقد وفى عميروش بوعده، على الأقل في شيء واحد؛ – يستأنف الحاج – فبفضل وساطته، خصصت لنا لجنة التنسيق والتنفيذ مبلغ مائتين وخمسين مليون سنتيم، احتفظتُ بمائة لتسيير الولاية، وأعطيتُ مائة وخمسين للسكان، مخصصة للأرامل واليتامى.

غير أن مشاكلي لم تنقض مع ذلك. فقد اشترطتُ تطبيق التنظيم، الذي ينص على أن على مسؤولي النواحي، توجيه تقرير كتابي شهري

---

1) يتوفر الحاج في الواقع على سبعة أجهزة إرسال واستقبال؛ فقد أوصل إليه العموري واحدا انطلاقا من المغرب مع تقنيّه، وقد أحضر هو نفسه جهازه الخاص من المنطقة الأولى (باتنة) وتلقى اثنين آخرين، تمت سرقتهما من "الصاص" (مكتب شؤون الأهالي) وأخيرا فقد وجد ثلاثة أجهزة في مقر القيادة بكيمل، كان عباس لغرور قد أرسلها. وطلب منه عميروش واحدا للولاية الثالثة. وكان عبد الرحمن ميرة هو من جاء لأخذه.

إلى مقر قيادة الولاية، وتفصيل نشاطاتهم العسكرية والسياسية فيه، مع ذكر الخسائر والأرباح والمشاكل.

استدعيتُ عبد المجيد عبد الصمد قائد الناحية، وطلبتُ منه تقاريره. فأجابني بأنه لم يستطع صياغتها، لأن السراحنة لم يزودوه بأي معطيات، وبأنه على كل حال، لا يستطيع إجبارهم على ذلك. وقد أثارت تصريحاتُه غضبي الجامح [1].

ضابط آخر، وهو المرشح محمد الصالح شنخلوفي، أراد الاحتفاظ بهيمنته على السراحنة، وتحداني صراحة: لا احترام للتنظيم، ولا تقارير، ولا تفتيش. فاستدعيتُه إلى مقر القيادة. فقبل، وكان مصحوبا بسبعين جنديا مدججين بالسلاح. فانتصب ستون منهم على قمة الرابية المواجهة لمقر القيادة؛ ودخل المقر، ومعه سبعة جنود لحراسته. فسألتُه: "لِمَ لا تدعو الرجال الذين يقفون على الرابية، لينضمّوا إلينا؟" فأجابني: "كلا. إنهم أحسن، حيث هم."

ما العمل؟ أرسلتُ إليهم رجليْن لدعوتهم إلى النزول، فرفضوا. أمرتُ نائبي موسى حليس بالذهاب لمحاصرتهم، ولكن ما إن رأوه يقترب برجاله، حتى فروا. وعاد موسى حليس يخبرني. فأعلنتُ لشنخلوفي: "أنت الآن أسيري. ستسلمني أنت ورفاقك أسلحتكم."

فأذعنوا. وقد كشف رفاقُه حين سُئلوا، أن شنخلوفي كان قد أمرهم بإطلاق النار في حال وقعت أي مناورة فيها تهديد لهم. حسنا. أعدتُ إليهم أسلحتهم، وأهديتُهم أزياء جديدة وأحذية باطوقاز واطلقتُ سراحهم: "أنتم أحرار في الذهاب، أنتم أحرار في البقاء أو العودة. وحده شنخلوفي يبقى هنا." و بقي من السبعة خمسة جنود وانصرف اثنان.

---

1) اكتشف الحاج لخضر أربعة قناطير من المؤن، داخل مخبأ الملازم الأول عبد المجيد عد الصمد. وقد احتج هذا الأخير، عندما صادر الحاج تلقائيا ثلاثة قناطير ونصفا. وقد أجابه الحاج: "يجب أن يأكل الجرحى."

فطلبتُ من الخمسة أن يرحلوا مع رفاقهم، ثم التفتُّ نحو شنخلوفي: "أتعرف عائلات شهداء؟" "أجل" "إذن، هي ذي أربعمائة ألف سنتيم. أعهد بها إليك لتوزعها عليهم."

كاد الحاج ينتزع أحشاء يوسف لعلاوي، المسؤول عن الأسير، الذي كان عليه استنطاقه، وإرسال التقرير إلى قيادة الأركان. ويرسِل تقريرا آخر إلى قيادة الأركان، هذه المرة بشأن تهاون لعلاوي، فكان ردّ قيادة الأركان: "يجب العفو عنه!"

كل هذا لا يحسِّن من صورة الحاج. فهو يصطدم بعصيان ضباطه، وأحيانا بتمرد صريح. حينما يرفض الحاج تحويل إينوغيسن إلى منطقة مستقلة ذاتيا، يقودها ضابط بوسليماني، وتسكنها أغلبية بوسليمانية، فهو يرفض استمرارية الممارسات الاستعمارية الخالصة والمشينة؛ لكن لا فائدة! فالبوسليمانيون يصفونه بالعميل للجنة التنسيق والتنفيذ ولعميروش.

فيقرر نقل عدد كبير منهم إلى الصحراء، في الولاية السادسة الجديدة. ولكنهم يرفضون الذهاب. يقطع عنهم المؤن. لا يهم! فقد هاجموا مواكب التموين القادمة من المنطقة الأولى، وتزوّدوا من المصدر.

وبكل عناد، لا يكتفي الحاج بحماية المواكب عسكريا فحسب، بل يحاصر أيضا إقليم آل بوسليماني، ويحرمهم من جوازات المرور ومن حق العبور. إنه الاختناق يتلوه هجوم خاطف.

دام الاشتباك ثلاثة أيام، تفرقوا إثره في فوضى. بعد فترة، أضناهم الجوع، فالتحقوا بجيش التحرير الوطني وهدأوا.

لم يكن للحاج مع التوابة مشكل. فقد انتظموا بأنفسهم في مناطق أريس ومدينة وخنقة معاش. وكانت الولاية تمنحهم الإسعاف والمنح بانتظام لتلبية حاجات الأرامل وأهالي الشهداء. غير أن عددا كبيرا

منهم، وقد صدمتهم طرق الحاج الخشنة، طلب من أحمد بن عبد الرزاق استضافتهم في ولايته.

لم يطرح زعماء الشرفة، المنتشرون في المناطق أية مشاكل أيضا. بعكس بني ملول. فزعيمهم محمد أمزيان، الذي كان لفترة حليفا لمسعود بن عيسى، ارتكب عديد الإساءات ولم يقبل الاعتراف بسلطة الولاية. وقام رجاله، خوفا من قصاص الحاج، باغتياله وانصرفوا إلى النمامشة حيث الفوضى متفشية. حتى أن الثورة هناك لم يعد معترفا بها، وحيث البدو الرحل ينصبون العلم الفرنسي صراحة، على ظهور جِمالهم وخيامهم.

لم يعد الحاج يغامر بنفسه في الوحل النموشي. فلديه ما يكفي من العناء مع الأوراس. لقد تعرضت ثلاث كتائب، نقلها الحاج من ناحية كيمل إلى المنطقة الأولى (باتنة) للإبادة على يد العدوّ، بسبب جهلها للموقع. من جانب آخر، فقد طلب من قائد المنطقة الأولى، إرسال أربع كتائب من المنطقة الأولى إلى الشلية وكيمل.

يروي الحاج: "كنتُ أريد القضاء على الخوف والارتياب والفوضى بين الأشقاء، التي كانت تسود الأوراس؛ صحيح أنه كان ثمة قتلى، ولكن أي حلّ يمكن تبنّيه، حين يكون مصير الثورة معرضا للخطر؟ فكل واحد يصيح: "إلى اليمين! إلى اليسار!". ولم يكن العموري وقيادة الأركان مفيدين لي، إلا بقدر ما يفيد ميسم في ساق خشبية."

لم يفلح الحاج لخضر، الوحيد والمعرض لضغوط شديدة، دون تعليمات واضحة، ولا قوات حقيقية، في التقليل من الخسائر، إلا بفضل حذر أسطوري، ومنطق ريفي صلب، ووفاء تام لبعض المبادئ الثورية التي حفظها من الحياة.

في تلك الفترة، كما سبق ذكره أعلاه، كانت ثمة معارضة عنيفة لجبهة التحرير الوطني. وقد انطلقت مع مجيء عميروش إلى الأوراس، ثم تفاقمت بعد الحوادث المؤسفة لأحمد عزوي في تونس.

فقد توجه أحمد عزوي، ابن عم مدور عزوي، بالفعل إلى تونس. وكان يروي، لدى عودته، لمن يَودُّ سماعه، كيف أنه تعرض للضرب المبرّح، وسوء المعاملة من رجال قيادة الأركان. وكان أيضا يصف كيف يعيش قادة التنظيم الخارجي في الترف، ويأكلون حتى التخمة، وينامون في أسِرّة آمنين، جاهلين كل شيء عن مصاعب جيش التحرير الوطني في الداخل.

ركب مسعود بن عيسى بابتهاج هذه المطية، وبدأ دعاية هوجاء ضد جبهة التحرير الوطني. فصار المجاهدون الآن ينشقّون بالمئات، وأصبح لهم قائد جديد، هو الشريف رابحي، الرفيق الأسبق، لمصطفى بن بولعيد.

أقام الشريف رابحي مقر قيادته في منطقة بوحمار، في الشبحة. وراح بن عيسى يزعق: "جيش التحرير الوطني هو وحده السيد! لا شأن لأناس الخارج بنا! لا يمكن لآكلي اللحوم أن يحكموا آكلي "التالغودة" [1]."

وأرسل الحاج لخضر مبعوثا إلى الشريف رابحي، لفصله عن بن عيسى، وقال له: "ما فات قد مات. تذكّر رسالة سي مصطفى، عُد إلى جيش التحرير الوطني كضابط." فأجاب رابحي: "كلاّ!" وواصل مسلكه مع بن عيسى، حتى اكتشف وباله، فقتله في مكان سيدي علي.

---

1) التالغودة : بذر نبات يجفف ويقشر، فينشأ عنه طحين تصنع منه عصيدة.

انفجار الولاية الأولى

استدعى الحاج لخضر، الذي كان قلِقا أمام تعاظم الانشقاق، كلاً من علي بن شايبة ومحمد الشريف بن عكشة. وكلفهما بأن يربطا الاتصال، الأول بالمنشقين التوابة، والثاني بالبوسليمانية، بهدف إرجاعهم إلى الشرعية. واتخذ في أثناء ذلك تدابير توفيقية: فقد دفع المنح العائلية كاملة إلى أُسَر المنشقين، مع أنصبة غذائية في الوقت نفسه.

كان المبعوثان بحاجة إلى عدة أشهر، ليعيدا إلى جيش التحرير الوطني خمسمائة منشق. توجه نحو مائة منهم مع محمد الشريف بن عكشة نحو الولاية السادسة الجديدة، غير أن نحو ثلاثين منهم غيروا موقفهم، وعادوا إلى كيمل حيث طلبوا تعيينهم في مناطق المعارك.

وانتشر المنشقون الآخرون عبر المناطق. سَعِدَ أحمد بن عبد الرزاق، قائد الولاية السادسة، الذي يتطلع إلى قيادة الولاية الأولى، باستقبال مجاهدين محنّكين لتأطير قواته.

لا يذكر علي بن شايبة حادثة، إلا وأسهب في ذكر مداخلها ومخارجها. ينبغي فقط التّصبُّر وحسن الاستماع: "أجل، هذا صحيح، فقد قابلتُ الحاج لخضر في ربيع 1958 في سقاف. كان متوجها إلى كيمل، يصحبه فوج. وقد حدثني عن الفوضى والانشقاق وتعيينه على رأس الولاية الأولى. لم يكن الوضع متألقا. كان الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله، هو العودة إلى "مدينة" بين أهلي. وهناك، لفرط سوء الحظ، علمتُ بأنني مُتّهم، بالتحيز للجنة التنسيق والتنفيذ، بل والتحيز للقبائل. فتوجهتُ إلى المنشقين وحادثتُ أحمد عزوي والشريف رابحي ومسعود بن عيسى. كان عمر بن بولعيد آنذاك قد غادر الجزائر.

المنشقون وقادتهم، أنا كنتُ أعرفهم.شرحتُ لهم قدر ما استطعتُ. لم يكونوا يعترفون لا بجبهة التحرير الوطني، ولا بلجنة التنسيق والتنفيذ. كانوا يؤكدون على أن مصطفى، لم يُحدّثهم لا عن جبهة التحرير الوطني، ولا عن لجنة التنسيق والتنفيذ، ولا عن الولاية. فأطلعتهم على ما كنتُ أعرف، وقلت لهم أن جبهة التحرير الوطني، ولجنة التنسيق والتنفيذ، هما الشيء نفسه. فهما يمثلان القيادة العليا للثورة. وأضفتُ أن الجزائر قد قُسِّمت إلى ستّ ولايات، وأن أوراس النمامشة هي الولاية الأولى. وخلصت بالقول، أن الولاية الأولى، معرضة لأن تنعزل عن باقي الولايات."

"كم كان ثمة من منشق؟" "من الصعب إعطاؤك رقما دقيقا. ربما كانوا سبعمائة تقريبا. قادهم في البداية أحمد عزوي، ثم بعده الشريف رابحي المناضل القديم، وأحد الأوائل من رفاق مصطفى بن بولعيد، وقد جُرِح هو الآخر في اعتداء الجهاز المفخخ. كان رابحي قد أقام مقر قيادته في منطقة بوحمار في الشلية. وكان بين المنشقين، توابة وبني وجانة وبوسليمانية." "والحاج لخضر من كلٍّ هذا؟" "كان هو نفسُه متّهما، بأنه عميل لجنة التنسيق والتنفيذ، إذ أن قيادة أركان تونس هي من عيّنته على رأس الولاية. لقد كان هامش مناورته ضيقا. وقد كان الجميع ينبذه: الشريف رابحي في بوحمار، ومحمد الصغير تيغزة في إينوغيسن مع البوسليمانية، ومحمد أمزيان مع بني ملول، ومحمد لعور في تيفلفال، وأولاد ناجي في خنقة معاش. لقد استدعاني إلى مقر القيادة في كيمل، وكلفني بتوزيع المنح والمؤن انطلاقا من "مدينة"، على جميع أُسَر الجنود، بمن فيهم المنشقين. فقد تحسّن الوضع الأمني قليلا في "مدينة" وخنقة معاش وأريس.

وجرى امتحان القوة في شهر سبتمبر 1958، وقد حضرتُه عاجزا تماما. ثلاثة أيام من المعارك بين الأشقاء، بين جيش تحرير الحاج النظامي، ومتمردي الشريف رابحي. وقد جنّد الحاج كامل قوته، ونجح في محاصرة رجال رابحي وعزلهم وتفريقهم، بعد أن قطع عنهم المؤن. فتبددوا. وعرض الحاج المنتصر، الشهم، منصب ضابط على رابحي الذي رفض، لأنه كان واقعا تحت التأثير المضاعف، لمسعود بن عيسى وأحمد عزوي."

ولنستمع إلى الحاج لخضر، يحدثني عن هذه الفترة، ووجهُه كله حيرة، كما لو أن ذكرى سيئة تطارده: "لم أكن أظن أنني سأقبل أن ينتمي منشقون، إلى جيش التحرير الوطني. ومع ذلك، فقد فعلت. لأن الثورة كانت في خطر. فكل ما كان يهمّ، هو إعادة بناء الجبهة المضادة للاستعمار. ففتحت لهم ولعائلاتهم مخازن الأغذية، ودفعت لهم منحا عائلية، وسلمتهم جوازات مرور ليمكنهم التنقل بحرية. كنتُ مخطئا في بعض الأحيان. فمع المنشقين من بني ملول، لم تكن الأمور بهذه البساطة. فقد ارتكبوا بقيادة مسعود بن عيسى ومحمد أمزيان عديد الجرائم: بوجه خاص، حين أعدموا شنقا نحو مائة مُجنّد جديد، وُجِدوا ميتين في مخبأ.

لقد استنفرت ثلاث كتائب لمطاردتهم، لكنهم فروا إلى شرق النمامشة، بعد أن اغتالوا قائدهم محمد أمزيان. ثم وقعوا تحت سوط شخص يدعى "عمار الرفال"، وهو نفسه نموشي.

وأسأل: "يا حاج، قال لي عجول أنه اتصل بك. فهل هذا صحيح؟"[1]

" نعم. لقد أرسل لي رسالة إلى مقر قيادة الولاية يقترح عليّ فيها

---

1) عندما سلم عجول نفسه، وضعه الجيش الفرنسي بعد طول تردد، قيد الإقامة الجبرية في أريس.

مساعدته، ويُفهمني أنه قد يعود إلى الخدمة في صفوف جيش التحير الوطني. كان ذلك، بطبيعة الحال، غير وارد بتاتا. وفي الفترة نفسها، أرسل لي "القايد" سبتي مرشي، قائد "قومية" أريس، رسالة يعرض فيها عليّ خدماته، ومليون سنتيم كي توزع على جنود جيش التحرير الوطني." [1]

هنا، أحس الحاج بالعجز، حيث لا يملك الخبرة الضرورية للمواجهة. فتوجه إلى المرجع الوحيد المتوفر لديه، وكلف يوسف لعلاوي، بأن يطلب بالراديو، تعليمات من قيادة الأركان. فجاء أحد الشهود يبلغه بعد ذلك بقليل، بأنه سمع لعلاوي يتصل مشافهة وبالقبائلية، بمراسل من قيادة الأركان. فاستدعاه الحاج: "ما الذي أسمعُه؟ أتتحدث مشافهة على المباشر مع قيادة الأركان؟" فيجيب لعلاوي: "لا يا سي الحاج، كان ذلك لشرح الوضع واستعجاله بصورة أفضل." "أتتجاهل أن الاستعمار ليس له آذان فحسب، بل ويفهم القبائلية أيضا؟" وبرقت عينا الحاج الخضراوان المائلتان إلى الزرقة غضبا، بينما ارتعشت شفته العليا في انقباض شديد.

وسألتُه: "وما كان ردّ قيادة الأركان؟"

"كذبًا كالعادة. قالوا، أنهم سيرسلون إطارات وتعليمات." [2]

---

١) ترأس "القايد" السبتي مرشي، وهو من التوابة، "قوم" أريس للانتقام من عمر بن بولعيد، ذلك أن هذا الأخير يكون قد نسي أن يدفع له دية، كان مجلس عقلاء أريس قد فرضها في قضية دم، تعود لبضع سنوات قبل الثورة.

٢) سئم السراحنة من العيش على هامش الشرعية، ففضلوا الانضمام إلى جيش التحرير الوطني. وقد ضربت لهم المثل في ذلك، امرأة تبلغ من العمر ١١٤ سنة، برفضها الإقامة في المحتشد الفرنسي وتفضيلها البقاء في غابة بني ملول مع الثوار. وقد منحها الحاج 20.000 سنتيم، وثيابا جديدة وبعض الأطعمة. فقرر رجال ونساء آخرون، البقاء أيضا، وتكفل بهم جيش التحرير الوطني بالكامل.

إعادة تنظيم النواحي في الولاية الأولى

واصل الحاج لخضر عمله، مثابرا كالنمل، دون أن يهِن عزمه.

كانت الولاية الأولى في أكتوبر 1958، تعُدُّ ألفيْن وستمائة مجاهد موزّعين على النحو الآتي :

المنطقة الأولى (باتنة) : ثمانمائة وستون

المنطقة الثانية (أريس) : ألف وأربعمائة

المنطقة الرابعة (عين البيضاء): ثلاثمائة وخمسون

نعلم أن المنطقة الثالثة تحولت إلى ولاية سادسة مع أحمد بن عبد الرزاق، وأن المنطقتين الخامسة والسادسة (سدراتة وتبسة) كانتا تحت القيادة المباشرة لقيادة أركان جيش التحرير الوطني، الموجودة قاعدتها بتونس[1].

وكان نظام الرُّتب كالآتي :

- عريف، رقيب.
- عريف أول، رقيب أول.
- مساعد.
- ملازم أول، مرشّح.
- ملازم ثان.

ضابط أول، ملازم ثان.

- ضابط ثان، نقيب.
- صاغ أول، رائد.
- صاغ ثان، عقيد.

---

1) تجعل تنقلات المقاتلين الفوضوية عبر النواحي، بين الولايتين الأولى والسادسة، من الصعب إجراء تعداد دقيق.

وظلت وحدة القتال القاعدية هي الفوج أو المجموعة، المكوّنة من أحد عشر رجلا ورقيب.

ينقسم الفوج غالبا إلى اثنين.

فالفرقة أو الفصيلة تضم ثلاثين رجلا، ورقيبيْن اثنين أحدهما القائد.

وتتكون الكتيبة من سبعين رجلا ومرشّح واحد.

ويضم الفيلق ما بين ثلاثمائة وخمسين وأربعمائة مجاهد وملازم.

كانت أسلحة الولاية الأولى الثقيلة، في تلك الفترة، تتضمن خمسة عشر مدفع هاون من عيار 45 ملم، ومدفع هاون من عيار 81 ملم (فُقِد في معركة برفاعة)، وخمس عشرة بندقية رشاشة، ورشاشا من عيار 30 ملم، وسبع "بازوكات".

وتكون كل كتيبة نظريا، مزودة بمدفع هاون وبندقيتين رشاشتين.

نجح الحاج لخضر في تنظيم فرار نحو ستين "قومي"، من "صاص"[1] خنشلة نحو جيش التحرير الوطني. وكانت الطريقة التي تصرّف بها بسيطة جدا: فقد سلّم إلى كل "قومي" رسالة اسمية وشخصية، بواسطة أحد ضباط جيش التحرير الوطني، يكون مصحوبا ببعض المجاهدين. تكون النتيجة عادة بالإيجاب. فالـ "قومية" يدعون الضابط إلى لقاء ثانٍ، ويقترحون عليه الأسلحة والمؤن، في انتظار إدماجهم في جيش التحرير الوطني. وهم يذكرون جميعُهم تقريبا، ثلاثة أسباب دفعتهم إلى الالتحاق بصفوف العدوّ:

1 – الرغبة في حماية نسائهم وأطفالهم.

2 – الرغبة في الانتقام من عملاء وشوا بهم إلى العدوّ.

1) نوع من مكاتب شؤون الأهالي المتخصصة في التعذيب والتضليل الإعلامي والمراقبة الشاملة للقرى.

3 – عدم توافق المزاج مع بعض قادة جيش التحرير الوطني، الذين اعتبروهم خشنين جدا أو خاملين جدا بحسب الحالات. وهم يطالبون ضابط الاتصال على الدوام تقريبا، بتنحية بعض الضباط، فتعمد القيادة غالبا إلى تحويلهم إلى قطاعات أخرى.[1]

وبعد معرفة شروطهم وقبولها، يلتزم "القومية" بتموين جيش التحرير الوطني بالذخيرة، وبإطلاق النار في الهواء في حال الاشتباك، وبالفرار عند الاقتضاء.

يروي الحاج لخضر: "كنتُ أقلِّص حالات الفرار إلى أدنى حدٍّ في الواقع؛ أولا، لأن للثقة حدودا – فبإمكان العدو الغادر استخدامهم في عمليات مغشوشة – ثم لأنهم كانوا أنفع لنا حيث هم، كـ "قومية". وكنتُ أشجعهم على إنشاء لجان ثورية. فقد ضربوا مرة موعدا لأحد ضباطي، على بُعد أمتار قليلة من أحد المراكز العسكرية الفرنسية، وقد كان الضابط خائفا، ولم يشعر بالراحة، فقالوا له: "لا تشغل بالك، فأنت ضيفنا، وسنحميك مهما حدث." وفي هذه المرة، أعطوه بغليْن محمّليْن بسبعمائة رصاصة ونحو عشرين زيا عسكريا.

وقبل الانصراف، تحدث الضابط ثانيةً عن اللجنة المنتظر إنشاؤها. وسأل، إن كان ثمة متطوع لرئاستها. فلاحظ ترددا، إلى أن قامت امرأة وقالت: "أنا أتطوع لرئاستها!"

عمل الحاج لخضر من جوان 1958 إلى أكتوبر 1958 ما في وسعه بما يملك. وظل هاجسه هو التموين. فقد كان خائفا تماما من المجاعة، ويشعر بالمسؤولية في إطعام الجنود والمدنيين. كما حفر مخابئ

---

1) قبل "قومية" أولاد رشاش، المتمركزون بمكتب شؤون أهالي خنشلة، الانضمام مجددا إلى جيش التحرير الوطني، شريطة نقل ضابطيْن اثنين. فقبل مركز قيادة الولاية ذلك، وتم نقل أحد الضابطيْن وهو بلقاسم حفصاوي إلى المنطقة الأولى (باتنة)، بينما مات الثاني وهو عمار "رافال" أثناء اشتباك مع العدو قبل نقله.

سرية كلف جنودا بحراستها، من أجل مكافحة الحصار الغذائي الذي فرضته فرنسا. وكان غالبا ما يغيّر مسالك مواكب البغال، التي كانت كثيرا ما تتعرض لهجمات الطيران الفرنسي، الذي كان يستخدم النابالم لأتفه الأسباب.

أما انتصاره، فيكمن في أنه ضمِن للمجاهدين وجبة ساخنة كل يوم، وجهز بالأدوية وعتاد الجراحة الصغيرة مستشفى الولاية بكيمل، وكذا مستشفى منطقة مروانة الجديد، الذي كلفت تهيئته مبلغ خمسة عشر مليون سنتيم.

كان كل مجاهد يحوز دفترا، يتضمن قانون جيش التحرير الوطني بالعربية والفرنسية. وقد قُيِّدت فيه التعليمات الواجب مراعاتها، أمام هجوم بالغاز أو بالنابالم، والأخطاء التي يتعين اجتنابها، مثل الفرار أمام العدوّ، أو إضاعة السلاح، أو إفشاء سرّ، أو الاستسلام للعدوّ.

ويعاقب على الأخطاء، بحسب خطورتها، بالإعدام والسجن وتخفيض الرتبة، وبالقيد أخيرا في السجل الأسود.

جويلية 1958. كان مصطفى بوستة ضمن وفد من ثلاثمائة مجاهد من التوابة والسراحنة والبوسليمانية؛ طلب من الحاج لخضر وقف المعارك بين الأشقاء. فردّ عليهم الحاج بعدم القبول، وزاد من سخطهم واضطرابهم. وبعد بعضة أسابيع، عاد محمد الشريف بن عكشة من تونس. فقد عيّنته قيادة الأركان قائدا للمنطقة الثانية (أريس) تحت أوامر الحاج لخضر. لم يكن الرجلان في البداية متّفقيْن. ثم ساءت علاقاتهما بسرعة. فأمر الحاج لخضر بن عكشة بالتوجه إلى الجنوب في الولاية السادسة. فأطاعه بن عكشة وجمع نحو مائة مجاهد، من بينهم بوستة، وذهب ليلتحق بأحمد بن عبد الرزاق (الذي لقي حتفه برفقته في مارس 1959).

اجتماع ما بين الولايات (الطاهير، نوفمبر 1958)

سبتمبر 1958. تلقى الحاج لخضر رسالة تدعوه إلى اجتماع بين الولايات.

"ورد في الرسالة، أن عليّ التوجه إلى الولاية الثالثة. وهو ما فعلتُه، مصحوبا بكتيبة من نحو ستين مجاهدا، وحرس شخصي من اثنيْ عشر رجلا، وقد استغرقتُ شهرين تقريبا، لقطع المسافة بين كيمل وباليسترو (الأخضرية). في باليسترو التقيتُ محند أولحاج، الذي أخبرني بأن مكان الاجتماع يقع في الولاية الرابعة. وبما أنني كنت لا أعرف المنطقة، فقد أعطاني مرشدين قبائل. فاتّبعنا آثار عميروش وأحمد بن عبد الرزاق، اللذين انطلقا قبلنا. وقرب "لافاييت" غير بعيد عن آقبو، وقعنا في كمين نصبه العدوّ. وفقدنا مجاهدا، فدفنّاه. في اليوم الموالي نبش الفرنسيون القبر وأخرجوه، ثم أعاد دفنه مناضلون مدنيون. وواصلنا طريقنا، وتناولنا الطعام في المساء في ضيعة لا يفرقها عن مركز "قومية"، سوى مجرى ماء. وبلغنا "الاثنين" في ضواحي خراطة؛ أسقط أحد المجاهدين حجرا، فسمعنا نباح كلاب "القومية". لقد انكشفنا. واتبعنا "القومية" ولحقوا بنا، فحفرنا خنادق. ومرت الطائرات، ورجعت دون أن ترانا. كنا في مكان مكشوف، لا أشجار فيه لكنه مليء بالحصى. وفي اليوم الموالي، بلغنا جبل البابور في الولاية الثانية. هناك، لمحتُ بمنظاري علي كافي واقفا أمام خيمة. كان في تلك الفترة يتولى وظيفة قائد الولاية الثانية. فأرسلنا إليه دعوة للانضمام إلينا. أقصد أنا وعميروش وبوقرة والحواس [1]. فأجابنا بعد يومين، بأنه لا يمكنه حضور الاجتماع دون موافقة بن طوبال. وفوض مكانه الأمين خان والرائد حسين.

---

1) سي الحواس هو اسم شهرة أحمد بن عبد الرزاق.

وبدأ الاجتماع أخيرا في أول نوفمبر 1958، في الطاهير غرب خراطة. كانت جميع الولايات ممثلة فيه، باستثناء الولاية الخامسة.

- الولاية الأولى : الحاج لخضر.
- الولاية الثانية : الأمين خان.
- الولاية الثالثة : عميروش.
- الولاية الرابعة : محمد بوقرة.
- الولاية السادسة : أحمد بن عبد الرزاق.

دام الاجتماع اثني عشر يوما. ونوقشت فيه جميع المشاكل التي تعترض الولايات.

يقول الحاج لخضر: "أسسنا في البداية قواعد جديدة، كانت أولاها التزام التنظيم الخارجي، بأن يرسل إلينا بأسلحة. في حين لم يتم ذلك، كنا متفقين بالإجماع، على إنشاء قيادة عسكرية جديدة في الداخل، والانفصال عن قيادة أركان عديمة الفائدة [1]. بعد ذلك، وتَجنُّبًا لاختناق جبهات القتال، قررنا إنشاء فيالق جديدة، وتركيزها على طول الحدود الجزائرية التونسية. كان على كل ولاية دفع نصيبها من المجاهدين، حتى بلوغ رقم اثني عشر ألف رجل، قادرين على مشاحنة القوات الفرنسية، المحتشدة هي نفسها على طول الحدود المذكورة. وكان يتعين أن يتجوّل باستمرار، فصيلٌ من ألف رجل، يتنقل على جانبيْ الحدود، ويقود الهجمات. كما قررنا حفر مخابئ مُشيّدة من حجر، ذات أبواب مصفحة، لتخزين الأسلحة فيها، خاصة بجهة قالمة، ووضعها تحت حماية خمسة آلاف جندي. وتكون على جانبيْ الحدود

1) قررت قيادة الأركان، التي أخطرها علي كافي حسب الحاج لخضر، وإدراكا منها لخطورة التهديدات، استدعاء قادة الولايات الأولى والثالثة والسادسة إلى تونس لعقد جلسة عمل، حيث سيُمنعون من العودة إلى الجزائر.

أيضا، مراكز محمية بأسلحة ثقيلة في بير العاتر (قرن الكبش) – زريكة، تبسة – رومان وماعونة – قالمة وسوق أهراس."

كان من الواجب البدء بتنفيذ هذا البرنامج على الفور. وكانت الولاية الثالثة أول من طبقه: فقد أرسلت كتيبين إلى الولاية الأولى. أما الولاية الرابعة، فلم ترسل الأربعمائة مجاهد المتفق عليهم، وهذا بسبب استشهاد بوقرة. ولم يصدر رد فعل عن الولايتين الثانية والسادسة.

منتصف ديسمبر 1958. بعثت قيادة الأركان برسالة، تطلب فيها من القادة الثلاثة، للولايات الأولى والثالثة والسادسة، المجيء إلى تونس. اتصل محمدي سعيد بالحاج لخضر بواسطة الراديو، وطلب منه المجيء "لتصفية حساب قيادة الأركان، وإعادة الثورة إلى مسارها."

في حدود شهر فيفري 1959، تلقى الحاج لخضر أمرا، قاطعا هذه المرة، بالالتحاق بتونس. تردد، وتحدث عن نقص في الإطارات، ونقص في الإمكانات. فاتصل به عميروش وقال له: "تعال معي إلى تونس! سيأتي الحواس أيضا."

فقبل وانتظر مجيئهما. ثم علم باستشهادهما. فلم يكد يصدّق. ووجّه رسالة عاجلة إلى الولاية الثالثة. فأكدوا له الحادثة. وطلبت منه قيادة الأركان توضيحات، فردّ بأنه لا يملكها.

بعد بضعة أسابيع، بلغه خبر استشهاد بوقرة. فأبلغ قيادة الأركان عندئذ بنيته في البقاء في الداخل: "أرسلوا إليّ بالأسلحة والإطارات والعتاد!" وكالعادة، ردّت قيادة الأركان: "قريبا!"

وانتظر شهرين، "ستين يوما، وستين ليلة" عبثا.

في أثناء ذلك، عاد المنشقّون إلى هجماتهم، أشرس من ذي قبل، على مواكب التموين، ودوريات الجنود النظامية. وقاموا بتعذيب بعض المناضلين.

رغب الحاج في مقابلة قادتهم، فلقيهم واقترح عليهم هدنة، يثبت فيها كل طرف على موقفه. [1] وأوّلَ المنشقون مقترحات الحاج على أنها دليل ضعف، وضاعفوا من عدد مناوشاتهم، حتى شلّوا تماما الاتصالات فيما بين النواحي. وكانوا أحيانا يقبلون بالعودة إلى جيش التحرير الوطني، ثم لا يلبثون أن يغادروه بعد بضعة أيام، بعد أن يكونوا قد سرقوا الأسلحة والمؤن.

حتى أنهم قاموا بإنشاء ولاية جديدة سمّوها الولاية السابعة، ولم يعودوا يردّون على عروض الحوار.

وقبل الحاج لخضر، بإلحاح من قيادة الأركان، التوجه أخيرا إلى تونس. كان ذلك في مطلع ربيع سنة 1959 [2].

---

1) كان الحاج لخضر ينوي في الواقع مهاجمتهم بمجرد وصول قوات منتعشة من المنطقتين الأولى والثانية.

2) جمع الحاج في تونس – بمشقة – 30 مقاتلا و14 مدفع هاون و12 بازوكة و24 بندقية رشاشة "بار" وأكثر من 200 قطعة سلاح آلية. ولم ينجح بسبب الحاجز المكهرب في العودة إلى الجزائر. والحاجز المكهرب، هو سلسلة تعزيزات رهيبة بمنظومة إنذار متطورة وقوة نيران مهولة. وقد تركت قيادة أركان جيش التحرير الوطني في الخارج متسعا لفرنسا في بنائه على طول الحدود الجزائرية التونسية. وقد كان من الفعالية، بحيث تم خنق جيش التحرير الوطني في الداخل كليا، حتى أن بعض جنود الحدود رفضوا اجتيازه.

خـــاتمـــة

في خلال ربيع سنة 1959، غادر الحاج لخضر، آخرُ قائد بقي على قيد الحياة بعد المذبحة، الأوراس والجزائر، ليبدأ منفاه الطويل في تونس. أصبحت الولاية الأولى معضلة حقيقية بالنسبة لأعضاء قيادة الأركان في تونس، فلم يعد ثمة زعيم. وسادت الأوراس والنمامشة الفوضى، وأصبح كل واحد يعوّل على نفسه فقط. ونتذكّر إلى اليوم، جواب أحد المنشقين النموشيين، الذي طُولب باحترام النظام الساري المفعول: "إن أنا احترمتُ نظامكم، فماذا أفعل بنظامي أنا؟" لم يكن تفكك الولاية نتاج المصادفة، بل نتيجة عوامل عديدة. كان أهمها نشاط التقسيم الذي كان يقوم به مسعود بن عيسى، ومماطلات مصطفى بن بولعيد، وأخطاء شيحاني الذي كان مهيمنا وواثقا من نفسه، وطموح عجول الذي لم يكن يتردد في القتل للاستيلاء على السلطة، والسلوك المريب والضار لعميروش الذي كان يستغله الطاهر النويشي وآخرون كُثر، وأخيرا السلوك الفاضح صراحة لقيادة الأركان، التي كانت تتصرف كهادم أكثر منها كبانٍ.

لقد تعرض الإمداد الذي أنشأه شيحاني وعجول بتفانٍ، في الأوراس والنمامشة، إلى الإتلاف. لم يعد أعوان الاتصال يتنقلون، لأنه لم يعد ثمة ما يمكن وصله. وخلت المخابئ والملاجئ، ولم تعد تضمن أي أمان.

وأصبح المجاهد عدوا للمجاهد. وتركت فرنسا الأتون يتغذى من ناره بعد أن أوقدته. فكان الجو السائد في الولاية الأولى، جوّ دمار وخراب. وتم نسيان هدف أول نوفمبر 1954: إقامة دولة جزائرية ديمقراطية اجتماعية ذات سيادة، في إطار مبادئ الإسلام. وتحولت الثورة الجزائرية إلى انتفاضة يأس، استُبعِدت منها الأخلاق والحلم.

حتى سبتمبر 1955، ظل سكان الأوراس والنمامشة بعيدين عن الكفاح التحرري، يشاهدون كمتفرجين غير معنيين، الصراع بين جيش التحرير الوطني والجيش الفرنسي، إلاّ أن شدة القمع وقساوة المجازر الجماعية التي كانت تحصد الأرواح دون تمييز، جعلتهم ينخرطون لصالح الثورة بشكل جماعي أكثر.

وما إن اختفى مصطفى بن بولعيد من الساحة، حتى استخدم شيحاني السلطة وأساء استغلالها؛ كانت نواياه خالصة، ولكن "في الحرب، لا مكان للنية، وحدها النتيجة التي تهم!" لقد أيقظ، بسبب التهور أو عدم التبصر، عداوات عشائرية قديمة وتاريخية، كانت أقوى من الثورة نفسها.

هوامش

1* منذ 1947، بدأ التنظيم في شراء الأسلحة وإرسالها نحو الأوراس. وكانت في الغالب متأتية من مخزونات قديمة ألمانية – إيطالية من الحرب العالمية الثانية. وكان شراؤها يتم بوساطة شركة إيطالية في بنزرت (تونس). وكانت الأموال تُجمع من اشتراكات المناضلين أو المناصرين، الذين كان يُطلَب منهم ذلك لأجل بناء أو ترميم مساجد، أو مدارس وهمية.

في حدود سنة 1952، أجرى مصطفى بن بولعيد فرزا، وقرر بيع الأسلحة القديمة والاحتفاظ بالحديثة منها فقط.

وقد أصبح جزء كبير من الأسلحة غير صالح بسبب الصدأ، لانعدام تخزين ملائم. وقد استرجعت البقية الشرطة الفرنسية، حتى دون أن يجتهد كثيرا في ذلك. فقد كان يُعاقَب فعلا على حيازة السلاح بغرامة بسيطة. أضف إلى ذلك، أن التنظيم قد نجح في رشوة عديد أفراد الشرطة والدرك الفرنسيين.

أحيانا، ومن أجل الحصول على الأسلحة، كان الحاكم الفرنسي لبلدية أريس المختلطة، يستخدم الحيلة، فيدعو جميع الصيادين الشاوية إلى طِراد، قصد القضاء على الخنازير البرية. وفي اليوم المحدد، لم يكن أفراد الدرك يجدون عناء، في نزع سلاح حشد بكامله، نتيجة سذاجته.

يُعرف أن الأوراسي شغوف بالأسلحة النارية، فكل الفرص جيدة لتمكينه من إحراق العيارات بالآلاف. فمثلا، من أجل الحصول على حق مرافقة عروس إلى بيت زوجها، ينظم الشاوية منافسة فيما بينهم: سيرافقها من يطلق أكبر عدد من العيارات النارية، إنه قصف حقيقي، يزيد من هياجه، انتماء الرجال إلى عشائر مختلفة.

وتغض فرنسا اللئيمة البصر عن ذلك. وفي سنة 1953، أمر الحزب بوقف التبذير، منقذا بذلك كمية من الذخيرة لفائدة الثورة.

قبل أول نوفمبر 1954 ببضعة أسابيع، قام مصطفى بن بولعيد بالسفر ثلاث مرات بين أريس وبرج منايل، لينقل في سيارته الخاصة، الأسلحة الحربية الموجهة إلى رجال منطقة الجزائر العاصمة وبلاد القبائل.

2* يقع حمّام شبّورة في منطقة وعرة المنفذ، شمال درمون بنحو خمسة وعشرين كيلومترا. هو حمّام طبيعي، يتكوّن من حوضيْن داخل حجرة مبنية بالحجارة، يُدخَل إليها بباب يبلغ علوُّه 1,5 متر تقريبا. وينبع الماء من على بعد 500 متر لجهة المهبط، وهو غني جدا بالكبريت؛ الكبريت المستخدم أصلا بكثرة في صناعة الخراطيش، ويجري في ساقية، في الهواء الطلق، مبيّضا الحجارة والنباتات المحيطة. ويتساقط الماء عند مخرج المقصورة، من ارتفاع أربعة أمتار، على طول صخور ذات طبقات قد بيّضها الكبريت. وتلفّ الحمّامَ نخلةٌ عظيمة. وقبالة الحمّام ساحة تتيح منظرا خلابا للشلال والنخلة.

3* من المهمّ ملاحظة الفوارق الموجودة بين سلوك الفرنسيين، وسلوك مجاهدي جيش التحرير الوطني إزاء أسراهم. فالفرنسيون يعذِّبون الجزائريين بانتظام، ويعدمونهم غالبا فورا، ويخفون الجثث. أما المجاهدون، فيعاملون الأسرى بالعكس كضيوف، وفق شريعة الإسلام. فحينما أعطى عباس لغرور بعض المال للرقيب الفرنسي، الذي ألقي عليه القبض في جلال، موصيا إياه بشراء بعض الحلوى لأطفاله، فلا ينبغي أن نرى في هذا السلوك أية دلالة سياسية، بل علامة على تقليد عادي راسخ في الأعراف الأوراسية.

ويلاحظ عباس نفسه، وهو يزور الملازم لويس الأسير في كيمل، أن القمل يغزوه. فيستبد به غضب شديد ويأمر بنقله إلى حمّام شبّورة لانتزاع قمله. كما أشرك مصطفى بن بولعيد، هذا الأسير نفسه، في احتفالات تجين. وبشير شيحاني يعامل هو الآخر بلياقة جنود الخيالة الفرنسيين الذين أُلقي عليهم القبض في واد فروج، قبل أن يطلق سراحهم بعد بضعة أشهر سالمين معافين.

4* في البداية لم يكن ثمة أي نظام رتب في جيش التحرير الوطني. وكان المسؤولون يُدعَون بأسمائهم أو بألقابهم، دون تمييز. فحين يخاطب أحدهم شيحاني مثلا، قد يقول: سي بشير أو سي مسعود أو سي العربي (الأسماء الحربية).

5* يقود المنطقة مسؤول منطقة، يساعده مسؤول سياسي. وتنقسم المنطقة إلى أربع نواحٍ، ويقود الناحية قائد ناحية، يساعده مسؤول سياسي. والناحية تنقسم إلى أربع قسمات أو قطاعات. ويقود القسمة قائد قسمة، يساعده مسؤول سياسي. وتتكون القسمة أخيرا من خلايا (حتى 12 خلية لقسمة واحدة).

تخضع الخلايا في المدن أو في الريف لسلطة القيادة العسكرية. وثمة التزام إجباري باحترام السلم التصاعدي، في هذا الاتجاه وفي الآخر. تنظم لجنة القطاع، ما عدا في الحالات الاستثنائية، جلسة عمل مرة كل 15 يوما. وتجتمع لجان النواحي مرة في الشهر ولجان المناطق مرتين. وبفضل أعوان الاتصال، تنتقل المعلومة دون توقف بين مختلف الهيئات ومقر قيادة الإدارة.

6* أولى مصطفى بن بولعيد ومن بعده بشير شيحاني أهمية كبيرة لاختيار أعوان الاتصال. ويكون عادة مناضلا مجرَّبا، قادرا على "اشتمام" المعلومة التي يعطيها أو التي يتلقاها. وهو ملزم بتكتّم مطلق.

توجد فرق اتصال حقيقية على مستوى كل هيئة من القيادة: الإدارة، المنطقة، الناحية، القسمة. فمثلا حين يعطي مقر قيادة الإدارة تعليمة، فإن أعوان اتصال ينقلونها في ظروف مختومة، إلى قادة المناطق الستّ. تنشرها كل منطقة بدورها، على نواحيها الأربع، وتبعث بها كل ناحية على قطاعاتها الأربعة. وأخيرا، يُبلغ كل قطاع لجان القرى أو المدن.

إن تعليمة الإدارة تحتِّم، إذن، استخدام فريقيْ اتصال اثنين على الأقل، وعدة أيام لبلوغ القاعدة. ويستخدم أعوان الاتصال غالبا، في الاتصالات ما بين النواحي، وهم بالزي المدني، وسائل نقل تضمن لهم سرعة التحرك، كالبغال أو الدراجات أو السيارات أو الحافلات أو القطار.

7* توجد الخلية في وضع حرج، ذلك أنها على صلة مباشرة بالمواطنين ومشاكلهم كالغيرة والرغبة في الأخذ بالثأر الشخصي، والعداوة بين العشائر. و غالبا ما تكون المعلومات مثار شك. فمثلا، يتم إبلا غ رئيس خلية، بأن المواطن الفلاني يتعاون مع العدوّ، فيُحدِّث في الأمر أعضاءَ الخلية الآخرين، ثم يُعِدّ تقريرا يوجهه إلى المسؤول السياسي للقطاع. وأثناء اجتماع لجنة القطاع، يُدرَس التقرير ويناقش. ويُطلب المزيد من الأدلة من رئيس الخلية، بينما يُعيّن دون علمه أعوانٌ خاصون للتحقيق في أمر المشبوه. إنهم نوع من أعوان الدرك، وعددهم

من 2 إلى 4 في كل قسمة. ويتم التحقيق في الحالة بصورة مدققة. وعندئذ يجتمع المجلس العسكري بحضور المشبوه أو في غيابه. يتكون المجلس من خمسة أعضاء من لجنة القطاع، إضافة إلى مناضليْن اثنين. وثمة أربع احتمالات: الحكم بالإعدام، الحبس في "كازمة" (مخبأ)، دفع غرامة أو الحكم بالبراءة. وإذا كان المشبوه حاضرا، فمن حقه اختيار مدافع من بين أعضاء المجلس العسكري، باستثناء الرئيس. وهنا يتم تعيين ممثل للنيابة.

يقرأ الرئيس قرار الاتهام، ثم يحيل الكلمة إلى ممثل النيابة، الذي يطالب بعقوبة تستند إلى قانون الثورة. ويتكلم المدافع باسم المتهم. ثم يخرج المتهم (إن كان حاضرا) وتتم المداولة والتصويت. تكون الإدانة أو التبرئة بالأغلبية البسيطة. ولا وجود للاستئناف. وترسل نسخة من المداولات إلى لجنة الناحية.

8* الهيئة القاعدية في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، هي الخلية التي تضم عشرة أعضاء، إضافة إلى مسؤول عادةً ما يعيّنه رئيس القسمة. يسكن المناضلون حيا في مدينة، أو مشتى أو قرية في الريف. يمكن رفع عدد المناضلين إلى خمسة عشر أو أكثر، حسب وجود أو انعدام الإطارات بعدد كافٍ.

ويتم تجنيد المناضلين على ثلاث مراحل:

1 – خلق الروح الوطنية: يوقظ لدى المواطن الإحساس بالانتماء إلى كيان قومي، فيتم إفهامه أن الحياة بدون المعمّرين الفرنسيين، تكون أسهل وأعدل. فيتم تضخيم أدنى الإهانات الاستعمارية، مثل مخالفات أعوان الدرك، وغرامات حراس الغابات، ومختلف مظاهر عدم المساواة الاجتماعية. وبعد عدة أشهر من التلقين، وحسب تقبّل

المواطن، يتم الانتقال إلى المرحلة التالية، وهي مرحلة النصير. وبعد بعض الوقت، ووفق رزنامة صارمة دائما، يصبح المواطن مشتركا، فيعطي مبلغا زهيدا يرتفع بالتدرج حسب إمكاناته. وأخيرا، إن كان يستجيب للمعايير، يتم قبوله كمناضل مهيكل ويتلقى بطاقة.

2 – إنشاء التنظيم: يصبح المناضل المهيكل دولابا في كلٍّ شامل. فهو يطيع دون مناقشة، ويتعلم العمل في إطار منظم ذي قوانين واضحة.

3 – خلق الروح الثورية: يتم البدء بإدخال مفهوم الاستقلال. ولبلوغ هذا الهدف، يتم الحديث عن الكفاح، وعن الثورة، إذ أن النظام الاستعماري لا يمكن تدميره إلا بالعنف. ينبغي أن يكون المناضل مستعدا للتضحية بنفسه.

وتتطلب هذه المراحل، أحيانا، سنوات عديدة من أجل تجسيدها.

9* بدأ بشير شيحاني ابن الخروب، النضال ضمن «MTLD» شابا يافعا. ويصفه زملاؤه في ثانوية قسنطينة بالشاب النحيل ذي المظهر المريض، المتكتم، لكن الشغوف جدا بكرة القدم.

في سنة 1951 كان مطلوبا لدى شرطة الاستعلامات العامة. فدخل في السرية، وفي سنة 1952 عُيِّن رئيسا لدائرة باتنة.

تتكون دائرة باتنة من أربع قسمات :

1 – خلية خنشلة ويديرها عباس لغرور

2 – خلية بريكة مع محمد خنترة

3 – خلية فم الطوب مع الطاهر النويشي

4 – خلية أريس مع عجال عجول

كان يتقن العربية والفرنسية بالسهولة نفسها. حمل في السرية اسم سي مسعود. لم يكن يحضر اجتماعات الحزب إلا نادرا جدا. فهو نفسه، يتبع مسؤول الولاية الموجود في قسنطينة.

وقد أعلن يوما: "يخلق الاستعمارُ البؤسَ لدى مالكي الأرض الحقيقيين، والثروة لدى المستغلين الأجانب، وأغلبهم ذوو سوابق قضائية ومغامرون، أُرسِلوا إلى الجزائر لاحتلالها."

وهو يتحدث بوجهه الشاحب وعينيه السوداوين الثاقبتين، كصاحب رؤى، واثق من نفسه ومليء بالطاقة. وقد لاحظ جميع من عاشروه، حُبَّه للحياة، وشغفه بالعمل المتقن. فهو لا يحب لا الارتجال ولا الفوضى. فكل شيء في ذهنه واضح تماما، فيما يتصل بطريقة خوض الثورة، وله في هذا الشأن درجة وعي عالية جدا، مقارنة بأعضاء القيادة الآخرين، بمن فيهم مصطفى بن بولعيد.

وهو مولع بتدوين أفكاره عن الحرب الثورية، الطريق الوحيد في نظره، نحو الاستقلال والتغييرات الاجتماعية، على الورق في شكل مناشير. وكمنظِّم، فإن رأسه تعج بالأفكار. وقد كانت لديه الجرأة الخارقة حينها على تحويل مقر قيادة الأوراس نحو النمامشة، محوِّلا بطريقة حاسمة مركز ثقل الثورة، معرّضا إياها كلها لبذور الشرق الثرية الهائجة. ولم يتردد في تعديل التنظيم الهيكلي وإثرائه. وقد كانت لديه شجاعة إقالة قادةٍ مرعبين وانتحاريين، وإخضاع آخرين أخطر منهم! وبرغم حداثة سنه، إلا أن الجميع يعترف بهيمنته. فقد حرر قانون المجاهد في اللغتين ووزعه ، بحيث لا يمكن لأي جندي أن يتخفى وراء الجهل.

ومنع في الوقائع كل ما هو شفهي: فكل شيء ينبغي أن يُكتب ويؤرشف. فأصبح، بفضله، من غير الوارد، مقابلة محافظ سياسي

أو كاتب قطاع أو منطقة أو ناحية، بدون محفظته السميكة وآلته الراقنة المحمولة!

كما قام بتقسيم العمل بين المجاهدين وحمّلهم المسؤولية: فعلى كل واحد أن يتحمّل تصرفاته. وهو الذي رسم رفقة عجول، المسالك ومعالمها ومراحلها، ورسم حدود النواحي وأنشأ قطاعات جديدة في أليناس وسطيف.

وقد أبدى فكرا حديثا جدا بالنسبة لتلك الفترة: فقد أذن للنواحي والقطاعات في صرف نفقات من مال الثورة، ولو تطلب الأمر إرسال الإثباتات إليه. كما كان، حين يرسل مفتشيه إلى الميدان، يمنحهم جميع السلطات من أجل حل المشكلات في عين المكان. بل لقد سبق عصرَه، حينما قرر تنظيم "أبواب مفتوحة" بوادي هلايل، للتعريف أفضل بالثورة لدى الشعب.

وقد أنشأ من العدم مستشفى طوارئ في كيمل، مزودا بغرفة عمليات صغيرة، مجهزة بعتاد جراحي تمّ جلبه من باتنة وتبسة.

وهو أخيرا، أول من أنشأ سلك المحافظين السياسيين، للقضاء على المشاكل التي نشبت بين جيش التحرير الوطني والشعب. غير أنه من كثرة ترديد تحذير الأول من الثاني، تحول الحذر مضاعفا إلى عداوة، وأحيانا إلى تجاوزات. بينما يتمثل دور المحافظ السياسي بالتحديد، في تلقين هؤلاء وأولئك قانونا للتعايش.

10* يعود الخصام بين عجول وبين عيسى إلى فترة ما قبل الثورة. فخلال سنة 1947، احتل لصوص الشرف جبال الأوراس. وقد كانوا أربعة: حسين برحايل ومسعود بن زلماط وعيسى مكي – وثلاثتهم من عشيرة آل بوسليماني – وبلقاسم قرين من عشيرة الشرُّفة. سعت

السلطة الاستعمارية إلى استعمالهم في مكافحتها لـ «MTLD»، وقد تم الاتصال بين الخارجين عن القانون والحاكم المدني الفرنسي، بوساطة "القيّاد" والعملاء المأجورين. فوعدهم الحاكم بعدم معاقبتهم، بل وبالمال إن هم رضوا بتحطيم «MTLD». فوافقوا وأُذِن لهم عندئذ، بإجبار السكان على دفع الدِّيّات.

أضاعت «MTLD» كل مصداقية، غير أن مصطفى رفض إعلان الحرب على الخارجين عن القانون، كي لا يؤجج الشقاق بين العشائر، إذ أن اللصوص والمناضلين، هم أبناء عمومة في العشيرة الواحدة. فأحبط بذلك خطط الإدارة الاستعمارية.

ولم يلبث أن صار الالتحاق باللصوص موضة لدى الشباب، سواء لتجنب الخدمة العسكرية، أو لعدم دفع الغرامات، أو إثر أية خصومة مع دركي أو حارس غابة.

وقد بلغ عدد الخارجين عن القانون ستة عشر، وكانت أكبر مجموعة هي مجموعة برحايل، وتضم ثلاثين لصا.

في هذه الأثناء، أصبح من الصعب على «MTLD» مواصلة تهريب الأسلحة بقوافل الإبل من تونس.

وأنشأ الفرنسيون ميليشيات بواقع ثلاثين رجلا لكل دوّار، بإجمالي 14 دوارا، مسلحين ومدفوعي الأجور شهريا. هم رسميا موظفون للبحث عن اللصوص، ولكن مهمتهم في الواقع، تتمثل في تدمير «MTLD».

سادت هيمنة الخارجين عن القانون من سنة 1947 إلى سنة 1950. وقد اتسمت بإرواء الثأر الشخصي بين عشيرة وأخرى. وقد حدثت أحيانا بعض المناوشات مع رجال الدرك الفرنسيين، ولكن الضحايا لم يكونوا عديدين.

ابتداء من سنة 1950، تدخلت «MTLD»، فمنحت مناضليها أسلحة، ولكنها أمرتهم بتجنب كل اشتباك مع رجال الدرك ولصوص الشرف. ما تطلب في بعض الحالات حزما كبيرا. وبموازاة ذلك، وبوساطة مناضلين من العشيرة نفسها، تقرر اختراق مجموعات اللصوص. فأثنى الحزب على بطولتهم، وطلب منهم الانضمام إليه لمكافحة العدوّ المشترك. وامتُدِح كل رئيس مجموعة، وخلال بضعة أشهر فقط، كان جميع القادة تقريبا أعضاء في «MTLD»، مع مهمة حماية حزبهم من المشنِّعين ومن المكتب الفرنسي الثاني.

طُلِب منهم مهاجمة مراكز الدرك، ومنازل "القياد" و"الباشاغوات" من حين لآخر. ولم يستسلم الفرنسيون للوضع، فسلّحوا مجموعات أخرى، وألّبوها ضد الأولى. فقُتِل عيسى مكي وبن زلماط، واستُقدِم دركيّون متنقلون، فاسترجعوا عديد الأسلحة، وأودعوا أناسا الحبس. في سنة 1951، لم يبق في الجبال سوى مجموعات اللصوص الوفية للـ «MTLD».

يحقد مسعود بن عيسى على عجول، لأنه رفض قبوله في إحدى خلايا الـ «MTLD». لكنه يفلح في الانضمام إليها بفضل صالح بن ناجي. حرّض مسعود بن عيسى على مؤامرة ضد الطاهر النويشي.

وخلق الفتنة بين بن زلماط وقرين، وعند موت الأول، اتهم عجول صراحة بالوشاية به لدى الفرنسيين. فاحتج عجول لدى مصطفى بن بولعيد، الذي ساند ضد بن عيسى، دون أن يحسم في الأمر، تاركا الخصومة تتفاقم في صمت. كان عجول حينئذ رئيس قسمة أريس. فهاجم بن عيسى اتصال عجول، واستثار البوسليمانيين ضده بعد موت بن زلماط.

ذهب عجول المهدد بالموت يشكو أمره إلى مصطفى. وبرغم ذلك كله، فقد أوكل مصطفى في أول نوفمبر 1954 لبن عيسى، مهمة مهاجمة منجم إشمول مع بن شايبة، تاركا النزاع بين الرجلين يتواصل ، مثل نار تنشر لهبها خفية تحت الأغصان الساكنة في الظاهر. في جانفي 1955، أعلن بن عيسى، بحضور مصطفى، أنه لن يعمل في منطقة عجول. وفي أفريل 1955 ندّد بن عيسى، نفسه، بالطريقة الجائرة التي يوزع بها عجول الأسلحة القادمة من الجنوب والشرق. فردّ عليه عجول: "هذا طبيعي، أنا آخذ نصيبا أكبر من نصيبكم، لأن رجالي هم من يتحملون مخاطر نقلها حتى كيمل."

ولم يحسم بشير شيحاني هو الآخر الأمر. فقد عيّن بن عيسى ناظر مالية، أملا في أن يأخذ كل ما يحتاج إليه، ويكفّ عن طرح المشاكل. غير أن العكس هو ما حدث بالضبط، إذ أن بن عيسى دخل في حالة شبه انشقاق في الشلية.

11* روى لي الحاج لخضر فرار مصطفى بن بولعيد، كما سمعها بنفسه من فم المعني: "بعد أن حُكِم عليّ بالإعدام، كان عليّ مواصلة كفاحي. وبفضل من الله، كان جميع رفاقي في الزنزانة متفقين معي. حفرنا أرضية الزنزانة بالمناوبة، وكنّا نرى من فرجة باب، زنزانة أخرى لا أحد فيها، مليئة بالأفرشة والأسرّة والأغطية. لم يكن في الساحة سوى التبن والقش. فاصطنعنا مفتاحا بذراع ملعقة. وحاولنا دون نجاح خشخشة باب الزنزانة المجاورة. وواصلنا الحفر باستخدام أذرع ملاعق، ثم ملاعق كاملة، نغلّفها بخِرق قماش، لحمايتنا من الحرارة التي كانت تصيب المعدن نتيجة الجهد المتواصل. كنا نحفر ليلا، وكان من لا يحفر يرتل القرآن بصوت عال. كنا ننهش الإسمنت

بعمق ونصل إلى التراب. كان للثقب شكل مربع غير سويّ. نفرغ ركام التراب في دورة المياه بكميات صغيرة ما عدا الحجارة. ثم أفلحنا في العثور على عُود، فربطنا به ملعقة، وحفرنا بسرعة أكبر. حتى استطعنا الجلوس في الحفرة.

كنا ثلاثين شخصا وكنا نحفر. بدأنا بالحفر بالطول. في النهار كنا نغطي الحفرة بالبلاط الإسمنتي، الذي كنا قد انتزعناه في البداية. قمنا بتمويه الشروخ بالصابون. وبلغنا الجدار الفاصل، فانتزعنا أحجاره ودخلنا الحجرة الأخرى، التي يفضي بابُها إلى الساحة. وفتحناه بسهولة. بلغ القلق أوجَه. فكّكنا أقدام الأسِرّة. كنتُ ألح على التكتم. وصنعنا سُلّما بقضبان الأسرة، ومزقنا بعض الأغطية. كان السّلم في الواقع قصيرا. ثم أجرينا القرعة لتحديد نظام الخروج. ولكن الرجال اتفقوا، جميعهم، على أن أكون أول من يخرج! كانوا جميعا يعرفون رقم خروجهم؛ مع أحد الرفاق، تسلقنا الجدار الأول بيُسر، وكان الثاني أصعب. قفزتُ أولا. فلمحتُ أناسا يتجولون. وقفز رفيقي هو الآخر وبقينا مذهولين لبضع دقائق. ثم أفلتنا من باب المقبرة. قلبنا سترتيْنا، ومشينا حتى "قطار العياش" على بعد 25 كيلومترا – لا أستطيع أن أقول لك كيف – كنا خائفيْن وكان النعاس يغالبنا! وواصلنا باتجاه الجنوب الشرقي. كنا نشعر بالبرد. وكنا نرى رجالا. فالتجأنا إلى قعر واد. كنا نشعر بالجوع والعطش. العطش أكثر من الجوع. بقينا في الوادي حتى المساء، ثم واصلنا سيرنا. شربنا من نبع، وبلغنا البحيرات في الصباح الموالي. كانت أقدامنا مسلوخة ومنتفخة. كنا نمشي مثل البط، جاعلين أسفل القدم إلى الداخل. وبلغنا جبلا صغيرا غرب البحيرات، فاختبأنا في أكمة صغيرة. طلب رفيقي بعض الرغيف من مزارعين (لعلهم من أولاد سيدي علي). فأكلنا

القطعة التي مُنِحناها، وكأننا في كابوس. نحن الآن نسير على الإسفلت، ونختبئ وراء أكوام الردم بمجرد رؤية سيارة. إلى أن بلغنا عين ياقوت. فأعطانا رجل رغيفا وتمرا مهروسا. لا يبدو عليه التعرف علينا ولم يندهش لمظهرنا، ولكنه انزعج عندما طلبنا منه بغلا.

طلب منا الانتظار واختفى. لم ننتظر، ورحنا نجري بخطى غريبة، مثيرة للسخرية. اختبأنا وراء صخرة ورأيناه عائدا ببغل، فنادينا عليه. ساعدَنا على ركوب الدابة، ورافقنا حتى منطقة المعذر حيث عجزنا عن النزول. فساعدنا على وضع أقدامنا على الأرض، ثم غادرنا، مُستردّا بغله. كانت أقدامنا منتفخة جدا، ولكننا مشينا عبر الحقول. أما الطريق، فكان خطيرا جدا. كانت هنالك سيارات كثيرة! وبلغنا المنعطف، على بعد 18 كيلومترا من باتنة، فتسلقنا على أربع، قمة رابية صغيرة. أقبل نحونا رعاة شباب. كنتُ أستطيع بالكاد التحدث إليهم. هدّدتُهم بالموت، إن هم أفشوا خبر وجودنا لأي كان. نظروا إلينا، ورأوا أقدامنا وحالها المثير للشفقة. لم يتفوّهوا بشيء، والدموع تنساب على خدودهم. ثم جلسوا إلى جانبنا وعرضوا علينا حميرهم. وفي المساء جاءونا بالبيض المسلوق والماء ورغيف شعير. كانت هذه نعمة! ليس كثيرا، فلم نكن نستطيع المضغ حتى. في الليل، استخدمنا حميرهم لبلوغ "بلخرّ". غادرنا الرعاة. وبلغنا فسديس، حيث تكفل بنا فلاح شيخ. وفي اليوم الموالي، بلغنا وستيلي بين عين التوتة وبوزينة."

12* مثّل "القومية" في الأوراس والنمامشة، قوة مساعدة معتبرة للجيش الفرنسي في الكفاح ضد جيش التحرير الوطني بفضل معرفتهم بالميدان وعادات المجاهدين. وتعتبر حالة السبتي مرشي نموذجية. فهذا التوبي، من عشيرة مصطفى بن بولعيد نفسها، قد وضع نفسه في

خدمة العدوّ، وأنشأ "قوما" يتكوّن من مئات المرتزقة، فقط للانتقام من عمر بن بولعيد، الذي يكون قد قتل أخاه. واستخدم الفرنسيون هذه الطريقة مع "القومية" المغاربة أو "الطابور"، الذين كانوا يقومون بالنهب والسلب، باستخدام أحطّ الغرائز، كما يفترض أنها كانت لدى زُمر جنكيز خان. فالنهب والسلب، والسرقة، والاغتصاب، والاغتيال، والتعذيب هي من ميزات "القومية". وقد كانوا يطيعون محرّضيهم دون استفسار.

وقد بلغت المفارقة حدّا، أصبح فيه الأهالي يفضّلون تمشيط الجنود الفرنسيين على "القومية". فالفرنسيون كانوا يستطيعون القسوة ويقدرون عليها، ولكنهم كانوا، على الأقل في بداية الحرب، يُبْدون شعورا بالرحمة أمام الشقاء، أما الآخرون، فلم تكن تثيرهم أية شفقة، وكانوا يبلغون مدى فعلتهم بتلذذ.

وهذا ما يفسر سبب تعامل المجاهدين مع الكل بصفة مماثلة، حتى أتى اليوم الذي أَوْقَفَ فيه مصطفى بن بولعيد، وقد وعى مخاطر الحرب بين الأشقاء، المجازر الوحشية، وأمر على نقيض ذلك، بمقاربة أكثر ليونة.

عندما كانت تعليمات مصطفى تقع بين أيدي ضباط واعين من جيش التحرير الوطني، فإن النتائج تكون فورية: الاستعلام في البداية، ثم بعض الخراطيش، ثم إطلاق عيارات في الهواء أثناء الاشتباكات، وفي الأخير الفرار الصريح بالسلاح والعتاد. كان كل شيء يتوقف على اللياقة وعلى طريقة تصرف الضابط المعني.

ولكن للأسف. ففي الغالب، لم يكن ضباط جيش التحرير الوطني في المستوى. ويمكن ذكر حالة مصطفى رعايلي، ابن أخت مصطفى بن بولعيد. فقد كان رعايلي قائد قطاع حديث الإنشاء بسطيف. وقد ساءه

أن ينخرط أفراد عشيرة من قطاعه في "القوم" الفرنسي. فشتم أمام مجلس "الجماعة" رئيسها، وقيّده وعنّفه واصفا إياه بالخائن. وفي اليوم الموالي، بعد رحيل رعايلي، طلب رئيس الجماعة وكافة قبيلته السلاح من فرنسا، فانخرطوا في مجموعات الدفاع الذاتي، محوِّلين القطاع كله إلى منطقة محرّمة على جيش التحرير الوطني.

وقد حدثت حالات أخطر من ذلك. فقد كان بعض المجاهدين، ممن لم يتقبلوا أن يصبح أحد أبناء العشيرة "قوميا"، يهاجمون كامل الأسرة. فيسارع "القومي" إلى الأخذ بالثأر من أسرة المجاهد؛ وها هي الدورة الجهنمية من الانتقام والانتقام المضاد تنطلق!

وقد تم بلوغ الذروة حينما تزوج "قومية" على نسائهم زوجات المجاهدين، مستولين في الوقت نفسه على المسكن والأطفال والأرض، مجبرين المجاهدين على مغادرة جيش التحرير الوطني، لاستعادة أملاكهم والثأر لأعراضهم والعودة إلى جبهة القتال ثانية.

وقد حدثت على هذا النحو حالات جيئة وذهاب مدهشة، بين جيش التحرير الوطني ومجموعات "القومية". وغالبا ما كان ضابط جيش التحرير الوطني المكلف، يشجع "القومي" على البقاء في صفوف العدوّ، حيث هو أنفع.

13* كانت مصلحة الصحة التابعة لجيش التحرير الوطني، في أوراس النمامشة في البداية، بدائية جدا، مقتصرة على عون علاج بسيط، وممرض يحمل بعض أغراض الحقن في محفظة. ثم تم افتتاح عيادات بسيطة – هي في الواقع ركن في مخبأ – حيث يستخرج الممرضون الرصاصات أو الشظايا، شرط ألا تكون عميقة جدا.

في المراحل الأخيرة، تم إما إنشاء مستشفيات نواح أو مناطق بمُستخدَمين أكثر تأهيلا: طلاب في الطب وأطباء، يمكنهم التكفل بأولى الاستعجالات. كانت نسبة الوفيات شبه معدومة. وكان الجرحى يُنقلون على ظهور البغال، أو يحملهم الجنود على نقالات تقليدية. وغالبا ما كان يتم الاستنجاد بأطباء أو جراحين مناضلين يقطنون المدينة. وأحيانا أخرى، كان يُنقل الجنود إلى مستشفيات العدو، حين كان الأمر يتعلق بحالة خطيرة.

كانت الأدوية تشترى من صيدليات المدينة، بمساعدة باعة جزائريين يعملون في صيدليات فرنسية. وكان يتم نقلها عبر المسارات الاعتيادية. وقد سمح استخدام نساء ملتحفات يحملن قففا مليئة بالأدوية، بالاحتفاظ بسرية المسار لفترة طويلة. وكان مناضلون يعملون في المستشفيات، يستولون على عُدَد الجراحة والأدوية.

ولم تكن المشكلات الصحية في حدّ ذاتها عديدة. فقد كانت الأمراض نادرة جدا. وكانت العلاجات تتلخص في جراحات صغيرة، ومداواة الحروق، وتثبيت الجبس على الكسور ومواضع التواء المفاصل، وخياطة الجروح. وبالنظر إلى الوسائل المتوفرة، فقد كانت النتائج أكثر من ممتازة.

14* عند وصول عميروش في شهر أكتوبر 1956 إلى الأوراس، كان عمل هيكلة الولاية في الواقع قد انتهى. وكان المشكل الوحيد العالق، هو كبر حجم المناطق. فقد كان مصطفى بن بولعيد في اجتماعه الأول في فيفري 1956، قد وضع قواعد تقسيم جديد. فقد كان ينبغي تقسيم منطقة أريس مثلا إلى اثنتين.

في نوفمبر 1956، كانت الولاية الأولى تضم ستّ مناطق:

1 – المنطقة الأولى بمدينة باتنة كعاصمة. وتشمل: عين التوتة والقنطرة وبريكة ومسيلة وبرج بوعريريج ونصف مدينة سطيف والعلمة وعين مليلة (ستُضمّ هذه البلدة الأخيرة فيما بعد إلى المنطقة الرابعة).

2 – المنطقة الثانية وعاصمتها أريس. وتصل حتى خنشلة وتضم أيضا عين ياقوت والشمُرّة ولامبيز.

3 – المنطقة الثالثة وعاصمتها بسكرة. وتمتد حتى مشونش وسيدي عقبة وطولقة وجنوب القنطرة. وتضم أيضا منعة وغسيرة وبوسعادة.

4 – المنطقة الرابعة(*) وعاصمتها عين البيضاء. وتشمل أم البواقي وعين فكرون وعين كرشة وعين مليلة.

5 – المنطقة الخامسة وعاصمتها سدراتة. وتضم مداوروش وتاملوكة و"رينييه" و "غونو" والكويف والونزة.

6 – المنطقة السادسة وعاصمتها تبسة والحدود الجزائرية التونسية، مع نقرين وبير العاتر والشريعة ويوكس الحمّامات.

كان يقود كل منطقة مسؤول عسكري، وفي حدود شهر سبتمبر 1955، ضم إليه شيحاني مسؤولا سياسيا. وبعد سنة من ذلك، أصبح يقودها نقيب، يساعده ثلاثة ملازمين أولين (عسكري وسياسي واستعلامات).

---

*) بعد أن صدر هذا الكتاب، وصلت رسالة إلى الكاتب، بعث بها أعضاء جمعية الشهيد الرائد عمار راجعي بمسكيانة (الشرق الجزائري)، يحددون فيها ما يلي:

"تتكون المنطقة الرابعة التابعة للولاية 1 من النواحي التالية: مسكيانة، وعين البيضاء، وأم البواقي وعين مليلة. وقاد هذه المنطقة الرابعة بنواحيها الأربع، النقيب عمار راجعي، المدعو سي عمار، من شهر أوت 1956 إلى غاية نهاية النصف الأول من سنة 1959، حيث أصبح رائدا، وعضوا كامل الحقوق بالمجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA) إلى غاية استشهاده، ليلة 30 جوان 1960، بخط موريس المكهرب والملغم، بالشرق الجزائري."
الناشر.(ANEP)

تتكون المنطقة من أربع نواح. ويقود الناحية ملازم، يساعده ثلاثة مرشحين (عسكري وسياسي واستعلامات).

تنقسم الناحية إلى أربع قسمات (قطاعات). ويقود القسمة مساعد، يساعده ثلاثة رقباء أولين (عسكري وسياسي واستعلامات).

ونجد في المنطقة عشرين ضابطا. غير أنه من الواضح، أن السلطة الفعلية كانت بين أيدي المسؤولين العسكريين.

15* إثر فرار مصطفى بن بولعيد من سجن قسنطينة، أعلن عجول أن ثمة شيئا مؤكدا: لم يستطع مصطفى الفرار بمفرده وبوسائله الخاصة. فقد عقد صفقة مع الاستعمار، ونال حريته، ثم انقلب على فرنسا التي لم تغفر له ذلك. وثمة شيء لا يقلّ صحة عن ذلك: إن مصطفى، عند وصوله إلى جبهة القتال، لم يُبْدِ أي تغيير، ولا أي وهن في معتقداته الوطنية. فقد عاود العمل بالحماسة نفسها والعزيمة نفسها، كما لو كان مستعجلا في تدارك الوقت الضائع.

كان مصطفى رجلا شريفا. فقد كان لديه ما يكفي من الثقة في مهابته، ليعيد بناء وحدة الأوراس. ولكن الوقت لم يسعفه. وقد كان بإمكانه أن يمنح تلك العشائر المتناحرة، دواعيَ للعمل ضد السلطة القائمة، دواعيَ دينية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو حتى شخصية. كان يمكن للعمل المشترك أن يشكّل وحدة، ولكن العمل ضد السلطة الأجنبية، كي ينجح، كان ينبغي أن يكون متواصلا وغير متوقف، قائما باسم تنظيم غير شخصي، قوي وغير معلوم، لتجنُّب بلورة جميع الرِيَب العتيقة إزاء سلطة مشخصة؛ لكن كلّما توقف العمل المشترك، كانت الانقسامات لتعود للظهور بين العشائر، وتكسر الوحدة. وعندئذ، كانت العشائر تبرز من جديد إلى السطح، كل واحدة من جهتها، مثل شياطين تخرج من قماقمها.

كان مصطفى يعرف هذه الظاهرة؛ لا بد أنه فهم بأن حكمه لم يكن صائبا، عشية أول نوفمبر، عندما تخلّف سائق الشاحنة التوبي – من عشيرته ذاتها– عن الموعد. وربما كان اختيار مناضل آخر من عشيرة أخرى، سيؤدي إلى نتيجة مغايرة. وربما كان المناضلون السبعون ليتوفروا على وقت أكبر، إذ أنهم كانوا سينزلون قبل ذلك، ولم يكن قربُ طلوع الصباح، وجهلُهم بمسرح العمليات ليجعلهم يضطربون. كذلك الأمر بالنسبة لاختيار الدليل، وهو الآخر توبي؛ فقد تخلى صراحة عن المجموعات في مدينة مجهولة تماما بالنسبة إليهم.

ويوضح هذان المثالان بجلاء، الوفاء الأعمى للقبيلة والعشيرة، الذي لا يفلت منه أحد، حتى قائد بحجم مصطفى. وقد صدر عنه التصرف غير المعقول نفسه، إزاء نواورة وعزوي.

وبطبيعة الحال، وكما لو أنه كان يريد تفنيد ما سبق ذكره، أو كما لو أنه كان يريد استخلاص الدرس من ذلك، فقد نصب شيحاني وعجول وعباس لغرور، على رأس الإدارة قبل رحيله نحو المشرق، وهم ثلاثة رجال لا ينتمون إلى عشيرته. وطلب صراحة بإبقاء أخيه عمر خارج التنظيم.

لم يكن ليجهل الشقاق بين العشائر. فقد كان يعلم، أن كل عشيرة تنتصر لأبطالها، ظالمين كانوا، أو مظلومين.

وهو يعرف طبع أخيه الماكر والسيئ، والتلقائية الخطيرة أحيانا للشيخ مسعود بلعقون، الذي أوصاهم بالإبقاء عليه لبركته.

ومن وجهة نظر وراثية بحتة، فإن مصطفى – دون وعي منه – لم يكن يرغب، ربما، في الزواج إلا من ابنة عمه، كما لم يكن يريد الخروج عن حدود عشيرته. ليس لأنه يثق أكثر في ذويه، ولكن لأنه يستطيع،

لمعرفته الجيدة بهم، توقع ردود أفعالهم، واللعب على وتر شرف القبيلة والعشيرة، حيث تكون المسؤولية جماعية، وفي حالة الغدر، فإن العار يلحق بجميع أفراد العشيرة.

لقد وُلد مصطفى ليكون زعيما؛ كان شجاعا وموهوبا. كان ذو منطق صلب، وصِلة وطيدة بالواقع. كان يعرف مكونات العجينة التي سُلِّمت إليه، ليبدأ بها صنع الثورة.

16* روى لي بيشة قصةً، تُبيّن مدى تدهور علاقته بعجول: "بعد موت شيحاني ببضعة أسابيع، التقى أعضاء القيادة الثلاثة، عجول وعباس ولزهر شريّط، لقضاء ليلة في حاسي مسلّم. كدّر جوُّ الاحتفال والابتهاج السائد مزاجَ بيشة، الذي قرر الذهاب لقضاء الليل لدى عمه في تجين. وقبل الذهاب، عَهدَ ببندقيته "البران" إلى أحد ممونيه. في فجر اليوم الموالي، وهو عائد من بيت عمه، صادف عملية دبّرها الفرنسيون حول حمّام شبّورة. فاستعاد بندقيته "البران" وممّونيْه الاثنين وذخائره، ونزل نحو "برقة" جنوب برج درمون. ورافقه العياش باتسي وفصيلته المكونة من 35 رجلا. وبقي عجول الذي أرسلهم للاستطلاع، في عين المكان، بحاسي مسلّم مع القائديْن الآخريْن. في هذه الأثناء، لحق ببيشة اتصال، وأخبره أن الفرنسيين قد بلغوا "لبعال" شرقا. كانت السماء تعج بالطائرات والمروحيات، وجنود العدوّ متجمعين في الولجة. شرع بيشة ورجال باتسي المختبئون في إطلاق النار مواجهةً، إلا أن بندقيته "البران" رفضت العمل ! وقد حاول ثلاث مرات، بدون جدوى. كان هنالك عطب ما؛ فتفقّد التطعيم، وضغط على الزناد: لا شيء. فصاح: "القطعة معطلة! تدبّروا أمركم!" فابتهج رجال باتسي، وراحوا يطلقون النار كما لو كانوا في تمرين.

كان الفرنسيون يتقدمون على ثلاثة جوانب، ساعين إلى مناورة تطويق. وتقدم المجاهدون باتجاه الولجة والتنظيم الفرنسي، موقفين مباشرة تدخل الطيران.

صرف بيشة ممونيه، والتقط جرابه المليء بخازنات الرصاص، ووجد نفسه وحيدا، وسط ميدان مكشوف، قبالة الفرنسيين الذين يصيحون فيه: "سلِّمْ نفسك وضَعْ سلاحك جانبا." فأجاب: "لا تطلقوا النار!" ومنبطحا، وجّه ضربة قوية لمؤخرة البندقية، مما أعاد المطرقة إلى مكانها – أو أي شيء آخر لم يكن في مكانه– ثم قام وذراعاه مرفوعتان، مثل عفريت، وشرع يطلق النار بيد واحدة، مفرغا العيارات الثلاثين في الجنود الفرنسيين، الذين تراجعوا فورا. وفي اللحظة نفسها تقريبا، وجه سلاحه الفارغ نحو طائرة رشّته من أعلى.

أعاد تعمير بندقيته الرشاشة، وكسر الحصار الفرنسي بكل جرأة. وبعد ذلك بفترة، في المساء نفسه، التقى عباس وعجول. "يا بوسنة، لقد نجوت مرة أخرى إذن!" "نعم، هذا الشيء اللعين، تركني عاطلا، ولكنه عاد إلى الحياة عندما ضربته."

فضحك عجول والتفت إليه عباس: "أحدهم خرّب سلاحه." فقال عجول: "كيف يمكن معرفة ما إذا كان قد تعرّض للتخريب أم لا؟" ليس ثمة أي دليل."

فقال بيشة: "لا أدري مَن يكون الفاعل، يا سي عجول، ولكنني تركتُه البارحة في حال جيدة، قبل ذهابي إلى تجين." "يا بوسنة، نحن نعرف طبعك، فلطالما توهّمتَ." كانت النظرة التي ألقاها عباس عندئذ على عجول خالية من أي لطف.

وقد طرحتُ السؤال على بيشة: "هل تعرضت البران للتخريب؟" فأجابني بشيء من الغضب: "حسب رأيك أنت؟"

كان الفرنسيون يتقدمون على ثلاثة جوانب، ساعين إلى مناورة تطويق. وتقدم المجاهدون باتجاه الولجة والتنظيم الفرنسي، موقفين مباشرة تدخل الطيران.

صرف بيشة ممونيه، والتقط جرابه المليء بخازنات الرصاص، ووجد نفسه وحيدا، وسط ميدان مكشوف، قبالة الفرنسيين الذين يصيحون فيه: "سلِّمْ نفسك وضَعْ سلاحك جانبا." فأجاب: "لا تطلقوا النار!" ومنبطحا، وجّه ضربة قوية لمؤخرة البندقية، مما أعاد المطرقة إلى مكانها – أو أي شيء آخر لم يكن في مكانه– ثم قام وذراعاه مرفوعتان، مثل عفريت، وشرع يطلق النار بيد واحدة، مفرغا العيارات الثلاثين في الجنود الفرنسيين، الذين تراجعوا فورا. وفي اللحظة نفسها تقريبا، وجه سلاحه الفارغ نحو طائرة رشّته من أعلى.

أعاد تعمير بندقيته الرشاشة، وكسر الحصار الفرنسي بكل جرأة. وبعد ذلك بفترة، في المساء نفسه، التقى عباس وعجول. "يا بوسنة، لقد نجوت مرة أخرى إذن!" "نعم، هذا الشيء اللعين، تركني عاطلا، ولكنه عاد إلى الحياة عندما ضربته."

فضحك عجول والتفت إليه عباس: "أحدهم خرّب سلاحه." فقال عجول: "كيف يمكن معرفة ما إذا كان قد تعرّض للتخريب أم لا؟" ليس ثمة أي دليل."

فقال بيشة: "لا أدري مَن يكون الفاعل، يا سي عجول، ولكنني تركتُه البارحة في حال جيدة، قبل ذهابي إلى تجين." "يا بوسنة، نحن نعرف طبعك، فلطالما توهّمتَ." كانت النظرة التي ألقاها عباس عندئذ على عجول خالية من أي لطف.

وقد طرحتُ السؤال على بيشة: "هل تعرضت البران للتخريب؟" فأجابني بشيء من الغضب: "حسب رأيك أنت؟"

الفهرس

توطئة 7

القسم الأول 9

نهاية مرحلة التخمر 11

الشعلة الأولى 11

مقاومون محنكون 23

الخوف من الفشل 29

الشغف بالأسلحة النارية 41

لص شرف 44

تعداد مرعب 51

الأيام العجاف 57

سفر مصطفى بن بولعيد نحو المشرق 62

شيحاني في النمامشة 68

انتشار حرب العصابات 73

كمين جلاّل 85

جولة عجول في الأوراس الشرقي 94

قضية الحاج كربادو 104

جولة عمر بن بولعيد في الأوراس الغربي 108

تقنين العمل الثوري 113

قضية الغبروري 120

عزل عمر بن بولعيد 127

أبواب مفتوحة على الثورة 134

معركة الجرف 138

موت شيحاني 150

حكم عجول 163

7 .....
9 .....
11 .....
11 .....
23 .....
29 .....
41 .....
44 .....
51 .....
57 .....
62 .....
68 .....
73 .....
85 .....
94 .....
104 .....
108 .....
113 .....
120 .....
127 .....
134 .....
138 .....
150 .....
163 .....

القسم الثاني 167
النَّفَس الثاني 169
فرار مصطفى بن بولعيد 169
احتفالات تجين 178
مصطفى بن بولعيد قائدا للإدارة ثانية 183
موت شيوعيين 187
معركة إيفري لبلح 193
اجتماع الجبل لزرق 200
اجتماع كيمل 203
موت مصطفى بن بولعيد 207
اجتماع تاغدّة 212
عمر بن بولعيد قائدا للإدارة 215
عميروش في الأوراس 219
استنطاق عجول 225
محاولة اغتيال عجول 232
استسلام عجول 237
القسم الثالث 241
نهاية البداية 243
لجنة التنسيق والتنفيذ في الأوراس 243
تعيين الحاج لخضر على رأس الولاية الأولى 248
انفجار الولاية الأولى 257
إعادة تنظيم النواحي في الولاية الأولى 261
اجتماع ما بين الولايات (الطاهير نوفمبر1958) 265
خاتمة 269
هوامش 271

الأكاديمية الجزائرية لتداول الوثائق و المصادر التاريخية.

مغربلو الرمال

الأوراس – النمامشة (1954- 1959)

قال أعرابي حكيم : «لا تأمل في معرفة الحقيقة من خلال الرجال؛ بل ابحث عنها أولا، وستعرف من يعمل بها.» عندما حاول الدكتور مداسي تخليص تاريخ الثورة في الأوراس والنمامشة من الأساطير والأسرار المحيطة به، وجد نفسه أمام رجال ذاقوا ويلات العذاب، وواجهوا الموت مرارا وتكرارا؛ هؤلاء الرجال أدلوا له بشهاداتهم: فمنهم من شهد، دون أن يكون من وراء ذلك أي حافز شخصي، ومنهم من أدلى بها من أجل ترسيخ حضوره في هذه المرحلة الحاسمة من التاريخ.

إن محمد العربي مداسي حاول، من خلال هذا المؤلف، ومن خلال زيارته لوقائع الثورة، أن يعطي الكلمة لمن رحلوا عن هذه الدنيا، بالرجوع إلى ذاكرة بعض من هؤلاء الرجال، الذين نجوا من الموت بأعجوبة.

محمد العربي مداسي

وُلد محمد العربي مداسي بوهران، في عائلة تنحدر من منطقة الأوراس. انخرط في صفوف الثورة التحريرية في سن السادسة عشر. في 1957 أدخل السجن بباتنة؛ ثم عرف المنفى، في نفس العام، فنُقل إلى فرنسا. بعد إقامة قصيرة بتونس، توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تحصل على شهادة في علم البيولوجيا، سنة 1961. ثم واصل، بعد الاستقلال، دراسات في الطب.

9 789947 215159